السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية ٢/١٣/٩

كتاب الالمام

بالإعلام فيما جرت به الأحكام و الأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية

لمحمد بن قاسم بن محمد النويرى الاسكندرانى

(المتوفى بعد سنة ٧٧٥ ﻫ / ١٣٧٢ م)

الجزء الثانى

بدأ تحقيقه
من مخطوطات برلين و القاهرة
الدكتور إتيين كومب المتوفى سنة ١٩٦٢ م

و أتم تحقيقه و التعليق عليه
من مخطوطات برلين و القاهرة و بانكى پور
الدكتور عزيز سوريال عطيه

طبع

باعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية

تحت مراقبة

الدكتور محمد عبد المعيد خان
مدير دائرة المعارف العثمانية

بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند

١٣٨٩ ﻫ = ١٩٦٩ م



فذلكة

يسعدنا اليوم أن نقدم الجزء الثانى من «كتاب الإلمام» إلى قراء العربية آملين أن نتلوه بالأجزاء الأخرى تباعا فى فترات غير متباعدة . والكتاب كما يتضح من هذا الجزء وما سبقه إنما ألفه محمد بن قاسم النويرى الإسكندرانى فى بادئ الأمر لتسجيل ما رآه كشاهد عيان وما جمعه من المعلومات عن طريق السماع من أخبار حملة بطرس لوسينان ملك قبرس على الإسكندرية فى سنة ١٣٦٥م، وما أحدثته جيوشه فيها من التخريب والنهب والسلب والسبى بعد اقتحامها، ثم فرارهم منها على وجه السرعة بمجرد ظهور طلائع النجدة السلطانية من القاهرة بقيادة الأمير الأتابكى يلبغا الخاصكى ، ثم عودتهم إلى جزيرة قبرس بأساطيلهم محمّلة بالغنائم والأسرى ، فكان لذلك من الأثر السيء فى نفوس المصريين عموما ما عدا الدولة إلى إعداد العدّة للأخذ بالثأر من قبرس والإمارات المسيحية المتاخمة لامبراطورية المماليك .

ولكن المؤلف استهواه القلم فانتهز كل مناسبة لفظية أو معنوية لإقحام الكلام الخارج عن موضوع رسالته مما لا بد أن يكون قد جمعه على ممر السنين من الكتب القديمة فى شتى الفنون بحيث أصبح كتابه أشبه شيء بدائرة المعارف الأدبية سرد فيها الكثير من القصص والنكات والتاريخ والمسائل الفقهية والمصطلحات اللغوية والشعر وغير ذلك حتى طغى الفرع على الأصل، وظهرت بين سطوره الحملة الصليبية المذكورة كجزء يكاد يكون يسيرا إذا قيس بما احتواه الكتاب من

الموضوعات الأخرى .

لهذا السبب انحصرت خطتى الأصلية مع المرحوم المسيو كومب فى النشر على استخلاص ما يمتّ بصلة لحملة القبارسة و صرف النظر عن بقية محتويات الكتاب . و لكنى فى النهاية قبلت شاكرا دعوة أسرة « دائرة المعارف العثمانية » الموقرة لنشر نص الكتاب كاملا غير منقوص لاقتناعى بأنه رغم شرود المؤلف عن جادة موضوعه قد احتوى نبذا فريدة عن أمور هامة يندر العثور عليها فى المصادر الأخرى ، من بينها فى هذا الجزء على وجه التمثيل طبوغرافية مدينـــة الإسكندرية فى القرن الرابع عشر الميلادى ، و عَرْضٌ وافٍ لأنواع السفن التى كانت تجوب بحر الروم و القلزم و الهند و أنهار النيل و الدجلة و الفرات ، و لمحات فى تاريخ التجارة ، و المرابطة فى جزيرة الإسكندرية . و قسطا من القصص الذى يلقى ضوءا على العادات الشائعة آنئذ و الأدب الشعبى المعاصر (الفولكلور) المصرى ، إلى جانب الأشعار و القصائد و الشعراء المجهولين فى أسفار الأدب العربى المعروفة ، ذلك بخلاف المعضلات الفقهية الخاصة و الكثير من الأحاديث النبوية و نوادر الخلفاء و فقرات من تاريخ العرب فى العصر الجاهلى و العلاقات بين العرب و الروم من ناحية و علاقة المسلمين و المسيحيين الشرقيين من أبناء جلدتهم من ناحيـة أخرى مما أثبتناه بحذافيره فى هذا الجزء الهام من هـــذا الكتـاب الذى سيفتح أبوابا عديـدة للبحوث التاريخية و الأدبية .

و ربما كان تنوّع مادة الكتاب و اتساعها و تشعبها راجعا لصناعة

المؤلف

المؤلف كما ذكرها فى هذا المجلد و هى نساخة الكتب القديمة لحساب الأغنياء من تجار العرب و المسلمين بمدينة الإسكندرية . فليس إذن من المستبعد أن النويرى و الحالة هذه كان مكدّا فى استنباط ما استحسنه من النبذ فى تلك الكتب التى كان ينسخها ثم أدخلها فى صلب كتابه الذى نحن بصدده . يضاف إلى ذلك مشاهداته الخاصة باعتباره من سكان السواحل و اتصاله بأنواع السفن التى كانت تمخر عباب البحار و بحّارتها من مواطنيه و غيرهم حتى أمكنه وصفها و تفصيل أسمائها و وظائفها بشكل يصعب العثور عليه فى مصدر آخر .

و يلاحظ أن المؤلف كان مقلا فى تبويب مادة الكتاب و فصوله و لو أن بعض النساخ أمثال ناسخ مخطوطة برلين اعتاد على ذكر كثير من الفقرات التى تصلــــح عنوانا للموضوعات التى طرقها المؤلف بالهوامش مما أثبتناه فى حواشى الكتاب . أما ما أورده المؤلف فى النص من رؤوس لفصول الكتاب فقليل لا يتناسب مـع سعة محتوياته . و فيما يلى نسرد تلك الفقرات فى المجلد الحاضر :

« ذكر الإسكندرية و بانيها و تاريخ فتح الصحابة لها »

« ذكر منام ريوك والد ربير »

« ذكر السبب الذى حمل صاحب قبرس على غزوة الإسكندرية و غير ذلك من الواردات المستطردات »

« ذكر كيفية ظفر القبرسى بالإسكندرية بما جمعه من أجناس نصارى الرومانية و غير ذلك من الواردات المستطردات »

« ذكر المرثاة التى رثا بها الإسكندرية مؤلفه » .

و قد اعتمدنا فى إحياء نص الأجزاء الأولى من الكتاب بما فيها هذا الجزء الثانى على مخطوطة برلين التى رمزنا لها بالحرفين « بر » ، وقارنا مادتها بمخطوطة بانكى پور التى رمزنا لها بالحرفين « بن » ، و قد استفدنا من الأخيرة فى ملء بعض الثغرات و إيضاح عدد من المصطلحات الغامضة التى استقام بها المعنى فى النص الأول . غير أننا درجنا على وضع الزيادات التى عثرنا عليها فى « بن » فى الهوامش رغم ما فى بعضها من بياض نشأ عن كثرة ترميم ورقاتها . و بذلك نكون قد أثبتنا مادة المخطوطتين فى صعيد واحد دون الخلط بينهما . و يتضح من حواشى هذا المجلد أن أجزاء لا يستهان بها سقطت من « بن » و قد أثبتنا ذلك فى موضعه .

و هناك نقطة ختامية لا مندوحة لنا من ذكرها بشأن أسلوب الكتاب ، و ذلك أننا تحاشينا جهد الاستطاعة إدخال أى إصلاح لغوى فى النص إلا فى أضيق الحدود فى إعراب بعض الكلمات و زيادة الهمزات التى جرى المؤلف على التجاوز عنها و إستعمال الهجاء الصحيح المعروف لبعض الكلمات .

و إنى إذ أسدى الشكر على الأستاذ الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير « دائرة المعارف العثمانية » و أعوانه الكرام على مراجعتهم النص و رعايتهم لطبع هذه الأجزاء أبدى أن مسؤلية الزلل محصورة فى شخص المصحح دون غيره .

سولت ليك سيتى
٢٥ اكتوبر سنة ١٩٦٨ م

عزيز سوريال عطيه

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر الإسكندرية

و بانيها و تاريخ فتح الصحابة لها

و لهج الناس [٧٥ : الف] بقولهم : إن الإسكندرية مبصور لها ، تدخلها الفرنج عنوة يوم الجمعة و يظفرون بها - إلى غير ذلك من الواردات المستطردات . يقال : لهج الشيء - أغرى به فثابر عليه ، و اللهجة[1] من قولهم : هو فصيح اللهجة ، و هو اللسان ، و اللسان يخرج ما في القلب ، فإن سكت اللسان فليس أحد[2] يلوم القلب ، لأن اللسان لجة عظيمة كثيرة المياه ، لكن من يستطيع [أن -[3]] يغطى الأرض ؟ [4] لكن [5] اللسان ظهرت به جميع الأعمال من الطاعات ، فهو كرامة الإنسان ، و هو

---

(١) زيد في بن (٥٥ : ب) : هو .

(٢) وقع في بر : احدا ، و التصحيح من بن .

(٣) ما بين الحاجزين ساقط من بر و بن كليهما و لا بد منه .

(٤) زيد في بن : قال بعضهم سمعت اعرابيا .. [اللهم إني أعوذ بك أن أقول] زورا أو اغشى فجورا أو اكون بك مغرورا ، و سمعته يقول .... ان تظهر المعنى صحيحا و اللفظ فصيحا .

(٥) في بن : و اعلم ان .

يرفع و يضع . و إذا حفظ الإنسان لسانه فيما لا يعنيه سلم منه و حصل له الخير . قال النبي صلى الله عليه و سلم : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . قيل[1] إن أمير المؤمنين المأمون[2] قال لغلامه يوما : يا غلام! ائتني بالدواة – و الدواة إلى جانب القاضي يحيي بن أكثم و هو جالس بمجلس المأمون ، فلم يكلم القاضي يحيي الغلام في ذلك و لا وضعها يحيي بين يدى المأمون ، فجاء الغلام حين سمع كلام المأمون في المرة الثالثة و قدّم الدواة بين يديه ، فأول ما كتب منها : [3]يعطى يحيي[3] بن أكثم عشرة آلاف درهم لحسن أدبه في تركه ما لا يعنيه .

[4] كتب[1] بعض المشايخ إلى المأمون رقعة فيها مرافعة في إنسان ، فكتب المأمون عليها[5] : السعاية قبيحة و إن كانت صحيحة ، فان كنت أخرجتها بالنصح فخسرانك فيها أكثر من الربح ، و أنا لا أسعى في محظور ، و لا أسمع قول مهتوك في مستور ، و لو لا أنت في خفارة شيبك لقابلتك على جريرتك[6] مقابلة تشبه أفعالك ، فدع عن نفسك هذا العيب ، و اتّق من يعلم الغيب ؛ فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

(١) بهامش بر : نكتة .

(٢) في بن : المأمون ابن الرشيد .

(٣ - ٣) في بن (٥٦ : الف) : ليحيى .

(٤) زيد في بن : و .

(٥) ليس في بن .

(٦) في بن : جريمتك .

و كتب

و كتب[1] بعضهم للمأمون[2] رقعة فيها : إن فلانا قد مات و خلف مالا عظيما و ليس له وارث إلا طفل مرضع ، و إن تحكم القضاة فيه ضاع[3] و أمير المؤمنين أولى به . فقلب الرقعة و كتب على ظهرها : الطفل جبره الله و أنشاه ، و المال ثمّره الله و أنماه ، و الميت رحمه الله و رضي عنه و أرضاه ! و أما الساعي في رفعها لعنه الله و أخزاه ! ثم رد له[4] الرقعة .

و قال الشاعر[5] في التعرّض لأذى الناس [6] و التملق[6] :

لم يبق في الناس غير الخبث و الملق   شوكا إذا لمسوا وردا إذا رمقوا
فان دعاك الهوى يوما لصحبتهم   فكن جحيما لعل الشوك يحترق[7]

انتهى .

نعود و أما[8] لهج الناس بقولهم فيما مضى من الزمان و قيل

(١) بهامش بر: نكتة .
(٢) في بن : إلى المأمون .
(٣) زيد في بن « الملك » .
(٤) ليس في بن .
(٥) في بن : بعضهم .
(٦ - ٦) ليس في بن .
(٧) زيد في « بن » : و الحذر من المداهنة ..... قال الشاعر :

إذا خان الأمير و كاتباه   و قاضي الأرض داهن في القضاء
فويل ثم ويل [ثم ويل]   لقاضي الأرض من قاضي السماء

- انتهى .

(و يلاحظ أن الشطر الأول من البيت الثاني كان فيه بياض) .

(٨) في « بن » و لما .

و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب لمع[١] من أخبار الإسكندر و سبب تملكه و غزوه لدارا [٢]و قهره له[٢] و صفة بنائه الإسكندرية و كيفية[٣] وفاته إن شاء الله تعالى .

و أما فتح الصحابة رضي الله عنهم الإسكندرية [٧٦ : الف] فكان فى يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة ، فهربت الروم منها فى البر و البحر ، و خلف عمرو بن العاص بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه ، و مضى عمرو و من تبعه خلف من هرب من الروم فى البر يطلبونهم فرجعت الروم فى البحر إلى الإسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب . و بلغ ذلك عمرو بن العاص فكرّ راجعا ففتحها و أقام بها .

و قيل كان فتح عمرو بن العاص للإسكندرية مرتين : فتحها صلحا سنة عشرين من الهجرة فى خلافة[٤] عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، و الأخيرة عنوة سنة خمس[٥] و عشرين فى خلافة[٤] عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فكان بينهما أربع سنين . و سأذكر[٦] ما قيل فى الصلح و العنوة إن شاء الله تعالى[٧] .

---

(١) وقع فى الأصل و بن : لمعا - كذا .
(٢ - ٢) فى بن : أحد ملوك فارس .... تزويجه بابنته .
(٣) فى بن : صفة .
(٤) زيد فى بن : أمير المؤمنين .
(٥) وقع فى بر : خمسة - كذا ، و فى بن مطموس .
(٦) زيد فى بن : الآن .
(٧) درج اغلب المؤرخين المسلمين فى مصر على علاج هذا الموضوع . انظر=

قال مالك رحمه الله :[1] من صالح على بلاده و ما بيده من مال و عقار و غيره فهو له ، و إن أسلم أحرز له إسلامه أرضه و ماله ، و أما أهل العنوة فانهم و جميع أموالهم للمسلمين ، فان أسلموا لم تكن لهم أرضهم لأنها لمن قاتل عليها و غلب أهلها رقابهم و أموالهم .

و سيأتى فيما يرد من هـــذا الكتاب خبر صلح المسلمين للروم الإسكندرانيين[2] - إن شاء الله تعالى .

و لما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية و دخلها أحصى فيها مائة حمام و اثنى عشر دماسا ، أصغر حمام من تلك الحمامات فيه عدة مجالس فى كل مجلس مقدار ما يسع عدة نفر ، و وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر[3] . و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب ذكر منافع الحمام و مضاره عند ذكر جزيرة قبرس - إن شاء الله تعالى .

فانظر يا هذا إلى المسلمين كيف أمدهم الله باعانته حتى فتحوا هذه المدينة العظيمة و فيها هذه الخلائق الجسيمة ، و ملكوها من الروم و ضربوا على من أقام بها من الروم الجزية ! فما ذا فعل القبرسى الملعون ، الكلب

= مثلا السيوطى (حسن المحاضرة) : ذكر الخلاف بين العلماء فى مصر هل فتحت صلحا أو عنوة .

(١) زيد فى بن : و .

(٢) زيد فى بن : بعد الهجرة النبوية .

(٣) ليس فى هذا الخبر من جديد، و هو وارد فى جميع التواريخ الإسلامية عن فتح الإسكندرية . انظر فيما بعد ١٠١ : ب، ١١٦ : الف ـ الخ : عمرو فى الإسكندرية .

الدون ، الذى دخلها[١] لصا و خرج منها لصا ، و لم يستطع الإقامة بها خوفا من المسلمين . و الملك من شرطه إذا ظفر بمدينة حامى عنها و قاتل [٢]عساكر سلطانها[٢] و أقام بها أبدا ، أو يبيعها إذا لم يرد الإقامة بها لأربابها بأحمال الذهب كما فعلت الجنويون[٣] بطرابلس الغرب[٤] ، كما سيأتى ذكر ذلك مفصلا - إن شاء الله تعالى . بل كان فعل القبرسى الملعون كفعل اللصوص السراق الخائفين[٥] ، فثبتت لصوصيته بهربه سرعة ، و ظهر عليه بين ملوك النصرانية بذلك أكبر فضيحة و[٦] شنعة ، فلو أقام بالإسكندرية و قابل عساكر الديار المصرية لصار هو و من معه [٧٦: ب] يعملون فى[٧] العمائر السلطانية[٨] بالغلق و القصرية . و كان[٩] المسلمون فيما مضى من الزمان يقولون : إن الإسكندرية مبصور لها [١٠]تأخذها الإفرنج[١٠] يوم الجمعة ،

---

(١) فى بن : دخل الإسكندرية .

(٢ - ٢) فى بن : عساكرها .

(٣) وقع فى الأصل : الجنويين - كذا ، و فى بن مطموس .

(٤) فى ذلك إشارة إلى استيلاء فيليبودوريا (Philippo Doria) الجنوى على طرابلس الغرب سنة ١٣٥٤ حينما تمكن من اقتحام المدينة و احتلالها عدة أيام .

(٥) فى الأصل : الخائفون ، و فى بن : الذين هم بسبب فعلهم لما اقترفوه خائفون .

(٦) زيد فى بن : اعظم .

(٧) زيد فى بن : القيود .

(٨) زيد فى بن : و .

(٩) فى بر و بن : كانت - كذا .

(١٠ - ١٠) فى بن : ان الافرنج يأخذونها .

فتمج الأسماع هذه المقالة، [١] و يطرحونها [١] و يعدّونها مجازا لا حقيقة، فصح ما [٢] كانوا يقولونه [٢]، و نفذ حكم الله فيها كما نفذ فى مدينة عين زربة و مدينة حلب، [٣] و سأذكر [٣] خبرهما إن شاء الله تعالى.

و ذلك أن سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب دخل إلى بلاد الروم، [٤] فقتل منهم خلقا و أسر [٤] آخرين، و غنم أموالا جزيلة و رجع سالما. ثم لما كان فى بضع و ثلاثين و ثلاثمائة كانت وقعة بين سيف الدولة بن حمدان و بين الدمستق ملك الأرمن، فقتل من أصحاب الدمستق خلق كثير و أسر من بطارقته أيضا جماعة، و كان فى جملة من قتل قسطنطين ولد الدمستق [٥]. ثم جمع الدمستق خلقا كثيرا، و التقوا مرة أخرى مع سيف الدولة، فجرى بينهم حروب كثيرة و قتال شديد، و كان الغلبة [٦] للمسلمين، و الدائرة على الكافرين.

قال [٧] القرطبى فى كتاب المسالك و الممالك: و فى سنة إحدى و خمسين و ثلاثمائة دخلت الروم مدينة عين زربة فى مائة و ستين ألفا، فقتل

(١ - ١) ليس فى بن [٥٧ : الف].

(٢ - ٢) فى بن: قالوه.

(٣ - ٣) فى بن: فالأحكام اذا نفدت بها السهام يتقى منها العاقل و يصبح التدبير زائلا فلنذكر الآن.

(٤ - ٤) فى بن: فقتل منها خلقا و سبى.

(٥) وهو هنا يشير إلى ما حدث سنة ٩٤٢ م حينما انهزم قسطنطين هذا ابن Domestique Barzos Phocas و وقع فى الأسر و مات فى حلب.

(٦) فى بن: الغلب.

(٧) زيد فى بن: ابو عبيد.

ملكهم خلقا كثيرا[١] ، و قطع[٢] أربعين ألف نخلة ، و هدم سور البلد [٣]و الجامع[٣] و كسر المنبر ، و ورد إلى حلب بغتة و معـــه مائتا ألف ، فانهزم سيف الدولة بن حمدان ، فظفر بداره فوجد فيها مائة و تسعين بدرة فى كل بدرة عشرة آلاف درهم ، و أحرق الدور ، و أخذ خلقا كثيرا [من النصارى -[٤]] كانوا أسارى عند المسلمين ، و سبى من المسلمين بضعة عشر ألف[٥] صبى و صبية و أخذ من النساء ما أراد ، و عمد إلى جباب[٦] الزيت و صبّ فيها الماء حتى فاض الزيت[٧] ، فحصل للمسلمين منه أذى كبير[٨] .

و قيل إن الدمستق ملك الروم لما دخل إلى حلب فى مائتى ألف مقاتل نهض إليه سيف الدولة بن حمدان بمن حضر من أصحابه ، فلم يقدر عليه لكثرة جنوده ، و قتل من أصحابه خلق كثير ، و كان سيف الدولة قليل الصبر ، ففر منهزما فى نفر من أصحابه ، فاستحوذ ملك الروم على دار سيف الدولة ظاهر البلد ، [٩]فأخذ منها أموالا عظيمة و حواصل و عددا[٩]

---

(١) زيد فى بن : من المسلمين .

(٢) فى الأصل : و قتل ، و صححته فى بن .

(٣ - ٣) ليس فى بن .

(٤) الكلمتان ساقطتان من بر ، زيدتا من بن .

(٥) من بن ، و هى فى بر : آلاف .

(٦) فى بن : حباب .

(٧) زيد فى بن : و سا [ح] فى الشوارع و البلاليع .

(٨) وقع فى الأصل : كثيرا ، و فى بن : كبيرا - كذا .

(٩ - ٩) العبارة مطموسة فى بن ، و وقع فى الأصل : و عدد - مكان : و عددا .

للحرب

للحرب[١] لا تحصى، ثم حاصر ملك الروم البلد، فقاتل أهلها قتالا عظيما، و قتلوا من الروم خلقا كثيرا، و ثلمت الروم فى السور ثلمة عظيمة، فوقف[٢] فيها الروم، فحمل المسلمون عليهم فأزاحوهم عنها، فلما جن الليل أخـــذ المسلمون فى عمارتها، فما أصبح [٧٧: الف] الصباح إلا و هى كما كانت، و حفظوا السور حفظا عظيما، ثم بلغ المسلمين[٣] أن رجالة الشرط قد أفسدوا فى البلد ينهبون، فرجع الناس إلى منازلهم يمنعونهم[٤] من ذلك، فغلبت الروم على السور فعلوه و دخلوا البلد يقتلون من لقوه، فقتلوا من المسلمين خلقا كثيرا، و نهبوا الأموال و الأولاد، و خلّصوا من كان فى أيدى المسلمين من النصارى الأسارى، و أسروا نحوا من بضعة عشر ألفا من المسلمين ما بين صبي و صبية و من النساء شيئا كثيرا، و أخربوا المساجد و أحرقوها، و أفسدوا حتى أن من جملة فسادهم أنهم صبّوا الماء فى أجباب[٥] الزيت إلى أن فاض [٦]منها و ساح الزيت فى الطرقات و البلاليع[٦]، فهذا فعل العدو اللعين بالمسلمين.

و أعظم من ذلك أذى ما جرى من إسماعيل بن يوسف العلوى سنة

(١) فى بن: حروب.

(٢) فى بن: فوقفت.

(٣) فى الأصل: المسلمون.

(٤) وقع فى بر: يمنعوهم - كذا، و فى بن مطموس.

(٥) فى بن: حباب.

(٦ - ٦) فى بن: الزيت منها و خرج الى البلاليع و الطرقات.

إحدى و خمسين و مائتين ، طلع على الحاج و هم بعرفة فى جموع[١] فقتل من المسلمين عددا عظيما[٢] و أبطل الحج عليهم حتى زعموا أنه كان يسمع بالليل تلبية القتلى ، و كان شأنه فى الفساد عظيما . و أعظم من ذلك فسادا [٣] و أطم[٣] ما جرى من أبى طاهر القرمطى الملحد صاحب البحرين فى حق المسلمين ، و ذلك أنه هجم على الحاج يوم الثامن من ذى الحجة سنة تسع[٤] عشرة و ثلاثمائة ، قتلهم فى المسجد الحرام و فى فجاج مكة و فى الكعبة ، و قتل أمير مكة ، و طرح القتلى فى بئر زمزم حتى ملأها ، و صعد على باب الكعبة و استقبل الناس بوجهه و هو يقول: أنا لله و لله أنا ، يخلق الخلق و أفنيهم أنا! و قتل فى فجاج مكة و سكاكها[٥] و شعابها من أهل خراسان و المغاربة و غيرهم زهاء ثلاثين ألفا ، و سبى من النساء و الصبيان مثل ذلك ، و أقام بمكة ستة أيام فلم يقف أحد[٦] تلك السنة بعرفة و لا قضى نسكا ، فعل بالمسلمين ذلك مع أنه مسلم عند بيت الله الحرام ، فما بقيت الكفار بما فعلته[٧] بالمسلمين تلام فى غير حرم الله مع ما[٨] قهرهم سيف الدولة

(١) زيد فى بن [٥٧ : ب] : كثيرة .
(٢) فى بن : كثيرا .
(٣ - ٣) ليس فى بن .
(٤) فى بن : سبع .
(٥) فى بن : سككها .
(٦) من بن ، و فى الأصل : احدا - كذا .
(٧) فى بن : فعلت .
(٨) ليس فى بن .

ابن حمدان[١] . و حجاج بيت الله لم يتقدم منهم أذى[٢] للقرمطى بل قهرهم[٣] المذكور لينالوا بذلك عند الله أعظم الآجور و الخلود بدار السرور . ثم إن القرمطى[٤] الظالم المذمم قلع الحجر الأسود و[٥] قبة بئر زمزم ، و عرّى الكعبة[٦] و أخذ حليّها كله إلا الميزاب و[٧] هو من الذهب الإبريز فلم يقدر على قلعه أحد من القرامطة [٨]بل حفظه منهم الملك العزيز[٨] ، و رام أحدهم[٩] قلعه فأصيب من جبـــل أبى قبيس فى عجزه [٧٧ : ب] بسهم فسقط و مات و بقى الميزاب على حاله ، و حمل القرمطى معه الحجر الأسود فبقى عندهم اثنتين[١٠] و عشرين سنة إلا أربعة أيام ، و كان مكانه فارغا تدخل الناس أيديهم فيه ، إلى أن ألقى الله فى قلوب الكفرة صرفه إلى مكانه ، و صرفه بعد مملكته[١١] من خلف من إخوته لما رأوا من هذه الآية ـ هذا

(١) زيد فى بن : فيما مضى من الزمان .
(٢) فى بن : اذية .
(٣) فى بن : ظلمهم بعذره .
(٤) ليس فى بن .
(٥) فى بن : مع .
(٦) زيد فى بن : من كسوتها .
(٧) فى بن : الذى .
(٨ – ٨) من بن ، و فى الأصل : الذى على الكعبة بسبب .
(٩) زيد فى بن : قصد .
(١٠) فى بر و بن : اثنين ـ كذا .
(١١) فى بن : اسمعيل . و بعد ذلك بياض بسبب ترميم الورقة .

ما ذكره القرطبي في كتابه المسالك و الممالك . و أما ما ذكره المسعودي في كتاب التنبيه على تواريخ الأمم أن الحجر الأسود أعيد إلى موضعه سنة تسع و ثلاثين و ثلاثمائة ، فكانت مدة إمساك القرامطة له عند قلعهم إياه إلى أن [1]رُدَّ لموضعه[1] ثلاثا[2] و عشرين[3] سنة ، و رُدَّ مشقوقا من النار قبل القلع ، فشد بصفيحة[4] فضة .. و طوله ذراعان ، و مؤخره داخل الجدار مُضرّس على ثلاثة رؤس ، و لون مؤخره الذي في الجدار [5]مورّد، و قيل أبيض[5] .

فان قلت : قد تمكنت من البيت الحرام القرامطة حتى أخذوا حجره الأسود الذي فيه كرامته و قد امتنع من أصحاب الفيل بالطير الأبابيل !

قيل[6] : إنما لم يمنع الله القرامطة من ذلك لأن الدعوة قد تمت ، و الكلمة قد بلغت ، و البرهان قد قام ، و الرسل قد [7]تصرموا و انقضى مجيئهم[7] ، و جاءت أمارات الساعة ، و هذا من أماراتها ، و قد وعدهم به النبي صلى الله عليه و سلم بنقض الكعبة و هدمها و منع الحجر و قطع السلوك في البرية . فكان هذا من أماراته و أعلامه و معجزاته ، لأنه أخبر بذلك و هو قريب ،

(١ - ١) في بن : ردّوه الى موضعه .

(٢) في بر و بن : ثلاثة - كذا .

(٣) في الأصل : و عشرون .

(٤) وقع في بن : بصحيفة - مصحفا .

(٥ - ٥) في بن : مورد صقيل أبيض .

(٦) بهامش الأصل : حكمة .

(٧ - ٧) في الأصل و بن : تصرمت ... مجيئها .

قال

قال الله تعالى: «اقتربت الساعة و انشق القمر[١]» و جاءت الآيات تتبع بعضها بعضا، و هــذا منها حتى يرث الله الأرض و من عليها و هو خير الوارثين[٢].

و قال بعض المؤرخين: إن أبا الطاهر[٣] سليمان بن أبي سعد أمير القرامطة دخل مكة المشرّفة، فقتل من الحجاج كثيرا، و كانوا يفرّون [فيتعلّقون - [٤]] بأستار الكعبة فلا يجزى ذلك عنهم شيئا[٥]، و يقتلون و هم كذلك، و يطوفون فيقتلون في الطواف[٦]. و قد كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف، فلما قضى طوافه أخذته السيوف، فلما سقط إلى الأرض أنشد و هو كذلك:

ترى المحبــين صرعى في ديارهم　　كفتية الكهف لا يدرون ما لبثوا

و مات رحمه الله، و سموا أهل الكهف «فتية»[٧] لأنهم آمنوا بالله من غير واسطة، قال الله تعالى: «إنهم فتية آمنوا بربهم و زدنٰهم هدى[٨]».

---

(١) قرآن كريم ٥٤: ١.

(٢) زيد في بن: انتهى ما ذكره المسعودى.

(٣) في بن: ابا طاهر.

(٤) زيد من بن، و قد سقط من بر.

(٥) ليس في بن.

(٦) في بن: المطاف.

(٧) بهامش بر: حكمة.

(٨) قرآن كريم ١٨: ١٣. ثم زيد هنا في بن (٥٨: الف و ب): فتية نظرت إليهم عين العناية، و من نظرت إليه العناية لا يشقى أبدا، أصـ... لأهل الكهف من =

= خلال سحاب الهداية بارق ، طرقهم فى ظلام ليل الكفر طارق ، كانوا خدأما لدقيا[نوس] ، غار عليهم الملك القدوس ، فكتب سعادتهم فى أول الطروس فبينماهم فى خدمة دقيانوس [اذ] دخلت ... هرة ، لم يكن لها بالدخول عادة مستمرة ، فولى منها هاربا يسحب رداءه و يجره ، فتيقن القوم أنه ... مآله كما ادعاه ، و إنما هو ثمرة نظر بعضهم إلى بعض أطرقوا جميعهم إلى الأرض فواخوا بينهم فره .... الألحاظ ففرحت الأبرار من الأسرار بغير الألفاظ ، فلما اختلفوا بأنفسهم قال بعضهم : يا قوم من .... أنه إله يهرب من هرة ! فقالوا : صدقت يا هذا ! فاتفقوا و خرجوا ليلا إذ لقيهم راع معه أغنام قد ... إلى الهداية قبلهم الراعى ، فقال لهم : مرحبا بالوجوه النضرة و الثياب العطرة ! يا تيجان الرؤس ! ألستم .. . خواص دقيانوس ؟ قالوا يا هذا ! عرفتنا فاستر علينا ، قال : ما الذى أخرجكم ؟ قالوا : خرجنا نطلب أما .... شغفنا به حبا ، قال : يا قوم ! عند الحبيب طلبتم و على ما ...... أرد الأغنام و أكون لكم من جملة الخدام ، فقالوا : يا هذا ! قد ..... تجدنا ، فرد الراعى الأغنام و قصدهم اتبعه البائس الكلب على جاد .... بالبكاء و الحنين ، فلما وصل إليهم و الكلب يتبعه قالوا للراعى : نحن قوم .... وصحبة الكلاب اردده عنا فما صحبته صواب ، فأجابهم الكلب بلسان ...... تطردونى و عن صحبتكم تبعدونى خذونى و جربونى فان صاحت للخدمة ..... فما رجع (!) فضربوه فاقتفى آثارهم و اتبع ، ذار حول الراعى كالمستجير به ...... من محبتهم فى مقام التمكين ، كسروا الامنين ، و هو لا يستطيع تجرع كؤس البين ك..... مصرعه ساروا و اذ خلفوه مطروح (كذا) لايأملوا ان يتى فيه كتب قصة عصية (!) ...... عالم سريرته ، فكتب رحمته له رهبان صوامع السماء ، اضطربت له الحيتان لجج الماء ، قالوا : إلهنا وسيدنا و مولانا محب يرمى بسهم الهجران ، وعاشق أذيق كؤس الهوان ، ناداهم الجليل جل جلاله يا ملائكتى ! اسكتوا فلى .... تدبير ، يعجز عنه الكبير = و الصغير.

= والصغير، يا بريد لطفى انزل إلى ذلك النادى، اللقاء فى الوادى، ضع (يد)يه ورجليه حيار(!) كرمى و الأيادى، التفت القوم رأوه ورأيهم عادى، و بلسان حاله ينادى . . . . قد صيرنى هائم، رفقا بقلبى المدنف الصادى، وقف القوم حيارى، و من شراب الاعتبار سكارى . . . (لسا)ن حاله دوائى الذى داوا كم و هدانى الذى هداكم وعافانى الذى من عبادة دقيانوس الكافر . . . . و طهركم من الأعشاش الأنسية و من العبادة الدقيانوسية إلى عبادة القدسية، هو الذى . . . وهداكم إليه، لا أحصى ثناء عليه، ثم التفت إلى الراعى و قال بلسان حاله : هب أن القوم على . . . لك حريصا . فلم بعتنى رخيصا، فأطرق الراعى رأسه من الخجل على أعلى ذروة الجبل. فأجابه. . . . ـة فى الوقت و الساعة نحن صفا صفوة الوقت، و العتاب بعد الصلح يورث المقت، كانوا (فى الا)بتداء ضربوه و طردوه، عادوا فى الانتهاء أحبوه، وعلى الأكتاف حملوه، إلى ان أتوا به إلى باب . . . ـه الكهف، قال : يا قوم ! حطونى فهذا المقام مقامى، مقامى لست عنه أحيد، لا يتساوى مقام السادات (و الع)بيد، فأنزل مدتهم فى كتابه المجيد « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد» فلما أطالوا عليه فى المسألة (و طلـ)بوا منه الصلة أنشد بلسان حاله مترجما عن حاله شعرا :

اقصروا عن عذلكم يا لومه . . . وكوا القلب لمن قد تيمه

إن من أنحل جسمى حبه قادر لو شاء يوما رحمه

(فى بن : قادرا ـ مكان : قادر)

خالق العرش مـع . . . . ظمه

أتلف القلب و فى شرع الهدى ان من أتلف شيئا غـرمـه

أنتم يا هؤلاء . . . . . . تطعمون الطعام، فلذلك سماكم الملك العلام « فتية » و أول . . . فيما يرد من هذا الكتاب بقية أخبار أصحاب الكهف و الرقيم و معاينتهم . . . . . و الآن لم سمى ابراهيم الخليل « فتى » الخ .

ملاحظة : و يلاحظ أن النص هنا به خبل نشأ أصلا عن كثرة الترميم فى حواف =

و أول الفتوّة [٧٨ : الف] إطعام الطعام ، و كان إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام يكنى أبا الأضياف ، لأن مائدته كانت إذا نُصبت بعث غلمانه من أربعة أبواب المدينة ، فلا يطعم حتى يأتوا بمن يأكل معه فسمى « فتى » . قال الله تعالى : « سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم[١] »[٢] . و كذلك بنو كنانة ، و لا يأكل أحدهم وحده تحرجا حتى[٣] يصادف من يأكل معه ، فأنزل الله تعالى « ليس عليكم جناح ان تاكلوا جميعا او اشتاتا[٤] » . و الفتوّة الشجاعة و الكرم ، قال الشاعر :

فتى كان أحيي من فتاة حييّة   و أشجع من ليث بخفّان خادر

جاء رجل إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، فقيل له : يا سيدي ! هذا فتى ، فقال[٥] الشيخ : أنت فتى ؟ قال : نعم . قال له الشيخ : تدري ما الفتوة ؟ ليست الفتوة الماء و الملح ، إنما الفتوة الإيمان و الهداية ، كما قال الله سبحانه

= الورقة ، و لكن مفهومه له قيمته في قصة أهل الكهف في عهد الأمبراطور الروماني دقيانوس و هو Decius و حكمه ٢٤٩ - ٢٥١م) .

(١) قرآن كريم ٢١ : ٦٠ .

(٢) زيد في بن : قال بعضهم في محبة الضيف :

.... اليه
و الضيف يأكل رزقه   عندي و يحمدني عليه

(٣) « حتى » مكررة في الأصل .

(٤) قرآن كريم ٢٤ : ٦١ .

(٥) زيد في بن [٥٩ : الف] : له .

عن

عن ابراهيم[1] : «قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم[2]» فسمى فتى لأنه كسر الأصنام، فمن كسر الأصنام فهو الفتى، الخليل عليه السلام وجد أصناما حسّية فكسرها، وأنت لك أصنام معنوية، فان كسرتها كنت فتى، ولك أصنام خمسة: النفس والهوى والشيطان والشهوة والدنيا فان كسرتها فأنت الفتى، [3]وافهم[3] هذا قول بعضهم: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي[4] - انتهى[5].

(١) زيد في بن: عليه السلام.
(٢) قرآن كريم ٢١ : ٦٠.
(٣-٣) ليس في بن.
(٤) كذا في الأصل و بن، وفي تاج العروس: لافتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار.
(٥) زيد في بن قبله [٥٩ : الف و ب]: واعلم أن مخالفة النفس عن المقصود لأن في مخالفتها ورود السـ[عادة]، قال الشاعر:

إذا ما دعتك النفس [يوما] لحاجة وكان عليها للخلاف طريق
فخالف هواها ما استطعت فانما هواها عدو والخلاف صديق

وقال البوصيري في قصيدته الميـ(مية):

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

(في بن: فاسقم - مكان: فاتهم، والتصحيح من قصيدته المطبوعة)
الشيطان وزنه فعلان وهو.... عاد متمرد، وكل من اتصف بالعتو فهو شيطان، والشيطان أيضا الحيّة، ولذلك فسر أكثر المفسرين قو[له تعالى] «طلعها كأنه رؤس الشياطين» المعنى أمر البوصيري رحمه الله بمخالفة النفس إذ هي المباشرة للقبائح والعم... عن المصالح، ثم اتبع ذلك بالنهي عن الشيطان فهو العدو الكبير، والقائد إلى عذاب السعير، وكيف لا وهو الـ[ذي] اخرج =

= أبانا [فى بن : ابونا - كذا) آدم و أمنا حواء من الجنة ، و اهبطهما إلى دار الشقاء و المحنة . قال الشاعر :

كل العداوات قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك من حسد

جاء عن النبى صلى الله عليه و سلم من طريق أبى هريرة أنه قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم و اللحم ، و عن جابر قال سمعت رسول [الله] صلى الله عليه و سلم يقول : إن عرش إبليس على البحر يبعث [سراياه يفتنو]ن الناس ، فأعظمهم فتنة [أعظمهم] عنده منزلة ، يجىء أحدهم فيقول : فعلت كذا و كذا ، فيقول [: ما صنعت شيئا ، قال : ثم يجىء أحدهم فيقول : ما تركته] حتى فرقت بينه و بين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت ! [قال : فيلتزمه] . و اعلم أن النفس كالفرس الجموح لا يقدعها إلا لجام المخالفة لها فى كل .... بلجام التقوى و ضدها عما تريد و تهوى ، أولئك المقربون فى جنات النعيم - [قال البوصيرى] .....

من لى برد جماح عن غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم

(فى بن : كما ترد ، و التصحيح من قصيدته المطبوعة)

الجماح بالكسر اسم ..... و جماحا و جموحا فهو جموح ، و جمحت المرأة من زوجها تجمح و هو خروجها م[ن بيته إلى أهلها قبل أن يطلقها] قال الراجز :

إذا رأتنى ذات ضغن حنت و جمحت من زوجها و أنت

(فى بن : خبيث - مكان : حنت ، و التصحيح من لسان العرب - جمح) ... إلى تشبيه النفس بالخيل لطيفة ، و ذلك أن الخيل الجموحة لا تجمح إلا على من ..... يحسن سياستها فهى سبب له فى نيل الدرجات و اللحاق بالأبرار ، كما أن .... [بن ٥٩ : ب] كان سببا إلى لحاق الأماكن البعيدة . قال ابن الجوزى : يا مقهورا بغلبة النفس فسل عنها بسوط العزيمة فانها إن عرفت جدك استأسرت لك امنعها ملذوذ مباحها ليقع الصلح على ترك الحرام ..... [ص]برت على ترك المباح « فاما منا بعد و اما فداء » ، الدنيا و الشيطان خارجان عنك و النفس عدو مباطن ... دب الجهاد ، قاتلوا الذين يلونكم ، إن مالت إلى الشهوات =

نعود - ثم أمر القرمطى [١] لعنه الله [١] أن تدفن القتلى [٢] ببئر زمزم ، فدفنوا بها ، و دفن كثير[٣] منهم فى أماكنهم فى أزقة مكة و شعابها حتى فى المسجد الحرام ، و يا حبذا ! تلك القتلة و تلك الضجعة ، و لم يغسلوا

= فاكبحها بلجام التقوى ، و إن اعرضت عن . . . . . ن فسقها بصوت المجاهدة . و إن استحلت شراب التوانى و استحسنت ثوب البطالة فصح عليها . . . . . العزم . فان رمقت نفسها بعين العجب فذكرها خساسة الأصل ، فانك و الله ما لم تجد مرارة التوانى . . . . . . لم تقدر على ذرة من العافية فى بدنك ، قد اجتمعت عندك جنود الهوى فى بيت النفس فأحكمت حصون [البطا]لة فيا حزب التقى ! جردوا سيوف العزائم و ادخلوا عليهم الباب فان دخلتموه فانكم غالبون ، النفس [ك] كلب السوء متى شبع نام و إن جاع تصيطر - انتهى .

قال بعض الصالحين : علامة السعادة أن تطيع الله [و تخاف] أن تكون مردودا ، وعلامة الشقاوة أن تعصى الله وترجو أن تكون مقبولا ، [قال بعض ا]لعارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرينا . و قيل انكسار العاصى خير من صولة المطيع . قال [أ]هل الحق : المعصية هى طاعة النفس ، و الشهوة هى باعث شرة الله عز و جل فى خاطر الإنسان فى . . . . . الأمور . و قد اشتهى يشتهى شهوة واشتهاء فهو مشته [فى بن : مشتهى - كذا] و الشىء مشتهى و [ا]للذة فى اللغة طيب طعم . . . . . قيل هى إدراك ما هو كما (كذا) واصل إلى الشىء قال الشاعر :

أهو[ى] رضاه و يهوى محنتى أبدا و لذة الحب تنسى غصة المحن

(١-١) ليس فى بن .

(٢) فى بن : الذين قتلهم .

(٣) من بن ، و وقع فى بر : كثيرا - كذا .

و لم يكفنوا و لم يصل[١] عليهم ! لأنهم شهداء فى نفس الأمر و من خيار الشهداء . و هدم القرمطى قبة زمزم ، و أمر بقلع باب الكعبة و نزع كسوتها عنها ، و فرقها بين أصحابه ، و أمر رجلا أن يصعد على ميزاب الكعبة[٢] ، فأراد ذلك الرجل أن يقتلعه من موضعه ، فسقط على أم رأسه فمات ، فانكف القرمطى الملعون[٣] عند[٤] ذلك عن الميزاب ، ثم أمر بقلع الحجر الأسود ، و جاءه رجل بمفتل فى يده و قال : أين الطير الأبابيل ؟ أين الحجارة من سجيل[٥] ؟ ثم قلع الحجر الأسود ، و أخذوه حين رجعوا إلى بلادهم ، فأقام عندهم اثنتين[٦] و عشرين سنة .

و لما رجع القرمطى إلى بلاده تبعه أمير مكة هو و من معه من جنده ، و سأله و تشفع إليه فى أن يرد الحجر ليوضع مكانه ، و بذل له

---

(١) فى الأصل و بن : لم يصلى .

(٢) زيد فى بن : بقلعه .

(٣) فى بن : اللعين .

(٤) فى بن : عن .

(٥) « الحجارة من سجيل » الواردة هنا و فيما بعد أيضا بقصة لوط (٩٩ : الف) نقلا عن بعض الآيات القرآنية لم تكن إلا قوالب الطوب المصنوع من الطين الذى يختم ثم يحرق للاستعمال فى البناء كما كانت العادة فى العصر اليونانى الرومانى ، فهو إذن مختوم بسجل أى سجيل بمعنى : Sigillata أو Sigille' أو Sealed راجع فى هذا الصدد :

J. Walker, Note on the Koranic Word "Sijjil," in Islamic Culture, IX (October 1935), pp. 635–37 (figure).

(٦) فى بر و بن : اثنين - كذا .

جميع ما عنده من الأموال ، فلم يفعل ، فقاتله أمير [٧٨ : ب] مكة ، فقتله القرمطى و قتل أكثر جنده ، و استمر راجعا إلى بلاده و معه الحجر الأسود و أموال الحجيج ، و قد ألحد فى المسجد الحرام إلحادا لم يسبق إليه أحد[١] . ثم ان بَجْكَم[٢] التركى مملوك الخليفة القائم بأمر الله هو الذى استنقذ الحجر الأسود من أيدى القرامطة و افتداه منهم بخمسين ألف دينار[٣] بذلها حتى ردوه إلى مكة .

و ذكر أن القرمطى لما أخذ الحجر الأسود حمله على عدة جمال فعطبت منهم ، و لما ردوه إلى مكة حملوه على بعير واحد ، و لم يصب ذلك البعير شىء[٤] – انتهى .

و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب خبر محاربة القرمطى[٥] لأبى تميم

---

(١) زيد فى بن (٥٩ : ب و ٦٠ : الف) : قال ابن ابى . . . . . ود لمن كفر و ألحد فى آياته ، قال الزناتى : أى زاغ و مال عن الحق فى آياته و كتبه و رسله بمعنى الكذب ؛ لأن إلحاد الشىء جحده و تغييبه كتغيب اللحد ما يلحد فيه ، و قيل سمى اللحد لحدا لأنه يلحد فى جانب القبر – انتهى . نعود ثم – الخ .

(٢) فى بر : بحكم ، و فى بن : محكم – كذا بلا نقط ، و راجع النجوم الزاهرة ٣ / ٣٠١ .

(٣) زيد فى بن : و .

(٤) فى الأصل و بن : شيئا .

(٥) فى بن : القرامطة .

معدّ المعروف[1] بالمعز الباني للقاهرة و تاريخ بنائها و نصرته على القرامطة . و سأذكر الآن ما قيل في الحجر الأسود[2] و لم سمي بالأسود إن شاء الله تعالى . سمي الحجر الأسود بالأسود لحديث النبي صلى الله عليه و سلم : نزل الحجر الأسود من الجنة و هو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم . قال الشيخ محيي الدين ابن عربي الطائي في كتابه الذي [3]يقول في تراجمه[3] " فصل في فضل آدم عليه السلام " : « لو لا خطيئته ما ظهرت سيادته » . وكذلك الحجر الأسود لما خرج من الجنة و هو أبيض ، فلا بد من أن أثرا يظهر عليه إذا رجع إلى الجنة يتميز به[4] على أمثاله ، فيظهر عليه خلعة القرب الإلهي فان له منزلة اليمين الإلهي التي خمّر الله بها[5] طينة آدم حين خلقه ، فسودته خطايا بني آدم ، أي جعلته سيدا بتقبيلهم إياه ، فلم يكن من الألوان ما يدل على السيادة إلا اللون الأسود ، فكساه الله لون السواد ليعلم أنه قد سوده هذا الخروج إلى الدنيا كما سود آدم ؛ فكان[6] هبوطه هبوط خلافة لا هبوط بُعـــد . و نسب سواد الحجر إلى خطايا بني آدم ، أمروا أن يسجدوا على هذا الحجر و يقبّلوه و يتبركوا به ليكون

(١) في بن : الشهير .

(٢) بهامش بر : لم سمي الحجر الأسود .

(٣ - ٣) ليست في بن .

(٤) في الأصل و بن : بها .

(٥) في بن : به .

(٦) بهامش بر : نكتة تحفظ .

ذلك كفارة لهم من خطاياهم ، فظهرت سيادته لذلك ، فهذا معنى سوّدته خطايا بنى آدم : جعلته سيدا ، و جعلت اللونية السوادية دلالة على هذا المعنى ، فهو مدح لا ذمّ فى حق بنى آدم . ألا ترى لذم ما ذكر الله أولا للملائكة إلى خلافته فى الأرض و ما تعرض للملائكة ؟ فلما ظهر من الملائكة فى ذم آدم ما ظهر قام ذلك الترجيح لأنفسهم كونهم أولى من آدم بذلك و رجحوا نظرهم على علم الله تعالى فى ذلك ، فقام لهم ذلك مقام [٧٩ : الف] خطايا بنى آدم فكان سببا لسيادة آدم على الملائكة ؛ فأمروا بالسجود له ليثبت سيادته عليهم – و الله أعلم .

و قيل كان الحجر الأسود ياقوتة بيضاء ، له بياض كبياض الشمس [1] و إنما [1] اسودّ بلمس المشركين . و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الحجر الأسود يمين الله فى أرضه ، يصافح به من يشاء [من – [2]] عباده – يريد مسّه ، فكأن [3] قد بايع الله عز و جل . و ذكر ابن عبد البر أن الحجر الأسود حجر من حجارة الوادى ، و أن النبى صلى الله عليه و سلم قبّله ، و قبّله عمر بن الخطاب رضى الله عنه و قال : إنى لأعلم أنك حجر [4] لا تضرّ و لا تنفع ، و لكنى رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقبّلك ، فأنا أقبّلك – قال ذلك عمر على رؤوس الأشهاد ، لأن أصل مذ [5] عُبدت

(١–١) فى بن : فانما .
(٢) لفظة « من » ساقطة من الأصل ، و الزيادة من بن .
(٣) فى بن : فكأنه .
(٤) ليس فى بن .
(٥) كذا فى الأصل و بن .

الأصنام من أجل الحجر الأسود . و ذكر الشيخ أبو بكر الطرطوشى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى الشجرة التى بايع الصحابة تحتها رسول الله صلى الله عليه و سلم فاحتفر على عروقها و قُلعت و طرحت ، لأن الناس كانوا يقصدونها و يعظمونها . قال الله تعالى فى أهل الحديبية : «لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم و أثابهم فتحا قريبا ، و مغانم كثيرة يأخذونها و كان الله عزيزا حكيما[1]» . فلم يختلف العلماء فى أنها وقعة الحديبية ، و كانت الشجرة سمرة كانت بالحديبية ، و علم ما فى قلوبهم من الرضى بأمر البيعة حتى[2] أنهم لا يفروا و اطمأنت بذلك نفوسهم[3] فأثابهم فتحا قريبا[4] - خيبر[5] ، و وعدهم المغانم فيها مغانم كثيرة يأخذونها[6] ، قيل إنها المغانم التى تكون إلى يوم القيامة «و أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها» فارس و الروم و ما افتتحوا إلى اليوم .

خرج مسلم و غيره عن ابن عمر قال : لم أر النبى صلى الله عليه و سلم يمسح من البيت غير الركنين اليمانيين - يعنى الحجر الأسود و الركن

---

(١) قرآن كريم ٤٨ : ١٨ و ١٩ .

(٢) فى بن [٦٠ : ب] : على .

(٣) فى بن : انفسهم .

(٤) زيد فى بن : أعطاهم من أجل تلك البيعة فتحا قريبا .

(٥) وردت كلمة «خيبر» فى كل من بن و بر فذكرناها حيث هى بلا تحريف .

(٦) فى الأصل : تأخذونها ، و فى بن : ناخذونها - كذا بلا نقط .

اليمانى

اليمانى ، و أما ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر فانهما لم يقبلا لأنهما ليسا على قواعد إبراهيم عليه السلام . [١]قال الشيخ أبو الحسن القابسى : لو أدخل الحجر فى البيت حتى عاد الركنان على قواعد إبراهيم لقُبلا [١] ، و لا يُطاف على شاذر و أنات البيت - و هو مما [٢] أسقط من أساس البيت و لم يُرفع على الاستقامة ، و لا يطاف أيضا داخل الحجر لأن البيت من جهة الحجر ليس على قواعد إبراهيم ، و أكثر الحجر [٧٩ : ب] من البيت و يسير منه ليس من البيت ، فيكون الطائف إذا دخل الحجر طاف بعض البيت . قال بعض المتأخرين : و لو تصور أن يطوف من طرف الحجر لأجزاه ، لأن طرفه ليس من البيت . و قال أبو حنيفة : إن طاف داخل الحجر و انصرف إلى بلده فعليه دم . و قال مالك : وضع الخدين على الحجر الأسود بدعة خيفة أن يرى ذلك واجبا - انتهى .

نعود إلى ذكر ما أصيب به القرمطى جزاء بما فعل بالحجيج بمكة ، و هو أن الله تعالى رماه فى جسده من البلاء المحيط به ، و طال عذابه و أراه الله فى نفسه عبرة . و كذلك صاحب قبرس الملعون يفعل الله [به - [٣]] من البلايا المنكية و الأسقام المضنية ما يصير بها مثلا بين البرية ، جزاء بما فعل بأهل الإسكندرية . و قد ورد الخبر إليها بعد مدة

(١ - ١) سقطت العبارة من بن .

(٢) فى بن : ما .

(٣) من بن .

أربع سنين من حـــين الوقعة بها بأن أخاه البرنز[1] سلطه الله عليه، هو و جماعة[2] دخلوا عليه، ضربوه بخناجرهم [3]سبع عشرة[3] ضربة، فهلك منها لساعته و صار إلى غضب الله و لعنته، فعلوا[4] ذلك لأذيته لخلق الله و لفساده فى الأرض بما لا يرضى الله.

٥ و بلاد البحرين التى كان القرمطى صاحبها واسعة، شرقيها ساحل البحر، و غربيها متصل باليمامة، و شمالها متصل[5] ببلاد عمان، و هى مخصوصة بتعظيم الطحال. قال الشاعر[6]:

و من يسكن البحرين يعظم طحاله   و يغبط ما فى بطنه و هو جائع[7]

---

(١) انظر ١٦٩: ب لغاية ١٧٠: ب عن « ذكر قتل ربير بطرس صاحب جزيرة قبرس ».

(٢) فى بن: جماعته.

(٣ - ٣) فى بر و بن: سبعة عشر.

(٤) زيد فى بن: به.

(٥) فى بن: متصلة.

(٦) انظر ابن خرداذبه (كتاب المسالك) ص ١٧١، ٢٣١ من الترجمة.

(٧) زيد فى بن [٦٠: ب]: و مدينة البحرين تسمى.... مشرفة على البحرين و هم ثلاثة بين تهامة و نجد، أدناها بالطائف و أقصاها.... ببنى ثقيف و هى أدنى السروات إلى مكة و معدن البرم و هى السراة الثانية [٦١: ب] بلاد عدوان فى برية العرب و بها معدن البلور و هو أجود ما يكون فى صفاء الماء، و قد توجد القطعة فيها منا و أكثر، و قال الكندى رأيت قطعة فيها مائة من [فى بن: منا - كذا]، و الدارات فى بلاد العرب سبع عشر[ة] دارة، فكل أرض اتسعت فأحاطت بها الجبال فى غلظ أو سهولة فهى دارة.

ذكر منام ريوك والد ربير[1]

قبل مولد ربير صاحب قبرس [2]لعنهما الله تعالى[2]، و صفة فتح الصحابة رضى الله عنهم للاسكندرية و دمياط و غير ذلك من[3] المستطردات .

حدثنى أبو محمد عبد الله بن محمد الإسكندرى عن بعض أسارى المسلمين قال: كنت فيما مضى من الزمان أسيرا بقبرس و طالت مدتى فى الأسر بها، فجلست يوما إلى جانب قسيس، فسألنى عن مصر و أخبارها، فشرعت أذكر له كثرة جيوشها [2]و عددها[2] و عظم مملكتها و منعتها، و كثرة خيرها و بركتها، فقال القسيس: حدثنى الملك ريوك صاحب هذه الجزيرة أنه رأى فى منامه قائلا يقول له: يخرج من صلبك ولد يظفر بالإسكندرية، قال الأسير: فتعجبت من قول القسيس و قلت له[4]: هذا المنام أضغاث أحلام، إن صاحب قبرس لا يقدر [٨٠: الف] على الإسكندرية أبدا لحصانتها و منعتها و كثرة أهلها و أسلحتها[5]. فقال القسيس: هكذا حدثنى به[4] الملك ريوك و أنا أيضا متعجب من ذلك، و قد يكون هذا المنام كما ذكرتَ أضغاث أحلام.

---

(١) انظر ٢٥: ب إلى ٢٦: الف: «ذكر المنامات التى رؤيت قبل الوقعة».

(٢ - ٢) ليس فى بن.

(٣) زيد فى بن: الواردات.

(٤) ليس فى بن.

(٥) زيد فى بن: و قاعات متطوعتها.

ثم ضرب الدهر ضرباته وصح منام ريوك المذكور، وظفر[1] ريير بها في أواخر[2] المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة. فان كان ريير الملعون فعل بالإسكندرية ما فعل فقد فعل[3] المسلمون بنصارى الروم قديما أكثر مما[4] فعل القبرسي اللص بها، لأن المسلمين ملكوها وأقاموا بها المئين من السنين، والقبرسي دخلها لصا وخرج منها هاربا.

وسأذكر[5] ما قاله الواقدي في فتح المسلمين لها إن شاء الله تعالى، قال الواقدي[6]: ولما فتح عمرو بن العاص مصر وسمعت الروم بذلك فاستجاشت، وقدم عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم فيها جمع عظيم بالعدة والسلاح، فخرج إليهم عمرو بن العاص متوجها[7] إلى ناحية الإسكندرية بالعدة والسلاح، فقاتلهم وانتصر عليهم، وذلك بعد انهزام رسطوليس بن المقوقس من مصر[8] فتحصن بالإسكندرية. ثم لما انهزم[9] الذين أتوا في المراكب ورجعوا بالخيبة من حيث أتوا[10] ورجع عمرو إلى مصر

(١) زيد في بن: ولده.
(٢) زيد في بن: شهر.
(٣) في بر وبن: فعلت - كذا.
(٤) في الأصل وبن: ما.
(٥) زيد في بن: الآن هنا.
(٦) هذا الفصل برمته مأخوذ عن الواقدي.
(٧) زيد في بن: بالصحابة.
(٨) زيد في بن: بعد قتاله له لما صالح المسلمين عليها.
(٩) في بر: انهزمت، وفي بن مطموس.
(١٠) زيد في بن: مقهورين.

أرسل

أرسل خالد بن الوليد إلى حصار الإسكندرية ، و استعان بالله على فتحها و القبض على رسطوليس[1] القاتل لوالده المقوقس بسبب مصالحته للمسلمين على مصر ، فارتحل خالد بن الوليد بعسكره حتى نزل بالقرب من مدينة ترنوط[2] و بها[3] المرزبان[4] الساقى ، و هو الذى تركه رسطوليس عليها[5] يحفظها من العرب . فأقبلت الجواسيس إلى المرزبان . أخبروه بأن المسلمين إليه قادمون[6] ، فليحرس نفسه منهم ، فغلق المرزبان أبواب المدينة و حصنها ، و كان خالد أرسل رسله للمرزبان يأمره بتسليم مدينة ترنوط و حقن دماء أصحابه النصارى لقلتهم و كثرة جنود المسلمين ، فامتنع المرزبان من ذلك و قبض على رسل خالد ، قيدهم و أودعهم بيتا و قفل عليهم و جعل[7] مفاتيح ذلك البيت [8]تحت وسادته ، ثم انه شرب الخمر و أكثر منه حتى سكر و غاب عن حسه – هذا ما كان منه[8] ، و أما ما كان من

(١) زيد فى بن : بن المقوقس .

(٢) فى بن دائما : مريوط ، و فى معجم البلدان ٢ / ٣٨٤ : ترنوط ، و فيه ٨ / ٤٢ مريوط .

(٣) زيد فى بن : يومئذ .

(٤) فى الأصلين دائما : المرمدان .

(٥) فى بن : فيها .

(٦) فى الأصل و بن : قادمين ؛ و زيد بعده فى بن : و عليه واردين .

(٧) فى بن [٦١ : ب] : سلم .

(٨ – ٨) فى بن : لأخت مارية القبطية و قال لها : امتديهم بالقوت و الماء ، فلما جن الليل و اشتغل عدو الله المرزبان بالطعام و الا متلاء من الشراب إلى ثمل =

خالد بن الوليد فانه لما أبطأت[١] الرسل[٢] عليه خرج برجاله يعس فى الليل و إذا هو بخادم معه صبى و هما يحفران قبرا! فقبض عليهما و قال لهما: من أنتما؟ [٣]و عرضهما[٣] على السيف، فلما [٨٠: ب] عاينا الموت قال الخادم: هذا ولد المرزبان كان بالإسكندرية و قد أتيت به فى هذا الليل إلى هنا، فقال خالد: فما سبب حفركما لهذا القبر؟ فقالا: هذا سرب يتوصل منه إلى قصر المرزبان داخل المدينة[٤].

هذا ما جرى من هؤلاء، و أما ما كان [٥]من المرزبان فانه لما سكر و وضع المفاتيح تحت وسادته أخذت جارية من جواريه تلك[٥] المفاتيح فى الليل و أتت إلى البيت المقفل الذى فيه رسل المسلمين ففتحته، فطارت عقولهم بفتحه[٦] ذلك الوقت و ظنوا أنهم طلبوا للقتل، فلما رأتهم الجارية قد انذهلوا بفتح البيت هدّأت[٧] روعتهم[٨] و قالت لهم: إن[٩] أطلقتكم

= و سكر و غاب عن حسه حدثتها نفسها باطلاق الأساري هذا ما كان منها.

(١) من بن، و فى الأصل: أبطت.

(٢) فى بن: رسله.

(٣-٣) فى بن: و من تكونا فتلكا فى كلامهما فوضعهما.

(٤) زيد فى بن: فدخله خالد و من معه من أصحابه مع الخادم و الصبى.

(٥-٥) فى بن: من الجارية فانها اخذت.

(٦) زيد فى بن: فى.

(٧) فى الأصل و بن: هدت.

(٨) فى بن: روعهم.

(٩) ليس فى بن.

من وثاقكم تسيرون[1] إلى أصحابكم تعرفون لى[2] حقى و توصلونى إلى أختى؟ فقالوا لها[2] : و من هى أختك ؟ و من تكونى ؟ [و ما اسمك ؟ - ٣] قالت : أنا رينى[4] أخت مارية القبطية سرية نبيكم التى أهداها له المقوقس ملك مصر فى حال حياته ، و قد قتلنى الشوق إليها و إلى رؤيتها . فقالوا : نعم[2] ، نحملك إليها و نجمعك عليها . فكسرت حينئذ قيودهم ، و أتت بهم إلى باب السرب الذى بقصر المرزبان تفتحه لهم و تسير معهم ، فبينما هى تقصد فتحه إذ سمعت حركة داخله ، و كان خالد[5] فى ذلك الوقت قد نزل[6] هو و أصحابه و الخادم و الصبى ذلك السرب ، فلما سمعت الجارية الحركة قالت : من بالسرب فى هذا الليل المظلم ؟ فقال خالد للخادم[7] و الصبى سرا قولا : نحن فلان و فلان ، افتحى لنا . فلما قالا ذلك أخفت الجارية رسل المسلمين [8]و فتحت لهما[8] ، و إذا بخالد و أصحابه هجموا داخلين القصر بأسلحتهم ، فأمر خالد بفتح باب القصر و باب المدينة ، فأتوا إلى

(١) فى بن : تمشون .

(٢) ليس فى بن .

(٣) زيدت من بن .

(٤) فى الأصل : زبى و زيتى ، و فى بن : زيتى . و وردت عند الواقدى : رينا .

(٥) زيد فى بن : بن الوليد .

(٦) فى بن : دخل .

(٧) من بن ، و فى الأصل : الخادم .

(٨-٨) ليس فى بن .

الباب[1] ، قتلوا حراسه[2] و كسروا أقفاله و مضى بعضهم، أتى بعسكر خالد ، فقبضوا على المرزبان و هو مخمور سكران ، أوثقوه كتافا [3]بعد أن[3] أرجفوه إرجافا ، فحينئذ صحا من سكره و ابتلى بهمه و فكره ، فسألهم الأمان على نفسه و ماله و ولده و أهله ، فأمّنوه على ذلك . و تسلم[4] المسلمون المدينة بما فيها من غير قتال و لا حرب و لا نزال[5] .

(١) فى بن: الأبواب .
(٢) فى بن: حراسها .
(٣ - ٣) فى بن: و .
(٤) فى بر و بن: تسلمت .
(٥) زيد فى بن (٦١: ب ، ٦٢: الف): فقال ابن المرمدان لخالد: يا مولاى! إن أنا مضيت مع .... يد بغيرى بد لا و أنا أقول أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله ...... را بيد و ما ترك من رباعه . فأعرض خالد الإسلام على أهل مريوط فأسلم .... را لأنه كان بها كاهن من كهان القبط اسمه يوط و كانوا إليه يشيرون ...... قومه أنه لا بد أن يظهر من الحجاز نبى يختم الله به الرسل و ينشر دعوته فى المشرق و المغرب . فلما بعث صلى الله عليه وسلم عمد يوط الكاهن إلى ثلاثة أفراخ حمام فألقاها فى منزله ، ثم ارتحل على حين غفلة من قومه و سار يطلب أقصى المغرب ، فلما كان يوم الدخول عليه لم يجدوه و رأوا الأفراخ الحمام ، و إذا أحدهم كما نسل ريشه و الآخر كما ريش و الثالث كما طار . فقال العلماء منهم: إن يوط الكاهن قد ضرب لكم مثلا، و هل بلسان إشارته : من قدر منكم أن يرتحل عن هذه المدينة فليفعل فانه يغنم سلامة نفسه ، و من كان منكم ثقيلا بالعيال فليحتل على نفسه حتى يرتحل منها ، شبيها بهذا الطائر الذى كما نسل ريشه ، وله هذا الذى كما رغب فهو مثل =

فلما

فلما بلغ ذلك رسطوليس[1] بن المقوقس فتح المسلمين لمدينة ترنوط صعب ذلك عليه و قال: و حق المسيح لأغيظن المسلمين بكل ما أقدر عليه! ثم بعث عشرين مركبا فى البحر الملح [2]إلى الساحل[2] ليطلب بها غرة المسلمين، و قال لمقدم المراكب: إذا وردت إلى الساحل لا تلصق بالبر[3] إلا ليلا، و نفذ[4] جواسيسك [٨١: الف] يخبروك أين حلل[5] العرب نازلة، فاكبس عليهم ليلا. فقال: أفعل أيها الملك. ثم أخذوا أهبتهم، و ساروا من ليلتهم، و توسطوا البحر، ثم شالوا القلاع، و ساروا ثلاثة أيام بلياليها، فخرجت بهم الريح إلى ناحية من الرملة من أرض الشام، و إذا بالنار قد لاحت لهم بالبعد، فألصقوا مراكبهم بالبر، و نزلوا بالعدد و السلاح و قصدوا النار، و إذا هم بحلة من العرب من دوس، و كانوا من بنى عم أبى هريرة، و كان معهم قوم من بجيلة و قوم من وادى القرى، و فى

= الفقير المحتاج الذى لا قدرة له إن أقام هلك. ثم خرجوا من داره و هم يقولون: مر يوط، فسميت المدينة «مريوط». قال: فارتحل أهلها بأجمعهم إلى الإسكندرية و بقى فيها المرمدان و جنده، فغلب خالد بن الوليد عليها - كما تقدم ذكره. فلما بلغ ارسطوليس بن المقوقس - الخ.

(١) فى بن: ارسطوليس، و لكن ذكرها فى أغلب الأحيان: رسطوليس.

(٢-٢) ليس فى بن.

(٣) فى بن: البر.

(٤) فى بن: انفذ.

(٥) ليس فى بن.

جملتهم خولة بنت الأزور و أخوها[1] ضرار بن الأزور[2]، و كان ضرار وجعا مثقلا، و أخته تدور به، و تتفقد حاله، و كان أبو عبيدة بن الجراح[3] أمير الجيش[4] بالشام قد أمرهم بسكنى هذا المكان قريبا من البحر، فنزلوا هناك و تركوا أموالهم و جمالهم ترعى و هم مطمئنون من الروم و من غيرهم، لأن دولة الروم قد انصرمت من الشام، و آثارهم قد انقرضت، فلم يشعروا إلا و القبط قد[5] كبسوهم ليلا، و وضعوا السيف فيهم، فقتلوا رجالا من القوم، و أخذوا الباقى أسرى، و أسروا ضرار ابن الأزور و أخته خولة، و قلعوا الحى بمضاربه، و رجعوا إلى مراكبهم، و كان[6] جملة الأسرى من دوس و بجيلة و عك ألفا[7] و مائة من الرجال و النساء و الصبيان و الإماء و العبيد، و ساروا بهم من ليلتهم يطلبون الإسكندرية .

---

(١) فى بر و بن: اخيها - كذا .

(٢) قبره فى دمشق تجدد سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م و قد نقش عليه: «صاحب رسول الله وصاحب الغزوات المشهورة و المواقف المشكورة فى فتوح الشام» - راجع: Re'pertoire Chronologique d' e'pigraphie arabe, Tome X, no. 3974.

(٣) انظر نفس المرجع المذكور، مجلد ١٢ رقم ٤٧١٧ حيث توجد إشارة إلى بناء قبة على ضريحه، ونص الوقف على مزاره فى سوريا بتاريخ ٦٧٥هـ/١٢٧٧ م، و لقبه فى النص: «أمين الأمة» .

(٤) فى بن: الجيوش .

(٥) ليس فى بن .

(٦) زيد فى بن: من .

(٧) فى الأصل و بن: الف .

و كان أبو عبيدة بن الجراح قد استوطن طبرية و سكنها لطيب هوائها و كثرة خيرها ، و أنه نفذ أبا[1] هريرة ليزور أهله و يسأل عن حال ضرار بن الأزور ، و كان المسلمون يحبون ضرارا[2] محبة عظيمة لدينه و شجاعته و ما ظهر منه فى قتال الروم بالشام ، فمضى أبو هريرة مع حليف له من بجيلة اسمه محارب بن ظاعن ، و إنهما سارا إلى موضع الحلل ، فوجدوا البيوت مطرحة و القتلى مطروحين ، و كان قدوم أبى[1] هريرة و محارب صبيحة يوم الوقعة ، فسأل أبو هريرة رجالا من المجرّحين ، فقالوا : لا علم لنا حتى كبسنا قوم بليل و أخذوا الحى بمن فيه . فقال أبو هريرة : لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أشهد أن الله على كل شىء قدير . ثم حرك مع محارب حتى وقفا على الساحل ، و إذا برجل على لوح تقذفه الأمواج ، فلم يزالوا حتى لصق اللوح بالساحل ؛ و خرج الرجل[3] فتأمله أبو هريرة ، فاذا هو لحيان بن [٨١ : ب] غنى ، فلما رآه عانقه و سلم عليه[3] و قال : يا ابن غنى ! ما وراءك ؟ قال[4] : يا صاحب رسول الله ! إن العدو هجم علينا ليلا فأسرنا و سار بنا فى المراكب ، فلما [5]جذفوا بنا[5] وسط اللجج بعث الله تعالى عليهم ريحا عاصفا ،

(١) فى الأصل و بن : ابو .

(٢) من بن ، و فى الأصل : ضرار - كذا .

(٣) ليس فى بن [٦٢ : ب] .

(٤) فى بن : فقال .

(٥ - ٥) ليس فى بن .

فغرقت منهم مركبان[1] ، و كنت أنا فى إحداهما ، فو الله ما نجا من المركبين غيرى ، فنجوت على ذلك اللوح كما رأيتنى . فقال : يا ابن عمى ! و من أين هذا العدو ؟ قال : من قبط مصر ، و إنى سمعتهم يعرضون بذكر الإسكندرية . قال : فرجع أبو هريرة يطلب طبرية ، و بقى الحيان بن غنى عند قومه الجرحى و من كان هرب فى الليل ، فأخذهم و أخذ ما ترك العدو من آلاتهم و رجالهم و أموالهم ، فجمع الجميع و ارتحل بهم إلى الرملة .

و أما أبو هريرة و حليفه فانهما وصلا إلى[2] أبى عبيدة ، فحدثه أبو هريرة بما جرى على قومه و على بجيلة و عك ، فقال : إنا لله و إنا إليه راجعون ! أعوذ بالله من الأوقات الرديئة ، و الله لئن وصلوا بهم إلى الإسكندرية لا أبقاهم و الله صاحبها طرفة عين و يموت و الله ضرار ابن الأزور .

ثم إن أبا عبيدة كتب من وقته إلى عمرو بن العاص كتابا يعرّفه بما جرى ، فلما قرأه عمرو صعب عليه ، و كتب إلى خالد بن الوليد بما جرى و يحثه بالمسير إلى الإسكندرية لينظر ما تجدد من حال الأسرى . و نفذ الكتاب إلى خالد فوجده[3] رسول أبى عبيدة قد ارتحل عن ترنوط ، و نزل على مقابر قوم عاد . فلما قرأ خالد الكتاب اشتد عليه أسر القوم ، و لما و صل الباقون إلى الإسكندرية و مثلوا الأسارى بين يدى الملك رسطوليس

---

(١) فى الأصل و بن : مركبين .

(٢) ليس فى بن .

(٣) فى بن : فوجه .

فهمّ بقتلهم ، فقال له أرباب دولته : لا تعجل و اعلم أن العرب متوجهة إليك ، و لا بد لنا من قتالهم ، فإن أخذوا منا من يعز علينا شأنه وجدنا ما نفادي به ، و لعل أن[1] نصالح العرب[2] أن يتركوا لنا الإسكندرية بسببهم . فاستصوب رأيهم و بعث بالأسارى إلى دير الزجاج[3] غربي الإسكندرية من ظاهرها نفذ معهم ألفي فارس من القبط إلى أن يدخلوهم[4] الدير .

و كان لخالد بن الوليد جواسيس من أهل الذمة يأتونه بأخبار

(١) ليس في بن .

(٢) زيد في بن : على .

(٣) يظهر من بعض الأبحاث أن مكان « دير الزجاج » هو المكان القديم المعروف باسم « الهانطون » أي باللغة اليونانية Ennaton و معنى هذه الكلمة الدير الواقع على مسافة تسعة أميال من الإسكندرية . أما « منية الزجاج » فتوافق « جون الدخيلة الجديد » - راجع في هذا ما يلي من الأصول :

Maqrīzi, Geschichte der Kopten, (ed. Wüstenfeld) p. 112. J. Maspéro, Histoire des Patriarches, pp. 158-59. W.E. Grum et E. Breccia, D'un édifice d'époque chrétienne à El-Dekhela et de l'emplacement de Ennaton; Bull. Soc. Arch. Alex., no. 9 (1907), pp. 3-12; cf. 8 (1905), pp. 11-19.

و فيما يتعلق بمنية الزجاج انظر الرحالة الجغرافي البكري (Description de l'Afrique) طبعة دي سلان ص ٨٦ (النص العربي) و كذلك ص ١٧٤ (الترجمة الفرنسية) .

و في هذه المنطقة دفن عقبة حاكم الإسكندرية في سنة ٤٤ هـ / ٦٦٤ م كما جاء في الكندي (كتاب القضاة) ص ٣٦ - راجع أيضا ياقوت ج ٤ ص ٦٧٥ ، و المراصد ج ٣ ص ١٦٨ ، و المشترك ص ٤٠٧ حيث يشير في هذا المكان إلى قبر « عتبة بن أبي سفيان بن حرب » والي مصر المتوفى سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م .

(٤) من بن ، و في الأصل : يدخلونهم .

الروم و القبط ، و كان معهم جماعة [1]من الإسكندرية [1] ، فلما عاينوا ذلك أسرعوا إلى خالد و حدثوه الأمر على جليته ، فقالوا لأصحابه : شدّوا عليكم و لا قوة إلا بالله . ثم ركب و ركب الناس لركوبه ، و سارت [٨٣ : الف] الأدلاء بين يديه يريدون دير الزجاج ، فكان وصولهم إلى الدير قبل وصول أصحاب الملك و الأسارى ، فصاحوا على الدير ، فأشرف عليهم راهب كبير السن ، و كان اسمه منهاج ، و كان تلميذا لبحيرا الراهب ، و كان مؤمنا بالله و بأنبيائه ، فكلمه خالد ، فجاوبه الراهب بجواب حسن ، قال خالد : ما أحسن هذا لو كان على دين الإسلام و التوحيد . قال الراهب : ما أعرف دينا غيره . فقال خالد : عندك[2] من العرب أسرى نفدهم إليك الملك ؟ فقال : لا و الله ! فبينما الراهب يحدثهم و إذا بصهيل الخيل و قعقعة اللجم و اصطفاق الرماح ، و صراخ المأسورات ، و عويل العربيات ، و صياح الروم عليهم من بين أيديهم و من خلفهم ، و خولة بنت الأزور على مقدمة الأسرى و هي تنشد و تقول[3] :

جل المصاب و عم الويل و الحرب   و كل روح من الأجفان تنسكب
و مادت الأرض مما قد رُميت به   حتى توهمت أن الأرض تنقلب
جارت يد القبط فينا حين غفلتنا   و استحكم الروم لما ذلت العرب
لهفي على بطل قد كان عمدتنا   فيه العفاف و فيه الدين و الأدب

(١-١) في بن : بالإسكندرية .
(٢) زيد في بن : خبر .
(٣) في الواقدي ص ٦٨ : ستة عشر بيتا .

قد كان ناصرنا[1] فى وقت شدتنا   أعنى ضرار الذى للحرب ينتدب
فيه الحمية و الإحسان عادته   فيه التعصب و المعروف و الحسب
لو كان يقدر أن يرقى مراكبه   كان العدو بنار الحرب يلتهب
أو كان خالد فينا حاضرا لكفى   و زال عنا الذى نشكو و ننتحب
أو كان يسمع [2]صوتى صاح[2] فى عجل   مهلا فقد زال عنك البؤس و العطب

فلما سمع خالد هذا البيت قال: لبيك لبيك! زال عنك الحرج و جاء الفرج. ثم حمل و حمل معه أصحابه، و وضعوا السيف فى القبط، فما كان غير ساعة حتى قتلوا من القبط سبعمائة رجل، و أسروا ألفا و ثلاثمائة، و أخذ الصحابة سلب القوم و خيولهم، و خلصوا ضرار بن الأزور و باقى الأسرى، و ودعوا الراهب، و ألوى خالد إلى الإسكندرية، و قدم أسارى القبط بين يديه.

و كان الملك رسطوليس[3] منذ سمع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فتحوا[4] ترنوط خرج بعسكره من الإسكندرية، و ضرب خيامه و سرادقاته و دهاليزه خارج باب السدرة[5]، و أقام [٨٢: ب] ينتظرهم

(١) فى بن [٦٣: الف]: ناصرا.
(٢-٢) فى بن: صوت صاح.
(٣) زيد فى بن: بن المقوقس.
(٤) من بن، و فى الأصل: فتح.
(٥) انظر فيما بعد ١٠٦: ب ذكر هذا الباب.

لعلمه أنهم بما فعلوه بالعرب و تم لهم لم يرجعوا عن [1] قصده و [1] قصد مدينته، فبينما هو فى مضاربه و خيامه إذ وقع الصائح بقدومهم، فوقع الخوف فى قلب الملك و فى قلوب القبط جمعا[2]. و اجتمع أمراؤهم و حجابهم و كبراؤهم إلى الملك رسطوليس[3] و قالوا: أيها الملك! ما ترى من الأمر و التدبير فى أمر هؤلاء العرب؟ فقال: و ما عسى أن أدبر فى أمركم و الخوف قد جللكم، و الفزع قد نزل بكم، و هؤلاء العرب قد طمعوا فيكم و فى ملككم، و رأوا فيكم قوما عند الهزيمة ما يخشون عارا؛ و إذا قاتلوكم[4] كانت أهواؤكم مختلفة، و آراؤكم غير مؤتلفة، لكنهم قد اختبروا حالكم، و لم يرهبوا قتالكم، و قد أقبلوا إليكم قصدا، فلا مانع يمنعهم[5]، و لا دافع يدفعهم، و لو أن أصحابهم[6] الذين[7] بعثت بهم إلى دير الزجاج عندى لكنت صالحتهم بسببهم و اندفعوا عنا، و لو كانت الألفان[8] الذين[9] سيرتهم معهم عندنا لقاتلناهم حسب طاقتنا.

(١ – ١) ليس فى بن.

(٢) فى بن: جميعا.

(٣) فى بن: ارسطوليس.

(٤) فى بن: قاتلتم.

(٥) فى بن: يمنعكم.

(٦) فى بن: اصحابى.

(٧) مطموس فى بن، و فى الأصل: الذى – و لا يصح.

(٨) فى بن: الألفين – كذا.

(٩) من بن، و فى الأصل: الذى – و لا يصح.

فقال وزيره: أيها الملك ! و هل لك أن ترسل رسولا إلى هؤلاء العرب فيتحدث معهم فى أمر الصلح، و إنا نسلّم إليهم أصحابهم الأسارى الذين[١] أرسلناهم إلى دير الزجاج . فهمّ الملك أن يرسل رسولا إلى خالد و هو يعلل نفسه أن يصالحهم على أن يسلم إليهم أصحابهم الذين[١] أنفذهم إلى الدير، فبينما هو ينظر برأيه من ينفذه إلى خالد؛ و إذا بأصحاب الحرس، و هم حراس موكلون بمنارة[٢] الإسكندرية ينظرون منها للمراكب التى ترد من البحر إليها، و إذا بهم قد أقبلوا إليه و أخبروه أن مركبا[٣] قد [٤]ظهر لنا[٤] من نحو الغرب لا ندرى من أين هو، فتأهب الملك لقدوم من فى المركب[٥] و قال : لا شك[٦] أنه كيماويل[٧] بن روبيل صاحب برقة .

---

(١) من بن، و فى الأصل : الذى – و لا يصح .

(٢) ذكر المنارة، انظر فيما بعد ١٠٨ : ب، ٢١٠ : ب، ٢١٤ : ب، و فى مخطوطة دار الكتب (الجزء الثانى) ١٠٠ : ب .

(٣) فى الأصل : مركب، و فى بن [٦٣ : ب] : مراكبا – كذا .

(٤–٤) فى بن : ظهرت .

(٥) فى بن : المراكب .

(٦) فى بن : اشك .

(٧) الواقدى : كيماويل و كماوس – و من المعلوم فى تعريب الألفاظ الرومية البيزنطية أن المقطع Kī أو Kīr أو Kur يعنى به Kurios و على ذلك يكون كيماويل Kurios Manouil فيكون الاسم مانويل بن روبيل صاحب برقة . و ورد فيما بعد ذكر ابنه افلاغورس صاحب «مرطاجيه» كما جاء فى الواقدى، و المقصود «قرطاجنة» و كذلك ابن أخيه اسطانوس و ربما كان اسطفانوس . و قد ورد فى ابن عبد الحكم =

فما كان إلا لحظة حتى أرسى المركب فى الميناء، و نزل منه شيخ مهاب مليح الشيبة ظاهر الهيبة، عليه ثياب من الصوف الأسود، و على رأسه عمامة حمراء و على عاتقه زرمانقة صفراء، و نزل معه عشرون شيخا من القسيسين و الرهبان عليهم المسوح السود، فلما حصلوا على الأرض جاءتهم الخيول و الغلمان و الحجاب، و عظموا شأنهم و أركبوهم، و ساروا بين أيديهم إلى قصر الملك و أنزلوهم هنالك، و أفاضوا عليهم [٨٣: الف] النعم بقية يومهم[١]، فلما كان اليوم الثانى ركبوا إلى العسكر و دخلوا على[٢] الملك رسطوليس، فقام إليهم و عظم شأنهم و أنزلهم بازاء سريره.

و كان رسطوليس قبل أن أتت الرسل [٣] نفذ هدية [٣] سنية إلى الملك كياويل صاحب برقة، وكان ملكا كبيرا كثير الجيوش و العساكر، و كان[٤] ولى ولده أفلاغورس على قرطاجنة، [٥]و كان جيشهما مائتى[٦] ألف،

= (طبعة Torrey ص ١٧١ حاشية ٣) أن الناشر عثر فى بعض مخطوطات الواقدى على ذكر «كياوس بن ربوبيل» ملك انطابلوس (أى بنطابوليس Pentapolis أو الخمس مدائن الغربية فى برقة) و كذلك «اقلاعورس بن كيارس» صاحب افريقية، و من الممكن أن يكون Kleagoros و جميعهم من الشخصيات الغامضة فى التاريخ البيزنطى.

(١) زيد فى بن: و ليلتهم.

(٢) من بن، و فى ر: إلى.

(٣-٣) فى بن: انفذ هدايا.

(٤) زيد فى بن: قد.

(٥) سقط من هنا إلى «الهدية» من بن.

(٦) فى الأصل: مائتا.

و أن رسطوليس بعث إليه الهديـــة ، و بعث له كتـابا يخوفه من العرب و يقول[1] : أيها الملك ! إن الدنيا دار زوال و انتقال ، و ما وهبت لأحد شيئا إلا و استردته ، و لا [2]فرحت أحدا[2] إلا و أحزنته ، و لا نصرت ملكا إلا خذلته ، فالمغرور من تشبث بها و اطمأن إليها ، و السعيد من لبس ثياب الجد و عمل لآخرته ، ألا ترى أيها الملك أن الملك المعظم هرقل صاحب الشام و أرض صورية إلى بلاد القسطنطينية كيف زال ملكه [3]و بلاده[3] ، و أعرض عنه غلمانه و أجناده عند ما رمته الدنيا بمصائبها ، و رمته بسهام نكائبها ؛ و إنما قلت لك هذا لتعلم أن الدنيا لا تبقى على أحد ، و هؤلاء العرب المحمديون قد استولوا على البلاد ، و طحطحوا العساكر و الأجناد ، و قد أقاموا شرع نبيهم بالسيوف الحداد ، و[4] ملكوا الشام[5] من يد القياصرة ، و قد جاءت طائفة منهم إلينا بعد أن أخذوا مصر من يدينا ، و قد ملكوا ملكنا ، و حكموا على بلادنا و أرضنا ، و لا بد لهم

(١) في بن : تقول له .

(٢ – ٢) في بن : فرحته .

(٣ – ٣) ليس في بن .

(٤) زيد في بن : قد .

(٥) زيد في بن [٦٣ : ب] .... و أعمالها و ديار بكر بن وائل و حصونها و أرض ربيعة و ما والاهم ..... و كفرتوتا (!) و ما كسبق و مدينة ادم و دَرَا و اخلاط و دنيسر .... و ديار الأكاسرة إلى غير ذلك من ارض مصر و صعيدها و أسفلها ، و قد جاءت – الخ .

منك ، و لا غنى لهم عنــك ، و الصواب [أن - [1]] تشمر عن ساق [العزم - [1]] و تنجدنا على من بغى علينا ، فنحن جيرانك ، و كلنا جندك و أعوانك - و السلام .

فلما وصلت الهدية و الكتاب إلى الملك كياويل عرضه على أرباب دولته و قال : ما ترون فيما كاتبكم به رسطوليس بن المقوقس ؟ فقالوا : أيها الملك ! ما زالت الملوك تستنصر بعضها [2] بعضا ، و الذى أشار إليه فهو الحق لا دافع فيه ، و إن العرب إذا ملكت ملك [3] القبط لا بد لهم منا و من الغزو إلى بلادنا ، فانهم استفرسوا فى الشام و مصر ، و توجهوا إلى الإسكندرية ، فلو لا خاف منهم رسطوليس ما أرسل إليك تنجده ، فابعث إليه نجدة منا تكون معه يدا واحدة ؛ و المسيح يعطى النصر لمن يشاء .

قال : فلما سمع الملك قولهم استصوب رأيهم ، و خلع [4] عـلى ابن أخيه اسطانوس ، و ضم إليه أربعة آلاف من الروم ، و أمره [٨٣: ب] بالمسير لمعونة رسطوليس صاحب الإسكندرية . ثم إن الملك كياويل [3] نفذ خادمه الخـاص إلى البطرك العظيم عندهم ، و كان اسمه رسطليس [5] ،

(١) زيد من بن .

(٢) من بن ، و فى الأصل : ببعضها .

(٣) ليس فى بن .

(٤) من بن ، و فى بر : أخلع .

(٥) تلى الكلمة جملة مشطوبة فى النص هى : مؤمنا بالله موحدا .

و كان

و كان سكنه بموضع يعرف بالكنائس[1] ، و كان هذا البطرك رسطليس مؤمنا بالله موحدا ، و كان يسمع أخبار رسول الله صلى الله عليه و سلم و معجزاته و يؤمن به بظهر[2] الغيب ، حتى [3]بلغه أنه مات فبكى[3] لموته ، و بنى له صومعة على قارعة الطريق حتى لا تمر قافلة إلا و استخبرها و جعل يسأل : من جلس خليفة للسلمين بعده ؟ فقيل : أبو بكر رضى الله عنه ، ثم بلغه حال موته و ولايه عمر بن الخطاب رضى الله عنه و فتوح الشام و قدوم الصحابة إلى مصر ، فلما كانت[4] هذه النوبة بعثه الملك كيماويل

---

(١) « الكنائس » موضع على بعد ١٢٦ ميلا غرب الإسكندرية . انظر ابن خرداذبه ص ٨٤ و ص ٦١ من الترجمة « كنائس الحديد » . و المقدسى ص ٢٤٤ « كنائس الحرير » . و قدامه ص ٢٢٠ و ص ١٦٧ من الترجمة « كنائس الحون » . و البكرى (طبعة دى سلان) ص ٨٥ و ١٧٣ من الترجمة . و اليعقوبى ص ٣٤٢ و ص ٢٠٠ من الترجمة . و الإدريسى ص ١٣٧ و ص ١٦٤ من الترجمة : كنائس الحرير على ١٢٥ ميلا أو ثلاثة أيام بحرا إلى رأس الكنائس . و الكندى (كتاب الولاة) ص ٢١٢ : فى جمادى الأولى سنة ٢٥٥ - موضع يكنى بالكنائس بين برقة و إسكندرية . و قد ورد اسم الكنائس على الخرائط القديمة ، و من غريب المصادفات أن أعمال الحفر فى تلك المنطقة أظهرت آثار كنيسة - راجع :

Fourteau, in Bull. de l'Institut d' E'gypte, 1914, p. 112 (fig. 5)

(٢) فى بن : بظاهر .

(٣-٣) فى بن : انه لما بلغه موته بكى .

(٤) من بن ، و فى الأصل : كان .

صاحب برقة فى المراكب إلى الملك رسطوليس بن المقوقس صاحب الإسكندرية . و لما قدم البطرك رسطليس على الملك[1] رسطوليس كما تقدم ذكره بشره بقدوم اسطانوس ابن أخى الملك كياويل و معه أربعة آلاف فارس ، و عن قرب يصلون إليك ، ففرح الملك رسطوليس و قال : يا أبانا ! أريد من[2] إنعامك أن تمضى إلى هؤلاء العرب برسالتى و تستخبرهم عن دينهم و عن نبيهم ، و تجسّس لى أمرهم ، و تدعوهم إلى الصلح ، و تخبرهم أن فى يدى جماعة منهم أسرناهم من أرض الرملة ، و قد نفذتهم إلى دير الزجاج ، فان أرادوا أصحابهم سلمناهم إليهم ، و أعطيناهم شيئا من مالنا ، و عقدنا معهم عقدا لا يرجعون يتعرضون بنا . فقال[3] البطرك : سأفعل ذلك ، و إنى لفى شك من القوم ، و اعلم أنى قرأت فى الكتب السالفة و الأخبار الماضية ، فوجدت أن الله تعالى يبعث نبيا من أرض تهامة تعرض عليه كنوز الأرض فلا يلتفت إليها ، و لا يعول عليها ، و يختار الفقر على الغنى ، و أن أصحابه يتبعون سبيله ، و قد أردت أن أستخبر حالهم قبل مسيرى إليهم . فقال له رسطوليس : و بم[4] تستخبرهم يا أبانا ؟ فقال :

(١) فى هامش الأصل « رسطوليس ابن المقوقس صاحب الإسكندرية ، و لما قدم البطرك رسطليس على الملك – صح صح صح » . كانت هذه العبارة ساقطة من المتن فأدخلناها فيه لأنها بقلم الناسخ نفسه .

(٢) فى بن : عن .

(٣) فى بن : قال .

(٤) فى الأصل و بن : و بما .

أيها الملك ! تبعث بغلة من مراكبك عليها أنواع الجواهر و الياقوت[1] و الذهب و الفضة ، و تأمر غلاما أن يضربها إلى أن تجوز إلى عسكرهم ، فان أخذها القوم فتعلم أنهم يريدون الدنيا و لا يطلبون الآخرة ، و إن ردوها[2] عليكم فتعلمون أنهم [٨٤: الف] يطلبون ما عند الله عز و جل . قال : فأمر الملك بعض سيّاسه[3] أن يزيّن بغلة من بعض مراكبه بأحسن زينة ، و يرسلها نحو عسكر العرب ، ففعل السائس ذلك و ضرب البغلة إلى نحو عسكر المسلمين ، و كان على الحرس شرحبيل بن حَسَنة كاتب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فلما رأى البغلة و ما عليها من الحُلى و الحلل و الزينة و الجواهر تبسم و قال : إن أعداءنا يريدون استخبار حالنا إن كنا نريد الدنيا أو الآخرة ، و الله ما منا من يميل إلى الدنيا و لا إلى ما يفنى ، و إنما بغيتنا ما يبقى . ثم قرأ : «اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر فى الاموال و الاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتريه مصفرا ثم يكون حطاما و فى الآخرة عذاب شديد[4]» . ثم مسك بعنان البغلة و جاء بها إلى عسكر القبط ، ثم أرسلها .

فلما نظر الملك رسطوليس إلى ذلك صلّب على وجهه و قال : و حق المسيح بهذا نصروا و خذلنا ! و لقد كان الملك المقوقس أبى على بصيرة

(١) فى بن : اليواقيت .

(٢) فى بن : ردها . و زيد بعده فى بر و بن : القوم .

(٣) كذا فى بر ، و لعله : ساسته ، و فى بن : سوّاسه - وهو الظاهر .

(٤) قرآن كريم ٥٧ : ٢٠ .

منهم . ثم أمر البطرك رسطليس أن يمضى نحو عسكر المسلمين ، فلما قرب منهم نظر إلى قوم قد هجروا الدنيا ، و ما فيهم أحد إلا قارئ أو مصل[1] أو ذاكر لله عز و جل ، و نظر إليهم و إذا لباسهم غير متفاوت ، الصغير منهم يوقر الكبير و الكبير يرحم الصغير ، الذكر كلامهم ، و القرآن إمامهم ، و التقوى لباسهم ، و الخوف من الله أساسهم . فلما توسط العسكر سأل عن أميره و صاحبه ، فدلوه عليه بالإشارة إلى موضع خالد بن الوليد ، فقصد إليه فاذا هو جالس على التراب و ليس له حاجب و لا بواب و أصحابه حوله ! فلما قرب منهم ترجل عن بغلته و سلم عليهم و قال : أيكم الأمير ؟ فأشاروا إلى خالد ، فقال : أنت أمير هؤلاء العرب ؟ قال : كذا يزعمون أنى أميرهم ما دمت على تقوى الله و اتباع العدل و الإنصاف و الخوف من الله و مراعاة حقوقهم و التشديد على مسيئهم و الإحسان إلى محسنهم ، فمهما[2] خرجت عن هذه الأشياء فلا أمر لى عليهم ، فقال البطرك : أنتم و الله القوم الذى بشر بهم المسيح ! و إن الحق معكم لا يفارقكم . قال[3] : فأمره المسلمون بالجلوس ، فجلس و قال : يا معشر العرب ! أخبرونى عن نبيكم ، فقال : [4]إن الله تعالى اختار من ولد آدم [٨٤ : ب] العرب ، و اختار من العرب مضر ، و اختار من مضر كنانة ، و اختار من كنانة قريشا[5] ،

(١) فى الأصل و بن : مصلى .
(٢) و الغالب أن المراد فمتى .
(٣) ليس فى بن [٦٤ : ب] .
(٤) زيد فى بن : اعلم .
(٥) من بن ، و فى الأصل : قريش .

و اختار من قريش هاشما [١]، و اختار من هاشم عبد المطلب، و اختار من عبد المطلب محمدا صلى الله عليه و سلم فقال: كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين - و شرح له خالد أحوال النبى صلى الله عليه و سلم و ما خصه الله تعالى من المعجزات و الخيرات. فلما سمع البطرك ذلك قال: و الله لقد سعد من اتبعه و خسر من فارقه! ثم جدد [٢] إسلامه على يد خالد، و حدثه بما قرأه فى الكتب السالفة، ثم حذرهم من اسطانوس ابن أخى الملك كيماويل صاحب برقة، و أنه قد بعث معه أربعة آلاف نجدة لرسطوليس بن المقوقس، و أنى قد سبقته [٣] فى البحر، و أنه أرسل يطلب منه جماعة من أسارى المسلمين ليراهم؛ و هذا الملك رسطوليس القبطى يريد صلحكم و يقول لكم تصالحونه على أن يعطيكم أصحابكم الأسارى و شيئا من المال، فقال خالد: أما أصحابنا فقد فك الله أسرهم، و جمعنا و إياهم و حماهم من الأسر من إرسال بعضهم إلى كيماويل ليراهم، و قد نصرنا الله تعالى على القبط و قتلنا منهم سبعمائة فارس و أسرنا ألفا [٤] و ثلاثمائة فارس، ثم أعرضهم على السيف و أعرض عليهم الإسلام، فأبى أكثرهم و أسلم أيسرهم، فأمر بهم خالد فضربت أعناق من لم يسلم بمشهد من البطرك. قال: و إن البطرك عاد إلى الملك رسطوليس و قال: هؤلاء

(١) من بن، و فى الأصل: هاشم.

(٢) زيد فى بن: البطرك.

(٣) فى بن: سبقتهم.

(٤) مطموس فى بن، و فى بر: الف - كذا.

قوم لا يصطلى لهم بنار، و إنهم [1] حذرون من عدوهم . قال رسطوليس : إنا كنا نراهم و أنت عندهم تضرب أعناق رجال، فقال : هؤلاء الذين بعثتهم مع الأسارى إلى دير الزجاج وقعوا بهم و خلصوا أصحابهم و قتلوا أصحابكم . قال : فلما سمع رسطوليس ذلك سقط ما كان بيده، و أيقن بزوال [ملكه [2]] و قال لأرباب دولته : خذوا على أنفسكم للقاء هؤلاء العدو [3]، و كأنكم بعسكر كيمايل قد أقبل إليكم، و نلتقي هؤلاء العرب بقلوب قوية، و يعطي المسيح النصر لمن يشاء! و بات الملك رسطوليس على لقاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلما جن الليل فرق الملك العُدد على أصحابه و حجّابه و أمرائه، و أمرهم أن يوصوا [4] أصحابهم أن يكونوا على أهبة الحرب صبحة غدهم، فلما كان من الغد ضربت كؤساته، و نشرت أعلامه و راياته، و خرج [٨٥ : الف] الملك بعسكره، و صف أصحابه للحرب؛ و ركب خالد بن الوليد و أصحابه و وقف مقابلة القوم [5] . قال الأحوص : كنت في خيل خالد بن الوليد إذ وقف بالقرب منا فارس عظيم الخلقة، عليه درع مذهب تلمع جواهره، و من تحته جواد عربي، فأومأ إلينا بلسان فصيح و قال : يا هؤلاء العرب! انصرفوا

(١) ليس في بن .

(٢) زيد من بن .

(٣) في بن [٦٥ : الف] : العرب .

(٤) في بن : يوطوا .

(٥) في بن : الروم .

عنا فانا لا نريد حربكم ، و قد ملكتم علينا مصر و الصعيد و أكثر الريف و ما بقي من ملكنا إلا أقله ، و لسنا ننازعكم فيما أخذتم و نحن نقلدكم البغى و الباغى أبدا مقهور ، و المبغى عليه منصور ، و ما بيننا و بينكم إلا أن نصلح مع الله تعالى سرائرنا ، و نرجع عن ظلم أنفسنا ، و نعدل فى رعيتنا ، و نلازم الاجتهاد فى طاعتنا ، و نبذل فى ذلك استطاعتنا ، ثم نلقاكم بقلوب نقية فنردكم على أعقابكم منهزمين ، فى أذيال ذلكم هاربين ، لأنه ما عادى أحد دين النصرانية إلا ذل و انهزم ، لأننا قوم لنا الكنائس و البيع و الصوامع الأربع و القسوس و الرهبان ، و الجاثليق و المطران ، و المذبح و القربان ، لنا المذبح و الهياكل ، و البطارك الأفاضل ، و الأساقفة و المطارنة و الشمامسة الأحافل . و كان المتكلم بهذا الكلام رسطوليس الملك ، فكان أول من بادر إلى جوابه[1] شرحبيل بن حسنة كاتب رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: لقد افتخرت بما يؤل[2] لصاحبه إلى البوار ، و يعقبه سوء الدار ، و يلكم ! أتفخرون علينا بالشرك و الطغيان ، و عبادة الصلبان ، و الكفر بالرحمن ، و نحن أولو القلوب النقية و الإيمان ، و الحج و الإحرام ، و الصلاة و الصيام ! ديننا أفضل الأديان ، و نبينا المبعوث فى آخر الزمان ، بالمعجزات و البيان ، و المنزل عليه القرآن ، و من اتبعه نال الغفران ، و من نكث

(١) فى بن : الجواب .

(٢) فى بن : تؤل .

عن محجته باء بغضب من الديان[1] ثم قال شرحبيل: إن لله عبادا لو أقسموا على الله أن يدكدك لهم هذا السور لفعل. قال: و مع إشارته إلى السور انخفض إلى الأرض و ظهر من ورائـه منازل الإسكندرية و ديارها. قال: فارتعدت فرائص الملك عند ما عاين من عظيم القدرة، ثم ألوى نحو عسكره، فوجد أفئدة القوم قد طارت، و أفكارهم قد حارت، فلما كان الليل أخذ الملك خزائنه و أمواله، و ذخائره و خدمه و عبيده و عياله، و ركب فى المراكب من ليلته يريد جزائر البحر.

فلما أصبح وقع الصائح بهروب الملك، [٨٥ : ب] فاجتمع الكبراء بعضهم ببعض، فقالوا: إن الملك رسطوليس قد هرب، و فى بعض ما رأيناه بالأمس عبرة فى وقوع هذا السور عند ما أشار إليه صاحبهم بيده و قد أمسك القوم عنا، و لو أرادوا لوصلوا إلينا، قال: فخرجوا بأجمعهم إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم، و وقفوا بين يدى خالد و سلموا عليه، و قالوا: إن الله قد نصركم بحق و أيدكم بصدق، و إنا نريد منكم أن تعاملونا بالفضل[2] و تنظروا إلينا بعين العدل سنة من كان قبلنا معكم من الروم. فقال لهم خالد: أما نحن فان الله قد أسكن الرحمة فى قلوبنا و فضلنا على سائر من كان قبلنا من سائر[3] الأجناس

(١) فى بن: الرحمن.

(٢) فى بن: بالحلم.

(٣) ليس فى بن.

فقال

فقال : "كنتم خير امة اخرجت للناس[1]" ونحن نجريكم على أحسن عوائد[2] مع سائر من فتحنا بلادهم و قد أمسكنا عنكم ، و لو أردنا لوصلنا إليكم ، و لكن خير الناس من[3] إذا قدر عفا ، و نريد منكم مائة ألف دينار من أطيب مالكم صلحا على أنفسكم و أهاليكم ، و ذراريكم و ندعوكم بعد ذلك إلى وحدانية الله تعالى ، فمن أجاب كان له مالنا و من أبى عن ذلك ه أخذنا منه الجزية[4] من السنة الآتية عن كل رأس رجل و امرأة ممن بلغ الحلم أربعة دنانير ، و نشرط[5] عليكم ألا تركبوا فرسا و لا تتختموا[6]

(١) قرآن كريم ٣ : ١١٠ .

(٢) ف بن : عوائدنا .

(٣) ف بن : عمن .

(٤) و ضع أهل الذمة و أحكامهم معروفة - انظر أيضا ١١٦ : الف ، ٢٢٣ : ب - راجع فى موضوع أهل الذمة « دائرة المعارف الإسلامية » و كذلك المراجع الآتية :

A.S. Tritton, The Caliphs and their Non-Muslim subjects, (Oxford 1930); L.E. Browne, The Eclipse of Christianity in Asia, (Cambridge 1933); Louis Cheikho, in al-Machriq, XII (1909), pp. 674–82:

عهود نبى الإسلام و الخلفاء الراشدين للنصارى "؛

Tritton, Islam and the Protected Religions, (J.R.A.S. 1931, pp. 311–38); Re'pertoire Chronologique d' e'pigraphie arabe, Tome VI, pp. 80–81, no. 2149.

و فى المرجع الأخير مرسوم بتاريخ سنة ٤٠٠ ه صدر فى هذا الصدد .

(٥) ف بن : نشترط .

(٦) فى الأصل و بن : و لا تتختمون .

و لا تعلوا دوركم على دور المسلمين و لا ترفعوا أصواتكم عليهم و لا تبنوا فى الإسلام كنيسة ولا ديرا[1] و لا تجددوا ما اندثر من دينكم و شريعتكم و تستقبلون[2] المسلمين بالتذلل و الخضوع و تسارعون[3] إلى قضاء حوائجهم و ما يريدون من مصالح شأنهم، و تعظمون الإسلام و أهله و من أذنب منكم حددناه و من ارتد عن قولنا قتلناه، و أن تشدوا الزنانير على أخصاركم إظهارا لدينكم و عرفانا بطاعتكم، و أن لا تظهروا[4] ناقوسا ولا[4] صليبا و لا شيئا من أمور دينكم وكفركم، و إذا صليتم فى كنائسكم لا ترفعوا أصواتكم فى قرائتكم و لو آمنتم بالله و رسوله لنجوتم من عذاب الله و كنتم معنا فى الآخرة . فقالوا : أيها الملك إنه يصعب علينا ترك ما كان عليه آباؤنا من قبل . فتبسم خالد من قولهم و قرأ : «و اذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه اٰباءنا»[5] . فقالوا : أيها الأمير! نريد منك أن تولى علينا واليا حتى يجمع المال الذى استقر عليه الصلح و ليكن من أصحابك . فقال لهم : انظروا من تختارون[6] [٨٦ : الف] لأنفسكم لأولينه عليكم . قال : فأشاروا إلى رئيس منهم

(١) من بن ، و فى الأصل : دير .

(٢) فى الأصل و بن : تستقبلوا .

(٣) فى الأصل و بن : تسارعوا .

(٤-٤) ليس فى بن .

(٥) قرآن كريم ٣١ : ٢١ .

(٦) فى الأصل و بن : تختاروا .

عظيم القدر اسمه شعيا بن شامس ، و كان مقدما فى القبط ، فولاه خالد على جمع المال . وضم إليه قيس بن سعد ، وصاهما بالرفق . و قال : خذوا من كل واحد ما يحتمله حاله ، و من كان فقيرا أو يتيما أو أرملة فلا تكلموهم ، و أحسنوا إن الله يحب المحسنين . قال: فعجبوا من كلامه و حسن وصيته ، و دخل[1] القوم و اجتمعوا فى قصر المقوقس بالإسكندرية[2] ، و بعث شعيا يجمعون الناس عليه ففعلوا ذلك .

قال مازن بن شبيب : كنت حاضرا بالإسكندرية مع جباية المال مع قيس بن سعد ، فكان أكبرهم فى الحشمة و أغزرهم فى المال من وزن عشرة[3] قراريط من مثقال ذهب ، و أوسطهم حالا يزن قيراطين ، و لقد أقبل برجل من أغنيائهم لا يدرى كيف يملك من المال ، و كان اسمه تولين[4] بن مرقس ، و كان أبخل أهل زمانه كما قال الشاعر فى أمثاله أبياتا ، منها :

يطوى على الذرة الصغرى أنامله فما تخلصها منها الكلاليب

و كما قال الآخر :

لا يسقط الخردل من كفه لو ثقب الكف بمسمار
يحاسب الديك على قمحة[5] و يطرد القط من الدار

---

(١) من بن ، و فى الأصل : دخلوا .

(٢) الواقدى ص ٧٧ : هذا القصر مما يلى باب رشيد .

(٣) فى الأصل و بن : عشر .

(٤) فى بن [٦٥ : ب] : بولين ، و قيل أيضا : دولين .

(٥) فى بن : حبة .

فقال شعيا لتولين[1]: قد وجب [2]عليه من القبط دينار[2]. فقال: وحق المسيح! ما كنت بالذى أؤديه وإن مت، وإن صدقتى على الكنيسة أفضل من إعطائه للعرب. فقال له قيس بن سعد: إن الذى نأخذ منكم ليس هو على وجه الصدقة، بل نأخذه[3] حلالا لنا؛ حرام عليكم، يا ويلك! أحسبت[4] لو دخلنا المدينة بالسيف ألست تكون أول من تنهب[5]؟ قال له شعيا: يا تولين[1]! لحاك الله ولعنك! فقد يعلم حديثك كل من بالإسكندرية، وإنك كنت لا تقدر على شىء من أمور الدنيا، فقد آتاك الله من فضله ووسع عليك من رزقه. فقال: والله بل ورثته من آباء كرام وجدود عظام! وما لله علىّ من فضل. قال: فغضب قيس بن سعد وقام إليه وقنعه بمخصرة كانت بيده، فقال له: كذبت يا عدو الله وعدو رسوله! والفضل والمنة إليه، لأنه رزقنا من فضله وأوسع علينا من نعمته، [٨٦: ب] "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[6]" ثم قال: اللهم! إنه جحد نعمتك وكفرها فأزلها عنه. قال: فوالله! ما مضى يومهم ذلك حتى جاء الخبر أن أغنامه هلكت جميعا[7]، وبساتينه

(١) كذا فى الأصل، وهو كما ذكرنا دوابن أو تولين، وفى بن [٦٦: الف]: بولين.
(٢ - ٢) فى بن: عليك من دينار.
(٣) فى بن: ناخذها.
(٤) فى بن: احسبن - كذا.
(٥) فى بن: ننتهب.
(٦) قرآن كريم ١٦: ١٨.
(٧) فى بن: جميعها.

قد

قد يبست، و دياره و أملاكه قد تهدمت، و أمواله قد مضت. فقال قيس بن سعد: الله أكبر! هذا حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم[1] يحدث بحديث أبرص و أقرع و أعمى[2]. قال: و اجتمع المال و خرجوا بـه إلى خالد، و دخل المدينة فأخذ كنائسهم، و بنى فى مواضعها مساجد، و أخذ كنيستهم العظمى فبنى بها جامعا و ترك لهم أربع كنائس لإقامة شرعهم[3].

و كتب إلى عمرو بن العاص بالفتح، و مضى إلى مصر بعد أن ترك عليهم[4] أبا ذر[5] الغفارى، و حملت الجارية رينى[6] التى خلصت

---

(١) زيد فى بن: و شرع.

(٢) زيد فى بن: و سيأتى ذكرهم إن شاء الله تعالى. فصار شعيا كما قيل: مال البخيل أسير تحت خاتمه فليس يُطلق إلا يوم مأتمه. و اعلم أن أعمال البخيل الصدقة لأنه يحارب شيطانين: أصغرهما إبليس، و أعظمهما النفس و جنودها. امدد يدك بالصدقة، فان لم تطق فاكففها عن الظلم. أطلق لسانك بالذكر، فان لم تستطع فاحبسه عن الغيبة. ويحك! إن الصدقة صداق الجنة، فدع جمع الأكياس من ذا الذى (فى بن: اللذى ـ كذا) يقرض الله قرضا حسنا. إن اعطيت فاحذر من منّ يتأذى المعروف ـ انتهى. نعود، قال و اجتمع المال ـ الخ.

(٣) راجع الواقدى ص ٥١. و انظر موضوع «عمرو فى الإسكندرية» فيما يلى من هذا الكتاب ١٠١: ب، ١١٦: الف و ما يتلوها.

(٤) ليس فى بن.

(٥) من بن، و فى الأصل: أبى ذر ـ كذا.

(٦) فى الأصل: زينى، و مطموس فى بن.

رسل المسلمين من ترنوط[1] إلى عند أختها مارية القبطية .

ثم إن اسطانوس ابن أخ الملك كيماويل لما بلغه فتح المسلمين الإسكندرية و هروب رسطوليس بن المقوقس منهم فى البحر ألوى عنان فرسه و رجع بالنجدة التى معه إلى برقة هاربا ، فاجتمع بالملك[2] كيماويل و قال له : إن هؤلاء العرب لا طاقة لأحد بهم كفانا الله شرهم ، و أخبره بما جرى ؛ فارتعدت فرائصه مما سمع منه ، ثم قال له : و أزيدك زيادة تغتم لها . قال : ما هى يا ابن أخى ؟ [قال - ٣ :] إن البطرك رسطليس قيل لى عنه إنه ترك دين النصرانية و أسلم و تبع العرب و صار منهم واليهم . فصرخ كيماويل صرخة عظيمة و قال : البطرك العظيم الذى نقتدى به فارق الدين و صار مع المسلمين ، استعنا على فعله ذلك بالمسيح أن يبتليه بالأسقام إلى أن يصير منها مبتلى كسيح .

قال المؤلف[4] غفر الله له و للمسلمين أجمعين : و إذ قد تقدم ذكر حديث أبرص و أقرع و أعمى[5] و لم يذكر الواقدى شرح خبرهم فى سياقة حديثه فسأذكره إن شاء الله تعالى ، أما حديث أبرص و أقرع

(١) فى بن : مريوط .

(٢) فى بن : بعمه الملك .

(٣) زيد من بن .

(٤) فى الهامش : مطلب قصة حديث الأقرع والأبرص والأعمى فى بنى إسرائيل و ما وقع لهم مفصل .

(٥) ليست العبارة من هنا إلى « فى الصحة و الغنى » فى بن .

و أعمى الذى ذكره قيس بن سعد فمذكور فى كتب الحديث، و هو أنه كان فى بنى إسرائيل ثلاثة أنفس: أبرص و أقرع و أعمى، اجتمعوا يسألون الله فى الصحة و الغنى، فأرسل الله إليهم ملكا أعطى كل واحد منهم ما سأل و صحته، فكان من شهوة الأبرص ناقة، و كان من شهوة الأقرع بقرة، و شهوة الأعمى شاة، فتوالدت و صارت مالا كثيرا، فأرسل الله إليهم ذلك الملك ينظر [٨٧: الف] شكرهم و هو أعلم بهم، فأتى الملك إلى الأبرص فى صورة أبرص فقال: يا شيخ! ارحم كبرى و[1] مرضى و أعطى ناقة أتحمل عليها إلى أهلى، فصرخ عليه و قال: اذهب من وجهى. فقال له الملك: لا تفعل و اذكر أنك كنت مثلى. فقال له: هيهات! ما كنت قط مثلك. فقال له الملك: و إلا ردك الله إلى ما عودك. فذهبت النعمة عنه و بقى كأنه ما زال فى النقمة. و أتى الأقرع صاحب البقرة فقال له مثل ما قال لصاحبه. فقال له: و إلا ردك الله إلى ما عودك. فذهبت[2] عن الآخر النعمة و صار كأنه [3]ما زال[3] فى النقمة. و أتى إلى الأعمى فقال: يا شيخ! ارحم غربتى و كبر سنى و عمى بصرى. فقال له الشيخ: مرحبا يا أخى! هذه نعمتى قد قسمتها شطرين: نصف لك، و نصف لى؛ فانقلب الملك فى أحسن صورة، فقال: من أنت؟ فما رأيت أحسن منك. فقال له: أنا الذى

---

(١) من بن [٦٦: ب]، و فى الأصل: أو.

(٢) من بن، و فى الأصل: فذهب.

(٣-٣) فى بن: لم يزل.

دفعت لك هذه النعمة ، و إنما أنا ملك من ملائكة الله تعالى حيث أنظر شكرك مع شكر فلان و فلان ، فأما فلان و فلان فانهما كفرا النعمة فسلبا ما هم فيه ، و قد أضاف الله لك نعمتهما جزاء لشكرك ، و لك عند الله الجنة « لئن شكرتم لازيدنكم و لئن كفرتم ان عذابى لشديد »[1] انتهى .

نعود[2] إلى ذكر رغبة الصحابة[3] فى الآخرة لا فى الدنيا ، أما الصحابة رضى الله عنهم و تابعوهم[4] فكانت رغبتهم فى الآخرة لا فى الدنيا و زينتها ، بل كان قصدهم نصر دين الإسلام و إقامة شرع نبيهم عليه أفضل الصلاة و السلام ، ليندحض الكفر و الطغيان ، و تبطل عبادة الأصنام و النيران[5] و الصلبان ، فلذلك أعانهم الله تعالى[6] و نصرهم[6] ، و فتح لهم الفتوحات العظيمة لما سلكوا السبل القويمة . و سأذكر ما يدل على عدم رغبتهم فى الدنيا و اجتهادهم فى طلب الآخرة . و ذلك أن أبا[7] بكر الصديق رضى الله عنه كان يتخلل بكسائه و هو الخليفة بعد النبى عليه السلام ، فسمى بذلك ذا الخلالين . و أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان

---

(١) قرآن كريم ١٤ : ٧ .

(٢) فى الهامش : مطلب نعود إلى ذكر رغبة الصحابة فى الآخرة لا فى الدنيا .

(٣) زيد فى بن : رضى الله عنهم .

(٤) فى الأصل و بن : تابعيهم - كذا .

(٥) فى بن : الاوثان .

(٦-٦) ليس فى بن .

(٧) من بن ، و فى الأصل : أبى .

يلبس مُرقعة فيها رقاع من أدم، و يطوف فى الأسواق على عاتقه درة يؤدب بها الناس، و كانت درته أهيب من سيف الحجاج، و كان عمر بالنوى فيلتقطه و يلقيه فى منازل الناس لينتفعوا به . و أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله [٨٧ : ب] عنه يقوم الليل أجمع يقرأ القرآن كله فى ركعة . و أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه اشترى و هو خليفة قميصا بثلاثة دراهم و قطع كميه من موضع الرصغين و قال: الحمد لله الذى هذا من رياشه . و سعد بن مالك دعا له النبى صلى الله عليه و سلم أن تستجاب دعوته، و كان معروفا بالإجابة، و دعا يوم وقعة القادسية على رجل فقال: اللهم اكفنا يده و لسانه! فخرس و يبست يده . و ابن عباس كان على خديه خطان من أثر الدموع . و مثل هذا فى الصحابة كثير مما لو [1]استقصينا عليه[1] لطال الكلام، و كذلك التابعون[2] – رحمة الله عليهم أجمعين .

و سأذكر[3] خبر الرجل اليمانى[4] و إعراضه عن سلب قتيله الكافر زهدا فى الدنيا و رغبة فى ثواب الآخرة، و هو أن عبد العزيز بن مروان

(١-١) فى بن : استقصيناه .

(٢) فى الأصل و بن : التابعين .

(٣) زيد فى بن : الآن .

(٤) فى الهامش : ذكر خبر الرجل اليمانى و إعراضه عن سلب قتيله - انظر أيضا فى هذا الحديث ٩٦ : الف .

عامل أخيه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان على مصر حين قدم إلى[1] الإسكندرية سأل عن فتحها ، فقيل [له] : لم يبق[2] من أدرك فتحها إلا شيخ كبير من الروم ، فأمرهم فأتوه[3] به ، فسأله عما حضره من فتح الإسكندرية ، فقال : كنت غلاما شابا و كان لى صاحب ابن بطريق من [4]بطارقة الروم[4] ، فأتانى فقال : ألا تذهب بنا حتى ننظر إلى هؤلاء العرب الذين يقاتلوننا ؟ فلبس ثياب ديباج [5]و عصابة ذهب[5] و سيفا محلى و ركب برذونا [سمينا و ركبت برذونا –[6]] خفيفا [من اللحم –[6]] فخرجنا من الحصون كلها حتى برزنا على شرف عال[7] ، فرأينا[1] قوما فى خيام لهم ، عند كل خيمة فرس مربوط و رمح مركوز ، و رأينا قوما ضعفاء ، فعجبنا من ضعفهم فقلنا : كيف بلغ هؤلاء القوم ما بلغوا ! فبينا[8] نحن وقوف ننظر إليهم و نتعجب إذ خرج رجل منهم من بعض تلك الخيام فنظر[1] ، فلما رآنا حلّ فرسه و وثب على ظهره و هو عرى ، و أخذ الرمح بيده

(١) ليس فى بن [٦٧ : الف] .

(٢) فى بن : لم تبق .

(٣) فى بن : فأتوا .

(٤–٤) فى بن : البطارقة الرومية .

(٥–٥) ليس فى بن .

(٦) زيدت من بن .

(٧) انظر ما بعد ١٠٣ : الف .

(٨) فى بن : فبينما .

و أقبل نحونا ، فقلت لصاحبي : هذا و الله يريدنا ! فلما رأيناه مقبلا إلينا لا يريد غيرنا أدبرنا مولّيين نحو الحصن، [1]و أخذ[1] في طلبنا ، فلحق صاحبي لأن برذونه كان ثقيلا كثير اللحم ، فطعنه برمحه فصرعه ، ثم خضخض الرمح في بطنه حتى قتله[2] ، ثم أقبل في طلبي ، و كان برذوني خفيف اللحم فنجوت منه حتى دخلت الحصن ، فلما دخلت الحصن أمنت فصعدت على سور الحصن أنظر إليه ، فإذا هو لما يئس مني رجع فلم يبال لصاحبي الذي قتله ، و لم يرغب في سلبه ، و لم ينزعه عنه ، و كان سلبه[3] ثياب الديباج و عصابة من ذهب ، و لم يطلب برذونه ، [٨٨ : الف] ولم يلتفت إلى شيء من ذلك ، و انصرف من طريق أخرى ، و أسمعه يتكلم بكلام يرفع صوته ، فظننت : إنما قووا على ما قووا عليه و ظهروا على البلاد أنهم لا يطلبون الدنيا و لا يرغبون في شيء منها ، حتى بلغ خيمته فنزل عن فرسه فربطه و ركز رمحه و دخل خيمته ، و لم يعلم بذلك أحدا من أصحابه .

فقال عبد العزيز بن مروان للشيخ : صفه لي . فقال : نعم ، هو قليل ذليل ليس بالتام من الرجال في قامته و لا في لحمه ، رقيق أدم ، كوسج[4] .

(١–١) في بن : فأخذ .

(٢) خضخض الرمح بمعنى هزّه في بطن الفريسة ، و هذا يرجع في الغالب لصعوبة استخراج الرمح من مكانه في بطن القتيل .

(٣) في الجملة تعارض مع ما سبقها ، و ربما كانت القراءة الصحيحة « و كان يمكن سلبه » .

(٤) في الأصل و بن : كوسجا .

فقال عبد العزيز: إنه ليصف صفة رجل يمان . و مما قيل فى معنى سعى[1] ابن البطريق [2] إلى حتفه[2] قول الشاعر تجانس :

إلى حتفى سعى قدمى أرى قدمى أراق دمى

فما انفك من ندمى و هان دمى فها ندمى

٥ و قال الشاعر فى معنى عدم أخذ اليمانى المسلم لسلب البطريق الكافر:

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب[3]

---

(١) ليس فى بن .

(٢ - ٢) ليس فى بن .

(٣) زيد فى بن (٦٧ : الف - ب) : ...... نصارى اهل قيسارية بالشام وكان مقدم الروم قسطنطين بن .... البطريق فقال له قيدمون وكان من أفرس الروم وكان اللعين قد لقى عسكر الفرس ... معه وكان اللعين يحفظ بسائر اللغات فقال لقسطنطين: لا بد لى من قتال هؤلاء .... قسطنطين بن هرقل يمنعه فلبس قيدمون البطريق لأمة حربه و خرج مبادرا فلما رآه العرب .... عليه يلمع من بريق الجوهر فضج المسلمون بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فلما وقف .... و يطلب البراز فأقبلت العرب يهرعون إليه من كل ناحية كل يريد قتاله لأجل.... ابن العاص أمير القوم يقول: ثواب الله خير لكم مما عليه ، فلا يخرج أحد لسلبه فيكون خروجه لأجل ذلك ، فان قتل مات فى سبيل الله ، و قد سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ؛ فخرج غلام من اليمن و معه أمه وأخته يريدون الشام و أخته تقول : يا ابن ام ! جد بنا فى السير حتى نصير إلى بلاد الخصب و نأكل من خيرات الشام لأجل خيره و نعمه (كذا) ، فقال لها أخوها : أنا أقاتل لرضى الله و رسوله و قد سمعت معاذ بن جبل يقول : ان الشهداء =

و لما

و لما فتح عمرو بن العاص و خالد بن الوليـــد الإسكندرية و صارت فى أيدى المسلمين جاء أهل رشيد و فوة و المحلة و البحيرة ، و استعقبوا لهم صلحا فصالحهم خالد . ثم بعث المقداد بن الأسود مقدما على من[1] معه

= أحياء عند ربهم يرزقون ، فقلت : يرزقون وهم أموات ؟ قال سمعت صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : تجعل أرواحهم فى حواصل طير من طيور الجنة فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة و تشرب من أنهارها فتغذو أرواحهم فى حواصل تلك الطيور ، فهو الرزق الذى جعل الله لهم . فلما كان يوم قتال جيش قيسارية خرج الغلام إلى القتال بعد أن ودع أمه و أخته وطاع (كذا) الموت و قال : إنما اجتماعنا عند حوض المصطفى محمد صلى الله عليه و سلم . ثم خرج و بيده قناة موصولة كثيرة العقد و من تحته جواد هجين . فلما خرج الغلام حمل على البطريق قيدمون وطعنه بسنانه فانتشب السنان فى ذرع (كذا) البطريق فلم يقدر على انتزاعه من البطريق ، و ضرب البطريق قناة الغلام بسيفه فقطعها وحمل على الغلام و ضربه على هامته فشطرها و وقع الغلام ميتا رحمه الله . و جال قيدمون على مصرعه ثم طلب البراز فخرج إليه ابن عمه فقتله — انتهى . فلنذكر الآن ما قيل فى فتح دمياط ، عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الله عز وجل سيفتح لكم ثغرا هو بلد القدرة يسكنه الاقامون من أمضى (؟) دمياط ، ليلة فيه مثل عبـادة ألف شهر هو بلد القدرة .... فيه نفسه . قال انس : و ما بلد القدرة يا رسول الله ؟ قال : بلد الدال و الميم و الطاء . و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم..... الله على أمتى ، ألا ! فالزموا الدمنة البيضاء على شاطئ البحر تسمى « دمياط » المقبور فيها كالشهيد و الراكب فى .... شحط فى دمه و لما فتح (عمرو بن العاص) — الخ .

(١) فى الهامش : ذكر فتح دمياط .

من المسلمين وعدتهم أربعون[1] إلى دمياط، فساروا إلى أن وصلوا إليها، وكان على دمياط خال الملك المقوقس، وكان اسمه الهاموك، وكان يركب فى اثنى عشر ولدا من صلبه، تحت يد كل ولد خمسمائة فارس من الأبطال، وكان قد حصّن دمياط وجمع فيها الزاد والأطعمة وغير ذلك. فلما أشرف عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر إلى قلتهم ضحك وقال: إن قوما ينفذون إلينا أربعين[2] رجلا منهم ليملكوا بلادنا! إنهم لفى عجز رأى وقلة عقل. وإن ولده الأكبر كان قد نشأ مشهورا فى بلاد النيل جميعا بالفروسية، وكان اسمه هزير، وكان يتقى شجاعته وبراعته، وليس فى عينه من الفرسان شيء، فلما نظر إلى الصحابة قفز إليهم وهو مشتمل بلأمة حربه فطلب البراز، فخرج إليه ضرار بن الأزور فحمل عليه وطعنه طعنة وإذا به مجندل[3]! وحمل على عسكر الهاموك فألجأه إلى سور المدينة، وكان فيهم كالنار فى الحطب. قال: فاستعاذ منه الجيش جميعه، ورجع الهاموك [٨٨: ب] إلى قصره وقد صعب عليه قتل ولده، ودعا[4] بأرباب دولته، وكان لهم حكيم يقتدون برأيه ويعتمدون عليه فى عقله يسمى «الدارجان»[5]

(١-١) فى الأصل و بن: اربعين.

(٢) من بن، وفى الأصل: اربعون.

(٣) فى الأصل: منجدل، وصححه فى بن.

(٤) فى بن [٦٨: الف]: عاد – كذا.

(٥) فى الواقدى: ديرجان.

فأحضره الهاموك مع من حضر و قال: أيها الحكيم العالم! ما الذى تشير به علينا فى أمر هؤلاء القوم؟ فقال: أيها الملك! إن جوهرة العقل لا قيمة لها و ما استطابها أحد إلا و هدته[1] إلى سبيل نجاحه[2]، و قادته إلى معالم صلاحه، و هؤلاء القوم لا ترد لهم راية، و لا يلحق[3] لهم غاية، و قد فتحوا البلاد، و أذلوا العباد، و اشتهر أمرهم، و علا ذكرهم، و علت كلمتهم، و طيعت دعوتهم، فما أحد يقدر عليهم، و لا يصل إليهم، و ما نحن بأشد من جيوش الشام جلدا، و لا أمنع بلدا، و[4] قد أيدوا بالنصر، و غلبوا بالقهر. و إن الرحمة فى قلوبهم و ما عاهدوا قط عهدا فخانوه[5]، و لا حلفوا يمينا فحنثوه[6]، و قد بلغك ما هم عليه من الدين و الصيانة و الصدق و الأمانة: و الرأى عندى أننا نعقد لنا مع القوم صلحا و ننال بذلك الأمن و حقن الدماء و صون المحارم، و دفع العظائم، و نكون ممن صالحناهم و دفعنا شرهم بشىء من مالنا. قال: فلما سمع الهاموك ذلك من حكيم دينهم أمر[7] به لتضرب[7] عنقه، فلما نظر إلى المنية قد غشيته قال: اللهم! إنى برىء مما تشركون و لا أشرك به

(١) من بن، و فى الأصل: اهدته.

(٢) فى بن: النجاة.

(٣) فى بن: تدرك.

(٤) زيد فى بن: هؤلاء القوم.

(٥) فى بن: فخانوا.

(٦) فى بن: فحنثوا.

(٧ - ٧) فى بن: أمر بضرب.

أحدا ،[1] و إنى[1] أشهد أن لا إلـه إلا الله و أن محمدا رسول الله . فلما سمع الهاموك ذلك وثب قائما و علاه بسيفه فقتله ، فلم يجسر أحد[2] أن يشير على الهاموك بمشورة ، بل أمرهم أن يأخذوا أهبتهم للحرب صبيحة يومهم ، ففعل[3] القوم ذلك و أخذوا على أنفسهم للحرب ، فلما كان صبيحة ذلك اليوم خرجوا إلى ظاهر المدينة ، و نصبوا خيامهم و سرادقاتهم بازاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم .

قال : و كان للدارجان الحكيم [4]ولد نجيب[4] قد ورث وصايا أبيه و كان فيه فطنة و عقل و تدبير ، فلما بلغه أن أباه قد قتل أظهر الفرح و السرور و الدعاء للهاموك و قال : أراحنى الملك الهاموك منه و من شره ، [5]فكثيرا ما كان[5] يضربنى و يذلنى . قال : فبلغ خبره الهاموك فطيّب قلبه و خلع عليه . فلما كان الليلة الثانية قال : و الله لآخذن بثأر أبى من هذا اللعين و من أولاده . قال : و كانت داره ملاصقة للسور ، فنقب نقبا واسعا[6] و خرج منه حتى وقف على الصحابة فقالوا له : من

(١ ـ ١) فى بن : و انه لا شريك له و لا وزير و لا صاحبة له و لا نظير و انا .

(٢) فى الأصل : احدا . و صححته فى بن . سقطت العبارة من هنا إلى « للحرب » من بن .

(٣) فى الأصل و بن : ففعلوا .

(٤ ـ ٤) فى بن : ولدا نجيبا .

(٥ ـ ٥) فى الأصل : فكثير ما كان ، و فى بن : فكان كثيرا ما .

(٦) فى بن : وسيعا .

أنت

أنت ؟ فأخبرهم [٨٩: ألف] بخبره، و ما كان من أمره فاستر ابوه و قال له ضرار بن الأزور: ويلك ! إن الذى بعثك بهذه الحيلة أراد قتلك، و لسنا نؤتى من قِبَل الحيل، لأن الحذر شعارنا و التيقظ دثارنا . فهمّ بقتله، فقال المقداد بن الأسود: قف [1]يا ضرار[1] وفقك الله ! اعلم أنى رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه و سلم فى المنام و هو يشير إلى شخص بين يديه و يقول لى: على يد هـذا الرجل تفتح المدينة! و كأنى أتأمل إلى هذا الغلام فكأنه هو، و كان على وسطه منطقة من الأديم[2] و فيها حلق فضة و هى من تحت ثيابه . ثم قال المقداد: يا غلام ! اكشف لى[3] عن ثيابك، قال: فكشف الغلام عن ثيابه فاذا بالمنطقة الأديم ! فقال المقداد: أشهد أن لا إلـه إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله . فقام المسلمون إلى الغلام و صافحوه و سلموا عليه . قال: فتقدم الغلام أمامهم إلى أن دخل بهم من موضع نقبه، فوسعه[4] الصحابة و دخلوا منه هم و خيولهم، ثم ردوا الحجارة و اللبن على حالها[5]، و أعمى الله أبصار القوم عنه فلم يفطن له أحد . قال: فلما كان من الغد نظر أعداء الله و إذ[6] ليس للصحابة خبر ! فعطعطوا و صاحوا و قالوا: هربت

(١ - ١) فى بن: يا مقداد - كذا .
(٢) فى بن: اديم .
(٣) ليس فى بن .
(٤) من بن، و فى الأصل: فوسعوه .
(٥) فى بن [٦٨: ب] : حاله .
(٦) فى الأصل و بن: و اذا .

العرب ، و وقع الصائح فى المدينة ، فأقبلوا يهرعون إلى ظاهر المدينة ليقفوا على صحة الخبر ، فلم يبق فى المدينة أحد إلا خرج ، و لم يتخلف أحد إلا النساء و الأطفال و الإماء ، و كان للحكيم الدارجان الذى قتله الهاموك إخوة و بنوعم ثمانون رجلا [1] ، و إن ولده سار إليهم و أعلمهم بالأمر ، فأتوا معه إلى منزله و أسلموا على يد الصحابة رضى الله عنهم ، فلما كان من الغد و وقع الصائح بهروبهم و خرج أهل البلد فبادر إخوة الحكيم و بنوعمه إلى الأبواب فغلقوها [2] ، و أعلنوا بالتهليل و التكبير ، و الصلاة على البشير النذير ، فوقعت الخمدة على الصبيان و النساء و استوثق القوم من المدينة ، و خرج أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم من باب البراجيم فسمى « باب [3] الجهاد » إلى الآن ، و رفعوا أصواتهم بذكر الله عز و جل ، فلما نظر [4] إليهم أهل المدينة علموا أن المدينة قد [5] ملكت منهم ، و أن الذى فعل ذلك بنو عم الدارجان الحكيم ، فصفوا صفوفهم بازاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و نظروا إلى الذين أسلموا و قد ملكوا الأسوار [5] ، فصعب ذلك عليهم ، و كبر لديهم ، و سقط ما كان [٨٩ : ب] بأيديهم . قال : فبينما الهاموك ينظر إلى

(١) وقع فى بن : رجالا — كذا .

(٢) فى بن : فاغلقوها .

(٣) فى بن : باسم .

(٤) من بن ، و فى الأصل : نظروا .

(٥) ليس فى بن .

الصحابة و ولده الأوسط عن يمينه، و كان عالما لبيبا كثير التيقظ كامل الأدوات وافر العقل، و كان مذ نشأ يتبع آثار الرهبان و يجالس العلماء و يطلب العلم، و مذ عقل عقله ما أكل لحما، و لا كشف محرما، و لا سجد لصليب، و لا عظم صورة و لا عبدها، و كان قد همّ أن يبنى لنفسه صومعة و ينفرد فيها، فلم يمكنه أبوه من ذلك لفرط محبته إياه، و لا يصبر على فراقه، و كان اسم ذلك[1] الغلام شطا، و كان يحب أن يسمع أخبار رسول الله صلى الله عليه و سلم و يبحث عنها، فبينما هو ذلك اليوم [2]عن [يمين] [2] أبيه و هو واقف ينظر إلى الصحابة و إلى زيهم و ينظر إلى أنوار الإيمان اللامعة عليهم، و إذا هو قد شخص بصره إلى السماء ثم صاح و سقط عن قَرَبوس سرجه إلى الأرض، فارتاع قلب أبيه و عسكره لذلك، فلما أفاق قال أبوه: يا بنى يا بنى! ما وراءك؟ قال: يا أبت! قد ظهر الحق و بان، و قد تبين لى حقيقة الإيمان، و قد رأيت على عسكر هؤلاء العرب قوما عليهم ثياب خضر، و هم على خيول شهب و بينهم قُبّتان فى الهواء بلا علاقة من فوقها[3]، و لا عمد من تحتها[4]، و فيهما رجال ما رأيت أحسن منهم، و لا شك

(١) فى بن: هذا.

(٢ - ٢) فى الأصل: عن، و كلمة «يمين» ساقطة من بر و واردة فى بن.

(٣) من بن، و فى الأصل: فوقها.

(٤) من بن، و فى الأصل: تحتها.

أنهم الشهداء، إذ رأيت[1] فى إحدى[2] القبتين حوزا عينا دعجا، لو برزت[3] لأهل الأرض لماتوا شوقا إليها، و إن الله عز و جل ما كشف عن بصرى إلا و قد أراد بى خيرا، و ما كنت بعد هذه الآيـة أبقى على الضلالة، و أنا أشهد أن لا اله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله. ثم حرك على جواده و قال: من أحبنى من غلمانى و أجنادى و رجالى فهو يتبعنى. قال: فاتبعه من القوم ألف رجل و لحقوا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم، و رموا سلاحهم و أعلنوا بتوحيد الله تعالى. قال: فلما نظر الهاموك قال: و الله ما آمن ابنى شطا [إلا -[4]] و قد رأى ما لم أر، و لم[5] أشك فى عقله و دينه. ثم أسلم و لحق بولده، فلما نظر[6] الأمراء و الحجاب إلى ذلك قالوا: إذا ملكنا قد أسلم فما وقوفنا؟ قال: فأسلموا و جددوا إسلامهم على يد الصحابة، و فتحت المدينة، فمن أسلم تركوه، و من أبى أخرجوه إلى الأرياف. و فتح المقداد بن الأسود النقب الذى دخلوا منه إلى المدينة، و أمر أن يبنى بابا و سماه «باب اليتيم» و هو ابن [٩٠: الف] الحكيم الدارجان، و ترك عندهم رجلا

(١) فى بن نظرت.

(٢) من بن، و فى الأصل: احد.

(٣) زيد فى بن: احداهن.

(٤) «إلا» ساقطة من الأصل، و واردة فى بن.

(٥) فى بن: لست.

(٦) فى الأصل: نظروا، و فى بن مطموس.

من

من الصحابة يسمى يزيد بن عامر يعلمهم شرائع الإسلام . و وصل المقداد و أصحابه إلى الإسكندرية، و حدثوا عمرو بن العاص و خالد بن الوليد بما فتح الله عليهم من دمياط، ففرح[1] بذلك و كتب عمرو بن العاص من وقته كتابا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلمه بفتح [2] ترنوط و الإسكندرية و رشيد و فوة و المحلة و دمنهور و البحيرة و دمياط[2]، و بعث الكتاب مع عامر بن لؤى ، فلما وصل الكتاب إلى عمر فرح به و قرأه على المسلمين ففرحوا بذلك .

و لما فتحت[3] دمياط و كان من أمرها ما شرح قال الهاموك لولده شطا : يا بنى! إن الله أنقذنا من نار جهنم باسلامنا و اتباعنا لدين محمد صلى الله عليه و سلم، و ذلك بسابقة سبقت لنا فى القدم من ربنا، و هذه تنيس بالقرب منا و لا[4] نقدر على الوصول إليها إلا فى المراكب، و الصواب أنا نسير إلى صاحبها أبى ثور و ندعوه إلى الله تعالى و إلى دين نبينا محمد صلى الله عليه و سلم، فان أجاب و إلا غزوناه . فقال شطا: هذا هو الرأى، و أنا أكون الرسول إليهم بنفسى . فقال: يا بنى! اركب

(١) فى بن [٦٩: الف] : ففرحا .

(٢ - ٢) ترتيب ذكر البلدان فى بن كالآتى : دمياط و الإسكندرية و رشيد وفوة و سنهور المدينة و سخا و المحلة و دمنهور و البحيرة .

(٣) فى هامش الأصل : مطلب يذكر فيه أخبار قصة الهاموك و ولده سيدى شطا و إسلامهما و إظهار باب اليتيم بثغر دمياط .

(٤) فى بن: ما .

على بركة الله و عونه . قال: فركب شطا و سار معه[1] أربعة من غلمانه و خواصه، فلما نظر إلى ذلك يزيد بن عامر صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: يا غلام! و أنا أسير معك إلى صاحب تنيس، فانه لو سألك عن ديننا و معالمنا لم يكن الك جنان أن تكلمه، و نحن بحمد الله [2]لم يكن[2] فينا من يتكبر و لا يتجبر، لأن طلبنا الآخرة و العمل بما يقربنا إليها . ثم سار معهم يزيد بن عامر إلى أن أتوا إلى جانب البحيرة، و إذا هناك مراكب من قبل أبي ثور، و فيها رجال يحفظون من يأتي من نحو[3] دمياط، فلما نظر أهل المراكب إلى شطا و غلمانه و بينهم رجل من أهل البادية قالوا لهم: من أنتم؟ فقال: أنا شطا بن الملك الهاموك و معنا هذا الرجل من أصحاب محمد و قد جئناكم رسلا . قال: فأنفذوا زورقا[4] فيه رجال[5] منهم يستأذنون عليهم، فأذن لهم بالقدوم عليه، فرجع[6] أهل الزورق و أخذوا [شطا - [7]] [8]و غلمانه[8]

(١) في بن: مع .

(٢ - ٢) في بن: ما .

(٣) في بن: جنود .

(٤) الزورق ورد فيما بعد ضمن استعراض أسماء المراكب - انظر فيما بعد ١٢٤ : الف .

(٥) في الأصل: رجالا، و صححه في بن .

(٦) من بن، و في الأصل: فرجعوا .

(٧) «شطا» ساقطة من بر، و واردة في بن .

(٨ - ٨) في الأصل: غلمانه - بدون واو العطف، و هي واردة في بن .

و يزيد

و يزيد بن عامر و جدّفوا بهم إلى مدينة تنيس، ثم نزلوا من الزورق، و إذا بخيل قد أقبلت إليهم من أبى ثور، فامتنع يزيد بن عامر من الركوب، و وافقه شطا و غلمانه [٩٠ : ب] و ساروا رجالة إلى قصر أبى ثور، و إذا هو فى عظيم جشمته و زينته! و الحجاب و الغلمان بين يديه، و هو فى مرتبة إمارته، و كان قد تجبّر و تكبر مذ نزل أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم على مصر، و منع الارتفاع و الخراج إلى الملك المقوقس صاحب مصر، و قد اجتمع عنده مال عظيم، فلما دخل يزيد بن عامر و معه شطا و غلمانه و نظر إلى أبى ثور و تجبّره بدأ يزيد بن عامر بالسلام و قال: السلام على من اتبع الهدى! انّا قد اوحى الينا ان العذاب على من كذب و تولى[1].

قال عتبة[2] بن وقاص و كان أعلم الناس بقصة فتوح أرض مصر[3]، قال: و كان أبو ثور من أهل العريش من متنصرة العرب من غسان بن يعرُب من قبيلة جَبَلة بن الأيهم الغسانى، و كان صاحب قبيلة و أموال و حلل، و إنه لما وقعت الهزيمة على الروم و فتح الشام على يد أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و انهزم الملك هرقل و هرب معه جبلة، هرب هذا أبو ثور بأمواله و أهله، و نزل فى البرية ما بين العريش و رفح، و إن الملك المقوقس خرج ذات يوم إلى تصيده مع أرباب دولته،

(١) سورة ٢٠ آية ٤٧ و ٤٨.

(٢) فى بن: عقبة.

(٣) فى هامش الأصل: ذكر ابتداء قصة أبو (كذا) ثور.

فانتهى فى صيده إلى أرض العريش و هى مسيرة أربعة أيام ، و إن الملك المقوقس لما حصل فى برية العريش انطرد أمامه وحش كثير ، فطلبه الملك و اشتغل كل إنسان بصيد نفسه ، و انطردت ظبية أمام الملك ، فتبعها إلى أن رمت به فى حلل أبى ثور ، و الجواد قد تعب من تحته و أرفض عرقا ، فلما رآه أبو ثور قام إليه و بجّله [1] و عظمه و علم أنه الملك بزيّه ، و مسك بركابه ، و أنزله فى بيته [1] ، و ذبح الأغنام ، و اصطنع الطعام ، و لحق جيش الملك به ، فأضافهم ثلاثة أيام ، فلما كان فى اليوم الرابع [2] ركب مع الملك و شيعه فرسخا ، ثم ودّع الملك . [3] و لما عاد [3] المقوقس إلى مصر و جلس على سريره أمر وزيره أن يكتب لأبى ثور ولاية تنيس و أعمالها من الجزائر ، و نفذ له الخلع و المماليك و الغلمان . فلما وصل إليه منشور الملك و خلعه فرح أبو ثور بذلك و قبّل الأرض و سار إلى الفرما ، و ركب منها فى المراكب إلى تنيس ، فلما ترتب أمره بعث إلى أهله و إخوته فأتوا إليه ، فولى أخاه [4] أبا مينا على جزيرة الصدف [5] فسميت باسمه [6] . و إن أباثور لما رأى ما هو فيه من الأمر

(١-١) سقطت من بن [٦٩ : ب] .

(٢) ليس فى بن .

(٣-٣) فى بن : و عاد فلما رجع .

(٤) فى الأصل : أخوه ، و صحته فى بن .

(٥) كان أبو مينا و هو أخو أبى ثور حاكم جزيرة الصدف : راجع الواقدى ص ٨٥ . و انظر كذلك الدمشقى (طبعة Mehren ص ١٥٦) حيث يذكر مكانا =

و النهى

و النهى طغى و تجبر ، [٩١ : الف] و تطاولت الأيام و الليالى حتى قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى مصر ، و منع الخراج و الارتفاع من الملك المقوقس و ولده[١] ، و رأى أنـــه فى جزيرة يتحصن بنفسه ، و قال : ما أحد يقدر [أن - [٢]] يصل إلىّ . فلما قدم شطا بن الهاموك و يزيد بن عامر و رآهم أبو ثور أظهر الإعجاب و التكبر ، و لم يرفع رأسه إليهما ، و لا جسر أحد من الحجاب يأذن [٣] لهم بالجلوس [٣] ، فلما نظر إلى ذلك يزيد بن عامر قرأ قوله تعالى : " ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين ﴿[٤]﴾ " ثم جلس و جلس إلى جانبه شطا ، و نظر يزيد بن عامر إلى سرير أبى ثور ، فاذا هو من الذهب الأحمر ، و فيه صورة مريم و المسيح فى حجرهـا ، و هو مستقبل تلك الصورة بوجهه يتعبدها[٥] ، فاستعاذ بالله من فعله ، فقرأ يزيد بن عامر : " فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ﴿[٦]﴾ " إلى قوله " و يوم أبعث حيا ﴿[٧]﴾ " . فلما سمع أبو ثور قراءة يزيد التفت إليه بغيظ و حنق

= فى وسط البحيرة يدعى «سنجار» . (٦) فى بن : به .

(١) فى بن : رسطوليس .

(٢) ليس فى الأصل و بن .

(٣-٣) فى بن : لهما فى الجلوس .

(٤) قرآن كريم ٧ : ١٢٨ .

(٥) فى بن : تعبدها .

(٦) قرآن كريم ١٩ : ٢٤ .

(٧) قرآن كريم ١٩ : ٣٣ .

و قال: لقد منّتكم أنفسكم الكاذبة بالأباطيل، و غرّقتكم في[1] بحار الأضاليل[2]، و قلتم قولا و نسبتموه إلى الله. فقال يزيد: الله أعلم بمن هو تائه في تيه المحال، و متابع الكفر و الضلال، أما آن لكم أن توحّدوا الله و تعظّموه و لا تشركوا به شيئا؟ أما سمعتم الذى تعبدونه و[1] تشيرون إليه و تطيعونه و هو المسيح كيف أقرّ بالعبودية و ذل لعزة الربوبية؟ و قال: "انى عبد الله[3]" و قد بشر بنبينا محمد صلى الله عليه و سلم قبل مبعثه و ولادته، أما سمعتم معجزاته؟ أما وصل إليكم ما ظهر من دلالته؟ أما انشق له القمر؟ أما خاطبه الضب[4] و كلمه الحجر؟ أما هو[1] أطيب بيت في مضر؟

قال أبو ثور: قد بلغنا ما فعل و لكنه سحر مستمر، و لكن إن كان قولك حقا فادع الله و توسل إليه بمحمد أن يسقينا الغيث، فان جاء الغيث علمنا أنكم كل ما تقولونه [5]ليس فيه شك[5]، و نؤمن بالله و نصدق برسالة محمد. قال يزيد: إن الله قادر على ما ذكرت، و إنى أتوسل إليه بخير خلقه. ثم قام يزيد و خرج من منزل أبي ثور، فقال له: إلى أين؟ فقال: أدعو الله، لو شاء أرسل عليكم رجزا من السماء. و إنما طلب

(١) ليس فى بن.
(٢) فى بن: الاباطيل.
(٣) سورة ١٩ آية ٣٠.
(٤) فى بن [٧٠: الف]: الظبى.
(٥ - ٥) فى بن: لا شك فيه.

أبو ثور الغيث و اقتصر عليه لأنه كانت[١] له مزرعة بالبعد من النيل لا يقدر أن يسقيها و لا يصل إليها ماء النيل ، و كانت قد أشرفت على اليباس و عمّها [٩١ : ب] الجدب[٢] ، و كانت منه ببال ، و قد غرس فيها[٣] جميع الأثمار و الأشجار ، و قد صنع فيها مصانع تمتلئ من ماء الأمطار ، فتسقى بذلك[٤] أيام الحاجة إليه ، و كان المطر قد أمسك عنهم ، و المصانع[٥]

(١) فى بن : كانْ .

(٢) كذا فى بن ، أما فى بر فهى : الجذب ـ بالذال .

(٣) زيد فى بن : من .

(٤) فى بن : منها فى .

(٥) رحلة ناصر خسرو (طبعة Schefer) ص ١١١ – ١١٢ وردت فيها «مصانع تنيس » و فى ياقوت ج ١ ص ٨٨٤ وردت « صهاريج الأمير » أى أحمد بن طولون الذى زار تنيس سنة ٢٦٩ هـ و أصلح تلك المصانع فى هذه الزيارة . و من غريب المصادفات أنه فى سنة ١٨٩٨ م طلب أهالى ناحية شط غيط النصارى بمركز فارسكور فى مديرية الدقهلية من الحكومة أنْ تقوم بتصليح « مصنع » واسع و المحافظة عليه . وهذا المصنع كائن بالقرب من مقام سيدى شطا » ولكن الحكومة لم تجب هذا الطلب لأنها اعتبرت ذلك المصنع حديث العهد ـ راجع فى ذلك :

Bull. Comm. Monuments Arabes, XVI, Annèe, 1899, pp. 22-23 & 54.

و فى خرائط الإسكندرية القديمة بالصحراء الغربية نجد مواضع عديدة باسم « صنيه » و « صوانى » و كل هذه الأسماء مقصود بها مخازن مياه الأمطار ـ انظر فى هذا الموضوع فيما يلى ١٠٣ : الف ، ١٠٤ : ب ، ١٩٤ : الف ، ٢١٣ : الف .

قد نشفت . قال: فلما خرج يزيد بن عامر قصد[1] البحر فتوضأ[2] و صلى ركعتين، ثم رفع رأسه إلى السماء و قال: اللهم! إنك أمرتنا بالدعاء و وعدتنا بالإجابة، و قد دعوتك كما أمرتنى فاستجب منى كما وعدتنى، يا ذا المعروف الذى لا ينقطع معروفه أبدا . فعند ذلك أذن الله للسحاب فى الجو أن يبدء . و إذا الرعد يصول[3] عليها بصولته، و قد أحاطت بالسحاب ملائكة الرحمة، و لم يزل المطر ينسكب بقية يومهم ذلك و ليلتهم، فلما كان من الغد حضر يزيد بن عامر فى مجلس أبى ثور فقال: كيف رأيت صنع الصانع المتكفل برزق القريب و الشاسع؟ فضحك أبو ثور و قال: إن سحركم أعظم من هذا . ثم قال أبو ثور ليزيد: الآن تحققت أن دينكم حق، و قولكم صدق، و أنا مؤمن بالله و برسوله محمد صلى الله عليه و سلم، و سوف أعرض دين الإسلام على قومى و سائر أهل الجزائر، و أهدم الكنائس و أبنى المساجد، و آمر بالمعروف و أنهى عن المنكر . فقال يزيد بن عامر: إن أنت فعلت ذلك رشدت، و إن نافقت فالله لك بالمرصاد . ثم إنه خرج من عنده هو و من معه إلى أن وصلوا إلى الهاموك صاحب دمياط، و حدثوه بما كان من الأمر، فقال: و الله لقد خدعكم أبو ثور و رماكم بسهم مكيدته . فقال

(١) فى بن: إلى .

(٢) زيد فى بن: منه .

(٣) فى بن: تصول .

ابن

ابن عامر : «و مكروا و مكر الله و الله خير الماكرين[1]» . فما لبثوا إلا أياما[2] قلائل حتى جاءهم الخبر أن أبا[3] ثور قد جمع من سائر الجزائر ، و هو بعد أيام يكون عندكم . فلما سمع الهاموك ذلك قال ليزيد و أصحابه أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما الذى ترون من الرأى فى أمر هذا العدو ؟ فقال يزيد : نستعين بالله و نتوكل عليه ، و من قاتلنا قاتلناه .

و إن الهاموك بعث ولده شطا إلى البرلس و دميره و أشمون و ما هو تحت يده يدعوهم إلى جهاد القوم من كل ناحية و مكان فى عددهم و عديدهم[4] ، و ضربوا خيمهم[5] بين الشرق و القبلة من دمياط ، و كتبوا إلى عمرو بن العاص يعلمونه بالأمر ، و أن أبا ثور قد جمع الجموع للقائنا .

قال : فلما وصل إليه الكتاب و قرأه نفذ إليه هلال بن أوس ، و ضم إليه الناس من بادية الأعراب ، و بعثهم [٩٢ : الف] إلى دمياط ، و ذلك فى العشر الأول من شعبان سنة ست و عشرين من الهجرة ، و لعمر بن الخطاب فى الخلافة أربع سنين و نصف .

و أما ما كان من أبى ثور فانه لما نظر إليه أبو مينا و أبو نشا و أهل بلده أعرضهم ظاهر مدينة تنيس و أخرجهم من بابه المعروف إلى يومنا

(١) قرآن كريم ٣ : ٥٤ .
(٢) من بن ، و فى الأصل : أيام .
(٣) من بن ، و فى الأصل : أبى .
(٤) فى بن : عددهم .
(٥) فى الأصل و بن : خيمهم - كذا .

هذا بباب أبى ثور، و كانت جملتهم عشرين ألفا من الرجالة و من الخيالة، خمسمائة فارس من القبط و من متنصرة العرب، و خرج بهم فى المراكب، و سار بهم على أرض واحدة، و صفوا صفوفهم، و كان أول من برز شطا ابن الهاموك فقتل رجالا، و جندل أبطالا، لأنه كان قد انشرح صدره للاسلام، و استولى الإيمان على جوارح سره، و اشتاق إلى دار السلام، و قاتل عند ما لاحت[١] الأنوار، و انفتحت أنوار قلبه لمعرفة الجبار، و لم يزل يقاتلهم يومهم[٢] ذلك أجمع إلى أن[٣] جُنّ الليل. فعاد من القتال و قام يصلى، فلم يزل على أقدام الخوف و الوجل[٤]، و هو منكس الرأس من الحياء و الخجل، فلما انتصف الليل و طلع نجم سهيل نام، فلما كان وقت الغلس و قرب الفجر أن[٣] يتنفس استيقظ شطا و هو باكى العين، فقال له أبوه: [٥]يا بنى[٥]! ما وراءك؟ فقال: يا أبت! إنى رأيت مناما أبصرته، و كلاما سمعته فحفظته، فعلى الدنيا السلام! فقال له أبوه: يا بنى! لعل الذى رأيته أضغاث أحلام. فقال: لا و الله يا أبت! بل رأيت فى المنام كأن أبواب السماء قد فتحت، و أنوار الهداية قد سطعت و لمعت، ثم انفتح باب من السماء الثانية، فرأيتها مملوءة بالملائكة ساجدين

(١) زيد فى بن [٧٠ : ب] : له.

(٢) فى بن : يومه.

(٣) سقط من بن.

(٤) فى بن : الرجاء.

(٥-٥) ليس فى بن.

على جباههم، ولا يرفعون رؤوسهم أبدا، وراكعين لا ينصبون ظهورهم أبدا، وقياما من هيبة ربهم لا يقعدون، وبكيا لا تنشف لهم عيون، ثم رأيت كذلك سماء بعد سماء إلى السماء السابعة، ورأيت فى كل سماء أعظم مما رأيت[1] فى الذى يليها[2]، ثم رأيت قبة قد دليت من الزمرد الأخضر، فيها قناديل من الجوهر، فيها سرج بالأنوار تزهر، وفيها أربعون حورا عليهم حلل ما رأيت قط مثلها، ولا أبصرت شكلها، وفى أرجلهن نعال الياقوت الأحمر، يطؤون بها على رفارف السندس الأخضر، ويتقلبن[3] على أسرّة السرور، فصاحت بى إحداهن: يا مفتون بدار الفناء! أما آن لك أن تذكرنا، فقد خلقنا الله لك قبل أن يخلقك ويوجدك، وجعل مهورنا[4] منك الجهاد، [٩٢: ب] فى رضا رب العباد، وقد قرب الميعاد، وتقضّت[5] الأوقات؛ فتيقظ من المنام، وارحل إلى دار السلام، وانظر ما ترى. قال: فنظرت وإذا بقباب معلقات لا يدركها نهاية الحد بعدد النجوم، وقطر الغيوم؛ فى كل قبة مثل ما رأيت. قلت: ما هذا؟ قالت: هـذه قباب قوام الليل، وأرواح الشهداء تأوى إليها، وهذه جنة المأوى خلقت من لؤلؤة

(١) فى بن: رايته.

(٢) فى بن: تليها.

(٣) فى بن: يتلقين.

(٤) فى بن: مهرنا.

(٥) فى بن: انقضت.

بيضاء رطبة، و هى فى قدر الدنيا كذا كذا مرة، ثم تقدمت إلىّ واحدة من الحور العين لو اطلعت إلى الدنيا لأغنت عن الشمس و القمر باشراق وجهها، و هى تقول:

أنت يا مفتون ما تبرح [فى] بحر المنام
فدع اللهو و بادر مثل فعل المستهام
ثم نح و ابك على ما فات بالدمع السجام
أيها اللائم دعنى لست أصغى للملام
إنــى أطلب ملكا نيله صعب المرام
فى جنان الخلد و الفردوس فى دار السلام
و عروس فاقت الشمس مع البدر[1] التمام
طرفها يرشق باللحظ مصيبات السهام
و لها صدغ على الخد كنون تحت لام
أحسن الأقداد قدا فى اعتدال و قوام
مهرها من قام فى الليل ينادى فى الظلام
يا [2]مليكى فى[2] رجاى و اعتمادى و مرامى
فاستمع منى قولى ثم فكر فى نظامى
و غدا بادر إلى الحرب إلى ضرب الحسامى
سوف تأتينا سريعا بعد ترحيل الظلام

قال له أبوه: يا بنى! اعلم أن فى المنام ما يصدق و فيه ما يكذب،

(١) فى الأصل و بن: بدر - كذا و لا يستقيم به الوزن.
(٢-٢) فى بن: مالكى و.

فلا تشغل خاطرك بما رأيت . فقال: لا و الله يا أبت! ما بقى لى فى الدنيا مقام . قال: و لم يزل فى ليلته يبكى و يتضرع إلى أن أصبح الصباح، و أشرق بضيائه ولاح . ودّع شطا أباه[١] و أهله، و خرج إلى الحرب فتعلق به أبوه و قال: يا بنى! بحق عليك لا تبتلينى بفراقك . فقال له شطا: دع عنك العتاب، فقد قرب لقاء[٢] الأحباب . فعندها قامت المآتم[٣]، و انهل الدمع الساجم، و دنا الفراق، و قامت نائحات[٤] الأشواق، و نشرت أجنحة البين، و جرى من كل عين عين، و أقبل الهاموك يودع ولده شطا و قال له: يا بنى! إن صح منامك [٩٣: الف] و ضربت فى جنة المأوى خيامك[٥]، فاذكرنا بحسن طريقة الوفاء، و اقرأ سلامنا على محمد المصطفى، قال: و إن الغلام برز إلى مقام الحرب، و موقف الطعن و الضرب، و دعا إلى البراز . فخرج فارس فقتله، و لم يزل يجاهد فى الله حق جهاده حتى قتل اثنى عشر فارسا . فلما رأى أبو ثور إلى ما[٥] صنع شطا بفرسانه لم يطق الصبر دون أن خرج إليه بنفسه و كان من الفرسان المذكورين[٦] . فلما ساوى شطا فى حومة الميدان

(١) فى الأصل: ابوه، و صحته فى بن .

(٢) فى بن: اللقاء مع .

(٣) فى الأصل و بن: المأتم .

(٤) من بن، و فى الأصل: نايمات ـ كذا بالميم .

(٥) سقط من بن [٧١: الف] .

(٦) فى الأصل و بن: المذكورة .

قال: يا غلام! كيف تركت[1] الملك المقيم، و الدين القويم[2]، و اتبعت دين الإسلام، لقد عمل فيك سحر القوم، و استوجبت العتب و اللوم، يا بني! عد إلى الدين الرجيح، و القول الصحيح، و هو دين المسيح، فأي شيء رأيت في هؤلاء المسلمين حتى اتبعت دينهم؟ فلما سمع[3] كلامه أقبل عليه مغضبا و قال: يا لعين! أ تأمرني أن أدع الدين المستقيم، الذي عليه الخليل و الكليم[4]؟ و أنى لك بذلك و قد رأيت البارحة ما لي من الكرامة عند الله تعالى و قد طلقت الدنيا ثلاثا؟ فلما سمع أبو ثور كلامه حمل عليه و مد سنانه إليه، فالتقاه شطا بقلب قوي، و جنان جريّ، و عزم مضيّ، و حسام مشرفي، و تقاتلا ثلاث ساعات من النهار إلى أن أحس شطا بالعطش، فأراد الله تعالى أن يطيّب قلبه، و يسكّن له، فكشف عن بصره، فرأى القبة التي رآها في منامه، و الحور التي أنشدته[5] الأبيات و في كفها كأس من الجوهر، فيه ماء من نهر الكوثر، و[6] تقول: يا شطا! هذا شراب من شربه [7]لا يظمأ و لا يشقى[7]، و الساعة تصل

(١) في بن: ترك.

(٢) زيد في بن: القديم و عُدت إلى القوم اللئام.

(٣) زيد في بن: شطا.

(٤) يعني موسى.

(٥) في بن: انشدت.

(٦) زيد في بن: هي.

(٧-٧) في الأصل: لا يغني و لا يشقى. و في بن: لا يضمى و لا يشقى. و صحته بلا تحريف: لا يظمى.

إلينا، و تقدم علينا، فلما نظر شطا إلى ذلك صاح: الله أكبر! هذا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون، ثم أخذه البكاء خوفا من الله تعالى، فقال له أبو ثور: ممّ بكاؤك؟ فقال: رأيت كذا و كذا. فضحك أبو ثور من كلامه و حمل عليه، و تقاتلا قتالا[1] أعظم من الأول [2] و أشد[2]، إلا أن أبا ثور سبق الغلام بطعنة فى صدره، أطلع السنان من[3] ظهره، فخر شطا صريعا[4].

فلما نظر الهاموك إلى ولده مجندلا[5] لم يطق الصبر بعد[6] أن حمل هو و أصحابه على أصحاب أبى ثور، و حمل أصحاب أبى[7] ثور عليهم، و أظلمت آفاق تلك الأرض من كثرة الغبار، فوقعت الهزيمة على أصحاب الهاموك إلى أبواب دمياط، و طمع فيهم أبو ثور و من معه، و لا[8] بقى [إلا -[9]] أن يكونوا فى [٩٣: ب] قبضة الأعادى، و إذا قد أشرف[10] عليهم

(١) زيد فى بن: شديدا.

(٢-٢) ليس فى بن.

(٣) زيد فى بن: وراء.

(٤) و فى بن: سريعا. فى الهامش: قتل سيدى شطا.

(٥) فى بر: منجدلا، و الصواب فى بن.

(٦) فى بن: دون.

(٧) فى الأصل: أبو، و صحته فى بن.

(٨) فى بن: ما.

(٩) زيد من بن.

(١٠) فى بن: اقبل.

جيش الأمير عمرو بن العاص ، يقدمهم هلال بن أوس بن صفوان ، فوقع التهليل و التكبير ، و تحامل[1] أصحاب الهاموك و حملوا على أصحاب أبي ثور و قالوا : يا أعداء الله ! جاءكم أهل الصدق و الإيمان ، فايئسوا[2] من أنفسكم و[3] إتلاف[4] مُهَجكم .

و لما نظر هلال بن أوس إلى القتال ، هفّت نفسه إلى مقام المجال ، و حُملت[5] الراية بيده ، و تبعوه أصحابه . و لما نظر أبو ثور إلى ما نزل به من قدوم العرب أيقن بالهلاك فقاتل قتالا شديدا ، فبينما هو في حملاته إذ لقيه يزيد بن عامر فقال له : يا عدو الله ! أما اتّعظت بآيات الله ؟ أما ظهر لك الحق من دين الله ؟ ثم أطبق عليه بحملته ، فأخذه أسيرا[6] ، و وقع الصائح أن أبا ثور قد أسر ، فاستسلم قومه للقضاء ، و أخذ يزيد ابن عامر أبا[7] مينا و أبا[7] نشا و باقي البلاد في الهزيمة ، فقتل من قتل و هزم من هزم و أسر من أسر ، و عزى[8] الصحابة الهاموك في ولده[6] شطا ، فقال : قد احتسبته عند الله تعالى و صبرت لقضائه . فقال له يزيد :

(١) من بن ، و في الأصل : تحاموا - كذا .
(٢) كذا في بن ، و في الأصل : فيأسوا .
(٣) زيد في بن : تيقنوا .
(٤) في الأصل و بن : تلاف - كذا .
(٥) في بن : حمل .
(٦) ليس في بن .
(٧ - ٧) في الأصل : أبو ، و صحته في بن .
(٨) من بن [٧١ : ب] ، و في الأصل : عزوا .

اعلم أن فى الجنة درجا لا يصل إليه إلا الصابرون ، قال الله تعالى « و بشر الصابرين ۞ الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله و انا اليه رٰجعون ۞ اولٰئك عليهم صلوٰت من ربهم و رحمة و أولٰئك هم المهتدون ۞[1] . ثم إنهم دفنوا شطا فى ثيابه موضع أن قتل . فلما كان فى[2] الغد أقبل الهاموك إلى خيمة يزيد بن عامر فقال: رأيت البارحة ولدى شطا فى النوم و هو فى القبة و الحور بين يديه فقلت له: ما فعل الله بك ؟ فقال: قبلنى بأحسن قبول ، و أنزلنى فى جوار الرسول ، و قنع باليسير من أمرى ، و غفر لكل من يزور قبرى . و كانت قتلة شطا فى ليلة النصف من شعبان ، فجعل الله تلك الليلة موسما لزيارته ، و ذلك أنه لا يبقى أحد من أقصى بلاد مصر إلا قدم تلك الليلة[3] لزيارته من حين قتل إلى الآن[4] .

و إن هلالا[5] أحضر أبا[6] ثور بين يديه و أعرض عليه الإسلام فأسلم ، و كذلك الأسرى ، منهم من أسلم و منهم من بقى على دينه ، فأقرهم على أداء الجزية من عامهم المقبل ، ثم دخلوا فى المراكب إلى تنيس ، و بنوا الجامع موضع كنيستهم العظمى ، و كذلك فعلوا فى جميع الجزائر . و أخرج أبو ثور من ماله و مال قومه الخُمس ، بعثوا به إلى

---

(١) قرآن كريم ٢ : ١٥٥ - ١٥٧ .
(٢) فى بن : من .
(٣) سقط من بن .
(٤) انظر مثلا رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦٥ .
(٥) فى الأصل و بن : هلال - كذا .
(٦) من بن ، وفى الأصل : أبو .

عمرو بن العاص رضى الله عنه .

ذكر السبب الذى [٩٤ : الف] حمل صاحب قبرس على غزوة الإسكندرية وغير ذلك من الواردات المستردات[1]

وذلك أن الله سبحانه إذا أراد أمرا وقدر تقديرا قدم على ذلك المقدر المقضى أسبابا توصل[2] إلى ذلك المحتوم المقدور . ألا ترى أن الله سبحانه لما قضى أن الإفرنج تظفر بالإسكندرية كيف قدم على ذلك المقدر المقضى[3] أسبابا سبعة[4] :

الأول أن السلطان[5] الصالح [6]صلاح الدين صالح[6] بن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور[7] قلاون سلطان الديار المصرية والشامية وغيرهما منع[8]

(١-١) هذا العنوان وارد بالهامش أيضا على الورقة ٩٤ : الف . وفى بن [٧١ : ب] : الواردات المستطرفات .

(٢) فى الأصل : يتوصل ، وهى كذا فى بن أيضا .

(٣) ليس فى بن .

(٤) فى الهامش : السبب الأول ، مانعة السلطان الصالح .

(٥) زيد فى بن : الملك .

(٦-٦) فى الأصل و بن : صالح .

(٧) من بن ، وفى الأصل : الناصر .

(٨) المراسيم الخاصة بمنع النصارى من العمل فى الدواوين كانت كثيرة الوقوع فى القرن المملوكى خاصة ، ويلحق بها أحيانا القيود الخاصة بملابسهم . انظر مثلا فيما يتعلق بهذا المرسوم ابن إياس ج ١ ص ٢٠١ تحت سنة ٧٥٤ هـ وانظر كذلك ما بعد من هذا الكتاب ١١٦ : الف و ٢٢٩ : الف وكذلك ٢٣٥ : الف فى حكم هذا السلطان ٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤ م .

دواوين النصارى[1] فى سنة خمس و خمسين و سبعمائة من الدينونة[2] ، و أن أحدا منهم لا يكتب بديوان إلا أن أسلم ، و من بقى على نصرانيته يلبس خشن الثياب و أن تقصر أكمامهم و أذيالهم ، و تصغر عمائمهم[3] ، و يركبون الحُمُر على شق واحد ، و كذلك سائر النصارى الذميين ، فامتثل ذلك[4] ، و كان فعل السلطان ذلك بهم عزة و نصرة لدين الإسلام ، و أن تكون سائر الدواوين [5]فى دولة[5] المسلمين لا الكافرين[6] ، فكان كما قال بعضهم :

ناصر دين الله فى صالح ... وصالح[7] فى صالح[7] فى المآب
و صالح القلب إذا ما بدا ... يصلح للعزة و الاعتصاب

و قال أحمد بن المكرم الموقع بديوان الإنشاء فيمن أسلم منهم و صار على دينونته[8] :

يا[9] أيها السلطان لا تغترر ... [10]بخدعة القبط[10] و ما تمموا
أمرت أن لا يخدموا ذمة ... فأسلموا خيفة أن يحرموا[11]

(١) زيد فى بن : الذميين .
(٢) فى الأصل و بن : الديونة .
(٣) زيد فى بن : الزرق .
(٤) زيد فى بن : و صارت النصارى فى ذل و خزى .
(٥ – ٥) ليس فى بن ، و فى الأصل : دولته .
(٦) فى الأصل و بن : مسلمين لا كافرين .
(٧–٧) ليس فى بن .
(٨) فى الأصل و بن : ديونته .
(٩) ليس فى بن .
(١٠ – ١٠) فى بن : بخدمة .
(١١) فى بن : لايحرموا .

خافوا على الرزق و لو أنهم   خافوا على دينهم صمموا
فخـذ جواليهم و جنيهم   و الله ما فى جمعهم مسلم

و قد قلت فيما فعل السلطان الصالح [1] بالنصارى و اليهود الذميين [1] أبياتا و هى :

ملك الزمان الصالح بن محمد   الناصر بن قلاون المنصور
أذللت دين الكفر ثم قهرته   و جعلته فى ذلة و ثبور
ليسوا على دين المسيح لأنهم   قد بدلوه بكفر كل كفور
سمعوا مقالة بولص فاسترجعوا   عن دين عيسى و انثنوا بغرور
ضلوا ضلالا لاستماع حديثه   ألقاهمُ فى التيه و التحيير
إن اليهودى بولص أغواهم   لما تنصّر و هو غير نصير
[٩٤:ب]فأضلهم عن دين عيسى فاغتدوا   فى زىّ ثيران و زىّ حمير
كفروا بما جاء المسيح و بدّلوا   فاستوجبوا لعنا على التغيير
فجزاؤهم تنكيلهم بعمائم   زرق و ذيل للثياب قصير
و ركوبهم من جنب شق واحد   لحميرهم و الذيل فى تشمير

رُوى [2] أن أمير المؤمنين جعفر المتوكل أقصى اليهود و النصارى و لم يستعملهم و أذلهم ، و خالف بين زيهم و زى المسلمين ، و جعل أثوابهم مثالا للشياطين ؛ و كان عمر بن الخطاب [3] رضى الله عنه يقول : لا تستعملوا اليهود و النصارى ، فانهم أهل رشى فى دينهم و لا يحل الرشا . و سيأتى

(١) لبس فى بن [٧٢ : الف] .
(٢) فى بن أصل الرواية كالآتى : قال ابو بكر الطرطوسى فى كتاب سراج الملوك له : إن أمير المؤمنين ـ الخ .
(٣) فى الهامش : قول الإمام عمر .

فيما

فيما يرد من هذا الكتاب[١] خبر بولص اليهودى[٢] المتنصّر و إضلاله للنصارى، و ذكر الدواوين[٣] و ما قيل فيهم إن شاء الله تعالى.

ثم[٤] أمر السلطان[٤] أن يُفعَل باليهود كما فعل بالنصارى[٥] إن بقوا على يهوديتهم[٥] من تصغير العمائم[٦]، و تقصير الثياب، و أن تتأزر[٧] نسوان[٨] النصارى بالأزر[٩] الزرق، و نسوان[٨] اليهود بالأزر[٩] الصفر، ليتميزوا من نسوان[٨] المسلمين بذلك، فعبأت[١٠] باليهود و النصارى عوام المسلمين، [و-[١١]] صاروا يرمونهم من أعلى الحُجَر بوكزهم لهم، ويستسلمونهم[١٢]

---

(١) زيد فى بن: ما قيل فى الرشى و فى ذم الرشى و.

(٢) انظر فى النص ٩: الف، ٢٥: ب، ٩٤: الف - ب. و يلاحظ أن المؤلف يرجىء الكلام فى هذا الموضوع على الدوام إلى ما بعد.

(٣) كما حدث فى ٩٩: ب يرجىء المؤلف الكلام فى هذا الموضوع، و لا يعالجه فيما بعد.

(٤-٤) فى بن: ان السلطان الملك الصالح امر.

(٥-٥) ليست فى بن.

(٦) زيد فى بن: الصفر.

(٧) فى الأصل و بن: تتيزر.

(٨) فى بن: نساء.

(٩) فى الأصل: بالايزر، و فى بن: باليز.

(١٠) فى الاصل: فتعبئت، و فى بن: فتعبت - كذا.

(١١) زيد من بن.

(١٢) فى بن: استسلامهم لهم.

بالضرب و الإهانة ، و يتسببون[1] فى كتب الحجج عليهم باسلامهم ، فعلوا ذلك بمصر و القاهرة و الإسكندرية ، فصارت الإفرنج بالإسكندرية لما رأوا عوام المسلمين فعلوا بالنصارى الذميين ما فعلوه[2] من استسلامهم لهم بالضرب و الإهانة ، خافوا [3]لئلا يرتدوا عن الإسلام إذا سافروا[3]، فصاروا يرفعون بضائعهم و أثاثهم إلى المراكب بسرعة ، و سافروا [و–[4]] أخبروا نصارى الرومانية بما فعله[5] المسلمون بأهل النصرانية[6]. فكان ذلك و الله أعلم سببا لهيجان القبرسى و طوافه بأرض الرومانية ، و جمعه للصوص[7] أهل [8]المعمورية ، و حشره بهم إلى الإسكندرية . و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب خبر طوافه و جمعه لزعران النصارى و مساعدة ملوكها له حتى ظفر بالإسكندرية على حين غفلة من جيوش الديار المصرية إن شاء الله تعالى .

السبب الثانى[9] ، كما قيل و الله أعلم – أن [10] بطرس صاحب

---

(١) فى بن : يسببهم .

(٢) فى بن : فعلوا .

(٣–٣) فى بن: منهم ان يستسلـ. . . لامهم لهم من السفر إلى بلادهم ارض الكفر .

(٤) زيد من بن .

(٥) فى الأصل و بن : فعلته .

(٦) فى بن : النصارى .

(٧) فى بن : اللصوص .

(٨) زيد فى الأصل و بن : ماء .

(٩) فى الهامش : السبب الثانى .

(١٠) زيد فى بن : ريير .

قبرس [١] لعنه الله [١] لما ولى الملك بعد هلاك أبيه ريوك أرسل إلى السلطان الملك الناصر حسن [٢] يسأله أن يرسم له بالتوجه إلى بلد صور بساحل الشام ليجلس على عمود بها [٣] كعادة كل [٣] من تملك جزيرة [٤] قبرس، [٩٥: الف] لأنه لا يتم له ملكها بزعمهم إلا بالجلوس [٥] على ذلك العمود أو مكان مختص [٦] بجلوس الملك فيه ليتم له بذلك الملك، و يصح له نفاذ حكمه فى رعيته، فاحتقره السلطان و منعه الدخول إلى بلد صور، فكان ذلك - و الله أعلم - سببا لغزوة الإسكندرية .

السبب الثالث [٧]، إنه أتى إلى مينا [٨] الإسكندرية فى شوال سنة خمس و خمسين [٩] غراب [١٠] فيه كراسلة [١١] أى لصوص [١٢] بحر [١٣] من الإفرنج

(١ - ١) ليست فى بن .

(٢) زيد فى بن : ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

(٣ - ٣) فى بن : بجارى عادة .

(٤) فى بن : بجزيرة .

(٥) ورد ذكر هذا التقليد أيضا فى القلقشندى (صبح الأعشى) ج ٤ ص ١٥٣ و لم نعثر عليه فى غير هذين الكتابين .

(٦) فى الأصل و بن : مكانا مختصا .

(٧) فى الهامش أيضا : السبب الثالث .

(٨) فى الأصل : مينة - كذا، و ليس فى بن .

(٩) زيد فى بن : و سبعمائة .

(١٠) فى الأصل و بن : غرابا - كذا .

(١١) ذكر فى « ألف ليلة و ليلة » (انظر مثلا طبعة برسلاو ج ١٠ ص ٣٣٢ =

تشوش ميناها[١] ، و يخطف ما تقدر على خطفه ، فصار الغراب المذكور يدور[٢] من مينا[٣] الإسكندرية الغربية إلى ميناها[١] الشرقية ، فرأى مراكب[٤] أتت[٥] من جهة الميناء[٦] الغربية ، قدمت إلى الإسكندرية من بر التركية ، فيها تجار المسلمين بمتاجرهم ، فهاجمها الغراب المذكور و حاربها ، فحاربته[٧] و قاتلته ، فلم يقدر عليها[٨] لعلو سمكها[٩] ، و خروج رماة المسلمين فى القوارب[١٠] ،

= ليلة ٨٤٩) أن « الكراسلة » هم قطاع الطرق ، و الكلمة من أصل لاتينى متأخر Cursarius و تناقلها الكتّاب البيزنطيون المعاصرون أمثال ماخيراس Makhairas فى تاريخ جزيرة قبرس ، و يعادلها بالفرنسية Corsaire أو Coursaire وفى رسالة بطرس دانجيرا Pierre Martyr d' Anghiera ورقة ٧١ : ب وردت Corsali بقلب الراء الأخيرة لاما كالعربية (١٢) فى بن : لصوصا (١٣) ليس فى بن .

(١) فى الأصل و بن : مينتها .

(٢) فى بن : يسير .

(٣) فى الأصل و بن : مينة .

(٤) فى الأصل و بن : مركبا .

(٥) فى بن : أتى .

(٦) فى الأصل و بن : المينة .

(٧) فى بن : و حاربته القوم الذين فيه .

(٨) فى بن : على المركب .

(٩) فى بن : سمكه .

(١٠) جمع قارب و هو فى الملاحة بالقرن الرابع عشر عبارة عن مركب صغير ملحق بسفينة كبيرة ترسو على بعد من الشاطئ لنقل الركاب إليها مثل ما ورد =

من



من الساحل [1] لحمايتها منه ، رموا عليه سهامهم بقسى الجرخ التى معهم فسلمت منه ، و دخلت بحر السلسلة أرست بشاطئه بالقرب [1] من الباب الأخضر [2] ، فصار الغراب المذكور يجول يمينا و شمالا . فأرسل إليه [3] الأمير سيف بلاط نائب السلطان [4] بالإسكندرية باشارة تاج الدين موسى [5] ابن الخازن [و] قناصلة [6] الفرنج المقيمين بها يستخبرونه عن أمره ، و ما سبب جولانه فى الميناءين [7] ، فرجعوا فى القارب الذى ركبوه إليهم ، [8] أخبروهما عنهم [8] أنهم يريدون ما يأكلون و يشربون و يرتحلون ، فأرسلا [9] لهم مأكولا و قرب ماء ، فأخذوا القرب بمائها و كانت نحو الخمسين قربة ،

= فيما بعد (انظر ٩٩ : الف ، ١٨٥ : ألف) . و قد يكون القارب تابعا للسفن الحربية الكبرى فى تلك الموانى . راجع أيضا ١٢٤ : الف ـ ب عن استعمال تلك القوارب للأغراض الحربية فى الفصل المتعلق بالملاحة .

(١ ـ ١) فى بن : لحماية المسلمين و رموهم . . . فسلمت (كذا) المسلمون و دخلوا بحر السلسلة و أرسلوا بالقرب .

(٢) انظر فى هذا النص ٢٧ : الف ، ٢٧ : ب .

(٣) ليس فى بن .

(٤) فى بن : السلطنة .

(٥) لم نعثر حتى الآن فى الأصول المعروفة لهذا العصر على ما يساعدنا فى تحقيق هاتين الشخصيتين . و الأمير سيف وارد فى بن باسم سيف الدين .

(٦) فى الأصل : قناصلة ـ بدون واو العطف . و فى بن : ناظرها إذ ذاك قناصلة .

(٧) فى الأصل و بن : الميتين .

(٨ ـ ٨) فى بن : و اخبروا .

(٩) فى بن : فأرسل .

و كان المأكول خبزا و رمانا و موزا و سمكا و غير ذلك ، ثم إنهم[1] نظروا مراكب[2] قدمت من الشام ، فوثبوا عليها و[3] أخذوها [4] بما فيها من البضائع[4] ، و رموا رجالها بمينا[5] بوقير[6] [7] و مضوا بها[7] ، و لم يراعوا حق الإحسان بما طعموا و سقوا ، فكانوا كما قيل :

٥ إن العدو و إن أبدى مسالمة إذا رأى فيك يوما فرصة وثبا

و سيأتي فيما يرد من هذا الكتاب خبر زورق المغاربة الذي أخذته الفرنج[8] القبارسة من مينا[9] الإسكندرية بوسقه ، و المركب الذي[10] أخذته[11] الفرنج أيضا من خارج ميناها[12] في تواريخها[13] إن شاء الله تعالى . و لما بلغ

(١) ليس في بن .
(٢) في الأصل و بن : مركبا .
(٣) مطموس في بن .
(٤ - ٤) في بن : ببضائعها .
(٥) في الأصل و بن : بمينة .
(٦) انظر ايضا « بوقير » في ٩٥ : ب ، ٩٦ : الف - ب ، ١٠١ ب ، ١٠٩ : الف ، ١٧٩ : الف .
(٧ - ٧) ليست في بن
(٨) ليس في بن . وعالج المؤلف هذا الموضوع في أمكنة متعددة مثل ٧٤ : الف - ب ، ٩٧ : الف - ب ، ٩٨ : الف - ب ، ١٩٤ : ب من بر و كذلك في ٢٦ : ب ، ٢٧ : الف من ق تحت عنوان « ذكر ما جاء عند لقاء العدو » .
(٩) في الأصل و بن : مينة .
(١٠) في بن : التي .
(١١) في بن : اخذتها كراسلة .
(١٢) في الأصل و بن : مينتها .
(١٣) في بن : تواريخها .

السلطان الملك الناصر حسن خبر الغراب المذكور عزّ عليه ما فعل معه من[1] المأكول و المشروب ، و قال : العـــدو ينبغى [2]جوعه و عطشه[3] ، فكيف يُطعَم [٩٥ : ب] و يسقى ليقوى على أذى المسلمين . ثم إنه أرسل الأمـــير سيف الدين بكتمر[3] الشهير بالوشاقى إلى الإسكندرية كاشفا ، فحضر و نزل بدار العدل[4] المجاورة لبيت المـال ، و [5]هو الذى[5] كان بناها أيام ولايته بها ، فكشف عن الخبر و جرت أمور يطول شرحها . ثم إن صاحب قبرس أتاه خبر الغراب المذكور و ما فعله بميناءى[6] الإسكندرية مع ما أُطعم و سُقى و لم يخرج له أحد حاربه و لا قاتله ، طمع[7] فيها فكان فعل الغراب المذكور كما قال الشاعر :

أمور تضحك السفهاء منها و يخشى[8] من عواقبها اللبيب

فاستجاش القبرسى الجيوش من أرض الرومانية بعد ظفره بمدينة أنطاكيا

---

(١) زيد فى بن : ارسال .

(٢-٣) فى بن : اجاعته و تعطيشه .

(٣) لم نعثر على ذكر اسم هذا الأمير فى الأصول المعاصرة المعروفة . و ورد فى بن : باسم الأمير سيف الدين بكتمر المؤمنى .

(٤) راجع فيما يتعلق بدار العدل وغيرها من دور الدولة ٥٠١ : ب ـ و دار العدل كانت موجودة فى حكم بيبرس حيث جلس فيها سنة ٦٦١هـ . انظر :
Quatrme're: Sultans Mamlouks, I.A.P. 221

(٥-٥) فى بن : هى التى . و العبارة من هنا إلى « بها » مطموسة فى بن .

(٦) فى الأصل و بن : بميتى .

(٧) فى بن [٧٣ : الف] : فطمع .

(٨) من بن ، و فى الأصل : و يختشى .

ببئر التركية ، و توجه بتلك الجيوش النصرانية نحو الإسكندرية ، و الطلب على قدر[1] عزة المطلوب ، فبذل الروح و المال فى ركوب المشقة ، لينال وصل المحبوب كما قال الشاعر :

و كل نفيس القدر مطلبه[1] وعر   و من خطب[2] الحسناء لم يغله المهر[3]

ثم إنه[4] هان عليه سفك دمه بعد الجروح ، فبذل مهجته و الروح و لسان حاله يقول :

تريدين إدراك المعالى رخيصة   و لا بد دون الشهد من إبر النحل

فلما تحمل الملعون المشقة ، و أبذل فى كلاب النصارى النفقة ، و لم يجد بالإسكندرية أحدا من جيش الحلقة ؛ دق فيها بجيشه[1] دقة ، أكل اللحم و شرب المرقة[5] ، كما سيأتى ذكره مفصلا إن شاء الله تعالى . فافتخر الملعون

---

(١) ليس فى بن .

(٢) من بن ، وفى الأصل : طلب .

(٣) زيد فى بن : و كما قال أبو فارس :

ونحن أناس لا توسط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى الأمور نفوسنا   ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

(٤) فى بن : ان القبرسى .

(٥) كانت تلك الحملات كثيرة الوقوع فى ذلك العصر حتى أنّ صداها ظهر فى كتب الأدب المعاصرة لها ، مثال ذلك ما جاء فى « كتاب ألف ليلة و ليلة » انظر طبعة اليسوعية ببيروت ١٩٥٦ – الخ ، ج ٦ ص ٣٢٨ ليلة ٨٨٦ حكاية على نور الدين المصرى مع مريم الزنارية – وكذلك « سيرة بيبرس » (طبعة سنة ١٣٢٦ هـ) ج ١٢ ص ٥٥ ، ج ١٩ ص ٦٢ ، ج ٢٩ ص ١ .

بظفره

بظفره بالإسكندرية بين ملوك النصرانية و لسان الحال يقول :

يا ذا الذى يفخر بين الورى لما جرت فتنته[1] الفاتكة
إن كنت نلت[2] الفخر فيما جرى قد كان إبليس من الناسكة
شاركته فى شره دائما وَيْحكما[3] من شركة هاتكة

السبب الرابع[4] ، [5]أن غرابا هجم على الجزيرة المقابلة لرشيد[6] ، و[7] أخذ منها من المسلمين خمسة و عشرين نفرا ما بين رجال و نساء ، و صادف أحد الفرنج بتلك[8] الجزيرة بقرة يتبعها عجلها ، فضرب الفرنجى العجل [9]بسيفه قطعه[9] نصفين ، فلما رأت البقرة ما فعل الملعون بابنها هجمت عليه ، [10]نطحته بقرونها ، ألقته بالأرض صريعا[10] ، و صارت تتابع

(١) من بن ، و فى الأصل : فتنه .

(٢) ليس فى بن .

(٣) فى بن : يا ويحها .

(٤) فى الهامش : السبب الرابع .

(٥) زيد فى بن : و هو .

(٦) فى بن : لبلد رشيد . لعله يقصد الأراضى المحاذية للشاطىء الشرقى لفرع رشيد ، و لا زالت الأرض الزراعية الواقعة على ضفة النيل تدعى بأرض الجزائر لخصبها و وجودها بين الخلجان المتفرعة من النيل .

(٧) ليس فى الأصل و بن كليهما .

(٨) فى بن : تلك .

(٩-٩) فى بن : بسيف فانقد .

(١٠-١٠) فى بن : فنطحته فألقته الأرض . و فى الأصل : سريعا - مكان : صريعا .

عليه النطح حتى قتلته ، فأخذت بثأر ولدها . [٩٦ : الف] و كان خلفها خُصّ[١] من القصب فيه ثمانية من الرعاة ليس بأيديهم غير عصيهم ، فقصدتهم جماعة من الفرنج ليستأسروهم ، فصارت البقرة تهجم فيهم[٢] ، و تنفرهم عنهم إلى أن أدركهم[٣] المسلمون بالأسلحة القاطعة و الجواشن المانعة ، فهربت الفرنج عند رؤيتهم لهم ، فكانت تلك البقرة سبب سلامة الذين كانوا بالخص المذكور . ثم إن المسلمين لما رأوا الفرنجي مطروحا[٤] بالأرض قتيلا[٥] متضمخا[٦] بدمائه و ولد البقرة [٧]مقسوما شطرين[٧] سألوهم عنها[٨] ، فأخبروهم بفعل البقرة بالإفرنجي حين قتله لولدها ، و سلامتهم من الأسر بسببها ، فأخذ صاحب البقرة سلب الفرنجي و قال[٩] : غنيمة بقرتي ، فقد جاء في الحديث : من قتل قتيلا فله سلبه[١٠] ؛ و البقرة ملكي ، و قد جاء في الخبر : أنت و مالك لسيدك .

---

(١) في الأصل و بن : خصا .

(٢) في بن : عليهم .

(٣) في الأصل و بن : ادركتهم .

(٤) في بن : مطروح .

(٥) مطموس في بن .

(٦) في بن : مضمخ .

(٧-٧) في بن : مقطوع نصفين .

(٨) في بن : عنهما .

(٩) زيد في بن : هذا .

(١٠) انظر أيضا خبر اليماني ٨٧ : ب ، و راجع صحيح البخاري خمس ١٨ مغازي ٥٤ و صحيح مسلم جهاد ٤٢ .

و سأذكر ما جاء في الحديث من أن السلب للقاتل إن شاء الله تعالى . في الصحيح من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في قصة قتل أبي جهل - و في آخره : فابتدراه فضرباه بسيفهما حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فقال : أيكما قتله؟ قال كل واحد منهما : أنا قتلته . و قال : هل مسحتما سيفكما ؟ فقالا : لا . فنظر في السيفين فقال : كلاكما قتله ، و قضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح و معاذ بن عفراء و هما اللذان قتلاه . و في الصحيح أيضا حديث سلمة[1] بن الأكوع ، و أنه أدرك رجلا من المشركين ، قال : ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته ، فلما وضع ركبتيه في الأرض اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فندر ، ثم جئت بالجمل أقوده ، عليه رحله [2]و سلاحه[2] ، فاستقبلني رسول الله صلى الله عليه و سلم و الناس معه ، فقالوا : من قتل الرجل؟ قالوا : ابن الأكوع . فقال النبي صلى الله عليه و سلم : له سلبه[3] أجمع - انتهى .

نعود ، ثم إن الفرنجي قتيل البقرة صُلب و رُجم ، و صارت الناس تأتي لينظروه[4] ، و يقولون[5] : هذا قتيل البقرة . هكذا أخبرني بذلك رجل

(١) في الأصل و بن : مسلمة - كذا ، و التصحيح من تهذيب التهذيب ٤/١٤١ و ١٥٠ .

(٢ - ٢) ليس في بن .

(٣) في بن : سلب .

(٤) في الأصل : لتنظره ، و في بن : لتنظر و ترجمه .

(٥) في بن : تقولون .

من أهل[1] رشيد – و الله أعلم . ثم إن القبرسى لما بلغه خبر الغراب و ما فعله بجزيرة رشيد من أخذه الأسارى منهـا ، فطمع فى الإسكندرية و عمل عليها حتى ظفر بها .

السبب الخامس[2] ،[3] أن ثلاثة أغربة[4] أتوا إلى مينا[5] بوقير وقت الفجر سابع عشرين شعبـان سنة أربع و ستين و سبعمائة ، أخذوا من قصور البساتين ستة و ستين[6] نفرا من المسلمين ما بين رجال [٩٦:ب] و نساء [7]و صبيان[7] و أثـاث ، و مضوا بهم إلى ساحل صيدا بالشام : افتداهم[8] منهم المسلمون ، و رجع[9] الجميع إلى أوطانهم ببوقير . و بوقير أرض بها بساتين و قصور ، و هى شرقى ظاهر الإسكندرية على ساحل البحر الملح[10] ، فذكرت الأسارى[11] أن عدة الفرنج أصحاب الغربان الثلاثة

(١) زيد فى بن : بلد .

(٢) فى الهامش : السبب الخامس .

(٣) زيد فى بن : و هو .

(٤) زيد فى بن : الليل . . . .

(٥) فى الأصل و بن : مينة .

(٦) فى بن (٧٣ : ب) : سبعين .

(٧–٧) ليس فى بن .

(٨) فى الأصل و بن : افتدتهم .

(٩) فى الأصل : رجعوا ، و فى بن : ردوا .

(١٠) زيد فى بن : يقيم بها الغيطية بنسائهم و أولادهم لإصلاح البساتين و كذلك صيادين (كذا) الأسماك و يقيم (كذا) لأجل صيد السمك فى الليل بجوالقهم =

مائة نفس من جملة سيوفهم سيوف خشب مطليّة بالقزدير الأبيض يوهمون[1] بها لعدم قدرتهم على ثمن[2] سيوف يشترونها . لكن لما أخذوا فداء المسلمين[2] المأسورين بصيدا[3] صار لهم بذلك السيوف و السلاح ، فالله تعالى يخذلهم[4] و يلعنهم و يخزيهم[4] ، فلو كان للمسلمين حين أتوا إلى بوقير غراب واحد معمّر بالرجال و السلاح أخذهم سرعة . فلما بلغ القبرسى فعلهم ذلك ببوقير و لم يجرد أحد[5] [4]من أهلها[4] فى وجوههم سيفا واحدا[6] طمع فى الإسكندرية[7] .

السبب السادس[8] ، إنه أتى إلى جهة بوقير ستة[9] غربان جروا فى البحر ليلا جريا مقسودا لعدم جاسوسهم الذى يكون فى البر يقد لهم نارا فى الليل يقصدون جهتها ، فسمع[10] الصيادون الذين يصيدون السمك

= فى قواربهم (١١) زيد فى بن : القادمين إلى منازلهم .

(١) فى الأصل و بن : يوهموا .

(٢) ليس فى بن .

(٣) زيد فى بن : من ساحل الشام .

(٤ - ٤) ليس فى بن .

(٥) من بن ، و فى الأصل : أحدا .

(٦) من بن ، و فى الأصل : سيف واحد .

(٧) زيد فى بن : فأتاها و ظفر بها .

(٨) فى الهامش : السبب السادس .

(٩) فى الأصل و بن : ست .

(١٠) فى الأصل : فسمعت ، و فى بن : فسمعته .

فى الليل داخل البحر فى قواربهم[1] حس[2] جذف تلك الغربان، فأخذوا حذرهم منهم، فمضت الغربان بجريهم[3] المقسود إلى بلد رشيد، وكان جريهم أولا بقلاعهم وجذفهم لبوقير، فلما انفسد بهم الجرى إلى رشيد نزل[4] جماعة [5] كبيرة من الفرنج[5] من ثلاثة أغربة إليها،
٥ ففطن[6] بهم المسلمون، فأتوهم بكثرة عَدَدهم وعُدَدهم، فهربت الفرنج منهم طالبين غرابا من الثلاثة، فسبقهم أحمد الجدّاوى المعروف بالباشق إلى إسقالة[7] الغراب[8] رماها فى[9] البحر، فترامت الفرنج فى[10] البحر ليعوموا

(١) زيد فى بن: الليل ....

(٢) فى بن: حين .

(٣) فى بن: بجريها .

(٤) زيد فى بن: منهم .

(٥ - ٥) فى بن: كثيرة .

(٦) فى الأصل و بن: ففطنت .

(٧) اسقالة أو اسكالة من أصل لاتينى scala و بالفرنسية e'chelle (راجع ٦١: الف) وهى عبارة عن قنطرة خشبية متحركة داخل الأديرة موصلة بين صحن الدير و مدخل الحصن أو القلعة التى تتوسطه، و فيها تحفظ المؤن أحيانا كما أنها تستعمل عند ما يقتحم العدو حيطان الدير الخارجية و أبوابه. وهى هنا القنطرة الخشبية المتحركة التى تصل المراكب بالساحل .

(٨) زيد فى بن: عند تبريز .

(٩) فى بن: الى .

(١٠) «فى» ناقصة فى الأصل و بن .

إلى الغراب[١] عند تبريز الغراب بمن بقى فيه داخل البحر[١] خوفا من سهام المسلمين ، فلما ألقى[٢] الفرنج أرواحهم[٣] فى البحر من شدة الخوف من المسلمين[٤] الذين أتوهم يهرعون غرقوا[٥] كلهم لثقل الحديد الذى عليهم منعهم [من –[٦]] العوم[٧] إلى الغراب المذكور[٤] ، فقذفهم البحر بعد أيام إلى الساحل ، فكان عدتهم ثمانون رجلا ، فأخذ[٨] أهل رشيد سلبهم و أحرقوهم بالنار[٤] .

السبب السابع[٩] ، ما فعله[١٠] عوام المسلمين بالإسكندرية بقتلهم بها للفرنج[١١] البنادقة[١٢] فلما همّ القبرسى بالعمارة على الإسكندرية ، أعانته البنادقة بسبب قتل المسلمين لأصحابهم بالإسكندرية . و سأذكر فيما يرد من هذا

(١ – ١) ليست فى بن .

(٢) فى الأصل و بن : القوا .

(٣) فى بن : أنفسهم .

(٤) ليس فى بن .

(٥) فى بن : فغرقوا .

(٦) « من » ناقصة فى الأصل و بن .

(٧) زيد فى بن : و الوصول .

(٨) فى الأصل : فأخذوا ، و التصحيح من بن .

(٩) فى الهامش : السبب السابع .

(١٠) فى الأصل و بن : فعلته .

(١١) فى بن [٧٤ : الف] : الفرنج .

(١٢) من بن ، و فى الأصل : للبنادقة .

[٩٧ : الف] الكتاب سبب قتل المسلمين لهم فى موضعه المستحق له إن شاء الله تعالى .

ثم إن القبرسى لما قصد غزو الإسكندرية استنجد بملوك النصارى باشارة الباب[1] [2] لهم فى ذلك[2] ، و الباب هو بتفخيم الباء الأولى[3] ، و هو الذى تنقاد النصارى به ، و يزعمون أنه من ذرية الحواريين ، و عنده الصليب الأكبر الذى إذا أبرزه للغزو لم يبق ملك من ملوك النصارى إلا أتى بجيشه نحوه ، فاذا خرج الباب بصليبه ذلك ارتجّت له بلاد النصرانية ، فيظفر بتلك الجيوش القوية على مملكة من خالفه من ملوك الرومانية .

فلما أعانت ملوك النصارى صاحب قبرس بالمال و الرجال و الغربان باشارة الباب لهم فى ذلك ، تعمّرت المراكب له على ما قيل برودس لأنها دار صناعة[4] الفرنج ، فكانت عمارتها على ما قيل فى [5] أربع سنين و ذلك فى مدة طوافه على الملوك . فلما رجع إلى[6] قبرس وجدهم تهيأوا

---

(١) أى البابا papa باللاتينية و اليونانية و يقابلها pape بالفرنسية ، pope بالإنجليزية . (٢–٢) ليست فى بن .

(٣) انظر أيضا ٦١ : الف ، و كذلك « الروض المعطار » ص ٤٣ : رومة . . . . عظيمها و صاحب الدين بها و هو الذى يسمونه البابة .

(٤) راجع ما بعد فيما يتعلق بدار الصناعة أو عمارة الأسطول المصرى بالإسكندرية ١٠٦ : الف ، ١٠٩ : ب ، ١٥٠ : ب ، ١٨٧ : الف . و كذلك عن الريّس أو قائد الأسطول إبراهيم التازى ١٥٠ : ب . و على وجه أخص المجلد الثانى من « ق » .

(٥) زيد فى بن : مدة .

(٦) فى بن : على .

له

له ، فجمع ما جاء به على[١] ما عُمّر له ، و توجّه[٢] إلى الإسكندرية .

و كانت الأخبار تأتى إلى[٣] الإسكندرية بأن العمارة عند القبرسى ، فاستهمّ نائب السلطان بها[٣] ، و هو الأمير زين الدين خالد ، فرفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر ، و صار يجتهد فى العمارة ، و يرسل يطلب من الأمير يلبغا الخاسكى مقـدم الجيوش المنصورة الإعانة على عمارة السور ، و يعلمه بخبر عمارة القبرسى للمراكب الحربية ، فيقول إن القبرسى أقل و أذل من أن يأتى إلى الإسكندرية ، و ما علم يلبغا أن شرارة أحرقت الجلمود ، و بعوضة أهلكت النمرود ، و دود لمة قتلت فيلا ، و برغوثا أسهر ملكا جليلا ، قال الشاعر[٤] :

لمن اشتكى البرغوث يا صاح إنه　　أراق دمى عمدا و أرّق[٥] أجفانى
إذا هو آذانى صبرت و إننى　　سيجرح[٦] عقلى حين يدخل آذانى

ثم غفل أيضا يلبغا عن قول الشاعر حيث يقول :

لا يستخفن الفتى بعـدوه　　يوما و إن كان العدو ضئيلا
إن القذى يؤذى العيون قليله　　و لربما قتل البعوض الفيلا

(١) فى بن : مع .

(٢) زيد فى بن : بهم .

(٣) ليس فى بن .

(٤) زيد فى بن : فى اذى البرغوث .

(٥) فى بن : اراق .

(٦) فى بن : سيخرج .

و غفل[1] أيضا عن قول الآخر :

لا تحقرنّ صغيرا فى مخاصمة   إن الذبابة أدمت مقلة[2] الأسد
كذا الشرارة لا يعبا بها أحد   و ربما أضرمت نارا على بلد

[٩٧ : ب] و لكن إذا أراد الله أمرا بلغه ، قال الشاعر :

[3]و إذا أراد الله إنفاذ القضا   تتعاكس الآراء و الأحوال

و فى منثور الحكم : « ما حقّر أحد عدوّه إلا قتله » ، قال الشاعر[3] :

فلا[4] تحقرن عدوا رماك   و إن كان فى ساعديه قصر
فان السيوف تحز الرقاب   و تعجز عما تنال الإبر

و قال الآخر :

فلا[4] تحقرن كيد الصغير فربما   تموت الأفاعى من سموم العقارب

و فى منثور الحكم : « رب أسد مات من ذبابة ، و ملك أحوجه الدهر إلى لبابة » .

فينبغى أن لا يتهاون بالأمور ، فان اليسير من الحقير ينتج[5] كثيرا من الخطأ ، و عظيما من البلاء . و كان مروان بن محمد من أكابر ملوك بنى أمية و شجعانهم و ذوى الرأى و السياسة منهم ، لما دفع إلى ملك قد وهت قواه ، و انفصمت عراه ، باهمال المضيّعين ، و تقصير المترفين ،

(١) زيد فى بن : يلبغا .
(٢) فى بن : جبهة ــ كذا .
(٣ــ٣) سقطت العبارة من بن .
(٤) فى بن : لا .
(٥) من بن ، و فى الأصل : يفتح .

فأخذ يرمّ تلافيه و قد عسر، و يقصد لرتقه[1] و قد زاد الخرق و اتسع، و باشر من حرب المسوّدَة ما اشتد عليه حتى انهزم، فلجأ فى انهزامه إلى موضع حصل فيه، و معه خادم له[2] رومى يقال له باسيل[3]، و كان هذا الغلام من أشراف الروم، فوقع عليه سبى صار به إلى مملكة مروان، فقال مروان فى تلك الحال: وا لهفا على دولة ما نصرت[4]، و نعمة ما شكرت فقال له غلامه باسيل: من أغفل الصغير حتى يكبر، [5]و الخفى حتى يظهر، أصابه مثل هذا. فقال له مروان: صدقت فيما قلت - انتهى.

نعود، ثم إن القبرسى أتى بعمارته إلى الإسكندرية فظفر بها، و تمكن جيشه منها، من بعد صلاة الجمعة إلى آخر يوم السبت ثانيه، نهب و سبى[2] و حرق و خرب بعد أن قتل من المسلمين كثيرا. فطوبى للمقتولين من المسلمين فى يوم الجمعة! فانه يوم مبارك.

يُروى عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: من توفى يوم الجمعة كُتب له أجر شهيد و وُقى [فتنة -[6]] القبر. و فيها ساعة لا يصادفها عبد مسلم يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه، و صحح الشيخ محيى الدين النواوى أنها من حيث يخطب الإمام إلى حين الفراغ من

(١) فى بن [٧٤: ب]: ارتقه - كذا.
(٢) ساقطة من بن.
(٣) المسعودى (مروج الذهب) ج ٢ ص ٢٥٢: بسيل.
(٤) زيد فى بن: و كف ما ظفرت.
(٥) زيد فى بن: و القليل حتى يكثر.
(٦) زيد من بن.

الصلاة ، و استدل بحديث فى صحيح مسلم ؛ فقد حصل للمقتولين من المسلمين بالإسكندرية شهادة بسيوف الكفار ، و أجر شهادتهم[١] بموتهم[٢] يوم الجمعة[٣] . [٩٨ : الف] و قد جاء فى فضل الشهداء ما هو مذكور فى كتب الحديث كما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى .

و كان الخبر يأتى إلى القبرسى[٤] أن الإسكندرية بها [٥] طوائف قاعات[٥] يبيتون بساحل ميناها[٦] ، لم يعرفوا الحرب و لا باشروه أبدا بل يخرجون[٧] متزينين[٨] بالملبوس[٩] قد تطيلسوا من فوق العمائم التى على الرؤوس[١٠] ، يتبخترون[١١] فى مشيتهم[١٢] ، [١٣] و يتطيبون بطيبهم فتزرغت[١٣] لهم النسوان ،

(١) فى بن : شهادة .

(٢) زيد فى بن : فى .

(٣) زيد فى بن : عيد المسلمين .

(٤) زيد فى بن : بجزيرة قبرس .

(٥-٥) كذا ، و الظاهر : قاعات طوائف .

(٦) فى الأصل و بن : مينتها .

(٧) زيد فى بن : منها الى البحر يحرسون و كلهم ملبوسهم .

(٨) فى الأصل و بن : متزينون .

(٩) ساقطة من بن .

(١٠) زيد فى بن : احسن زى و ملبوس .

(١١) من بن ، و فى الأصل : يتخطرون .

(١٢) من بن ، و فى الأصل : مشيهم .

(١٣-١٣) فى بن : كالمشى فى زفة العروس روائحهم بالطيب تفوح يحيى بشمها كل روح فتزرغتن .

و يصير كل واحد منهم بزينته فرحان ، و معهم الأسلحة الثقال ، [و[1]] لكن ليس تحتها لموقف[2] الحرب رجال ، مع كل واحد منهم[3] سيف تقلّده[4] ، مجوهر النصل جيده[5] ، مزخرف بالذهب ، كجمرة نار تلتهب ، و مع ذلك حامله[6] جبان ، يفزع من نعيق الغربان ، كما قال الشاعر :

و ما السيف إلا مستعار لزينــة   إذا لم يكن أمضى من السيف حامله

و الحرب لها[7] أرباب كالسباع ، كما قيل فى المثل : من لم يكن أسدا افترسته الضباع[8] [9] و أكلته الحيات[9] ، و من لم يكن كالعقرب ، طمع فيه كل كلب أجرب ، كما قال الشاعر :

و من لم[3] يكن عقربا يتقى   مشت بين أثوابه العقرب

فلما علم القبرسى حالهم طمع فيهم و قال[10] : إذا لم يكن بالإسكندرية من لم[3] يحسن الطعن و لا[3] الضرب ، فالظفر بها سهل لا صعب ، و إذا

(١) زيد من بن .
(٢) فى بن : لوقت .
(٣) ليس فى بن .
(٤) فى بن : مقلدة .
(٥) زيد فى بن : حقيرة .
(٦) فى بن : صاحبه .
(٧) فى بن : له .
(٨) فى بن : الذئاب .
(٩-٩) فى بن : و نهشته الكلاب .
(١٠) زيد فى بن : بلسان حاله .

لم يكن بها رجال حرب مقيمة ، فالسلاح مع الجبناء زيادة فى الغنيمة ، و المنايا فى السيوف كوامن ، لا يهيّجها إلا الشجاع ، قال الشاعر :

إن المنايا فى السيوف كوامن حتى يهيّجها فـتى هيّاج
و مهيّج يغشى المضيق بسيفه حتى يكون بسيفه الإفراج

فأتى القبرسى الملعون[1] برجاله المحتدة[2] ، المعروفين بالخيانة معهم أسلحتهم [3]المحتدة ، القاطعة[3] المستعدة ، فرأوا الرجال على الساحل ، ليس عليهم ملبوس حرب طائل ، و رأوا فرسانهم العريان[4] ، قد تخللوا بالكسيان ، فرمتهم الفرنج بالسهام ، فطاروا كطيران الحمام ، فظفر الملعون بها ، و رتع فى جوانبها ، و جرى ما سيأتى ذكره مفصلا إن شاء الله تعالى ، فسبحان الملك العظيم[5] الذى إذا أراد أمرا قدم أسبابه ! ألا ترى[6] أنه تعالى لما قضى أن ينزع ملك[7] مصر من أيدى فراعنتها[8] و يملكها لبنى إسرائيل كيف[9] قدم على ذلك أسبابا ! و هى أنه جعل محبة[10]

(١) فى بن : اليها .
(٢) كذا لرعاية السجع ، و الصواب : المحتدين .
(٣ - ٣) العبارة ليست فى بن .
(٤) من بن ، و فى الأصل : عربان .
(٥) زيد فى بن : الخبير العليم .
(٦) فى بن : يرى .
(٧) فى بن : ملكا .
(٨) فى بن : فراعنته .
(٩) سقطت العبارة من بن من « و يملكها » إلى هنا .
(١٠) فى بن : صحبة .

[٩٨ : ب] يعقوب لأحد بنيه سببا لحسدهم إياه، ثم جعل حسدهم سببا لوقوعه فى الجبّ، ثم جعل مر القافلة سببا لإخراجه من الجبّ، ثم جعل إخراجه من الجب سببا لبيعهم إياه، [١] ثم جعل وقوعه فى دار العزيز سببا لمحبة امرأة العزيز إياه، ثم جعل محبتها[٢] إياه سببا لوقوعه فى السجن، ثم جعل وقوعه فى السجن سببا لتعبير رؤيا الملك، ثم جعل تعبير رؤيا الملك سببا لذكر الناجى من صاحبى السجن إياه بين يدى الملك، ثم جعل سؤال النسوة اللاتى قطعن أيديهن سببا لبراءته من العيب، ثم جعل براءته من العيب سببا لتمليكه[٣] إياه[٤] خزائن الأرض، ثم جعل وصول القحط إلى كنعان سببا لاتساق أمورهم، ثم جعل اتساق أمورهم سببا لانتزاع ملك مصر من أيدى فراعنتها وتمليك مصر[٤] بنى إسرائيل. وكذلك لما أراد الله عز وجل قتل من قتل [٥] من الإسكندرية[٥] بسيوف الفرنج الكافرين ونهبهم لأموالهم وسبيهم لنسائهم وإمائهم وأطفالهم قدّم[٦] تلك الأسباب المتقدم ذكرها فى هذا الباب حتى تبين[٧] للقبرسى حال الإسكندرية، فأتى إليها بجيوشه القوية[٤]،

(١) العبارة ساقطة من بن من هنا إلى «اياه» الآتى أولا.

(٢) فى بن: محبة زليخا.

(٣) فى بن: لتملكه - كذا.

(٤) ليس فى بن.

(٥-٥) فى بن: المسلمين بالإسكندرية.

(٦) فى بن: قسم.

(٧) فى بن: ظهر.

فأثر[١] فيها أثرا[٢] ذكر[٣] [٤]ذلك الأثر[٤] فى السير [٤]بما وقع بها من الضرر[٤]، فالحمد لله الذى حفظها من إقامتهم بها، و إخرابهم لها، فلو أقاموا بها تعب[٥] المسلمون فى خروجهم[٦] منها، لحصانتها بالأسوار، و لو أخربوها بأجمعها[٧] [٨][٩]تفرقت [٩]الناس عنها[٩] فى جميع الأقطار، و كان فى ذلك أكبر ٥ بلية، يقال على طول الزمان[٧] للمارين[١٠] عليها[٤] و المسافرين من البرية[٤]، ههنا كانت مدينة تدعى[٧] الإسكندرية. فسبحان القادر المقتدر، الذى إذا أراد أمرا [٤]قدر أسبابه! سبحانه[٤] لا رب غيره و لا معبود سواه.

و سأذكر الآن [١١]إشارة حسنة[١١]، [٤]و هى أن الله تعالى بمنه و كرمه[٤] أجرى[١٢] على ألسنة إخوة يوسف النصيحة. لأن فعلهم كان سبب ملك

(١) فى بن: أثر.

(٢) من بن، و فى الأصل: أثر.

(٣) فى بن: ذكرت.

(٤-٤) ليست فى بن.

(٥) فى الأصل و بن: تعبت - كذا.

(٦) فى بن: اخراجهم.

(٧) ليس فى بن.

(٨) زيد فى بن: كانت.

(٩-٩) فى بن: اهلها.

(١٠) فى بن: المارين.

(١١-١١) فى بن: اشارتين حسنتين.

(١٢) فى بن: الأولى ما جرى.

يوسف، و كانوا يضمرون الخيانة، و يظهرون النصيحة، و الله[1] تعالى فعل على أقوالهم، لا على ما جرى على[2] خواطرهم. قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا تقولوا فى إخوة يوسف إلا خيرا، إن الله قد غفر لهم، و من غفر له فهو بمنزلة من ليس له ذنب. قال الله عز و جل: «لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب[3]» و إنما كانت [4]قصتهم أحسن القصص[4]، لأن مآل كل واحد[5] إلى خير و سعادة و حسن مراقبة، و لم يكن [4]مآل واحد منهم إلى عذاب [٩٩: الف] و عقوبة[4] كما كان[2] قصص الأنبياء المتقدمين[6]. ألا ترى أن الله عز و جل ذكر قصة [4]آدم عليه السلام، فكان من قصته[4] مآل إبليس إلى اللعنة و العقوبة [7]و الخسران[7]. و ذكر قصة نوح عليه السلام، فكان مآل قومه إلى الغرق و الطوفان، و العقوبة و الخسران. و ذكر قصة هود عليه السلام، فكان مآل قومه إلى الريح العقيم، و العذاب الأليم. و ذكر قصة صالح عليه السلام، فكان مآل قومه إلى الصيحة و الدمدمة. و ذكر قصة لوط عليه السلام، فكان

(١) فى بن: فالله.

(٢) فى بن: فى.

(٣) قرآن كريم ١٢: ١١١.

(٤-٤) العبارة مطموسة فى بن.

(٥) زيد فى بن: منهم.

(٦) فى بن: المتقدمة.

(٧-٧) ليست فى بن.

مآل قومه إلى أن جعل عاليها سافلها، و أمطر[1] عليهم حجارة من سجيل. و ذكر قصة موسى عليه السلام، فكان مآل فرعون[2] إلى ما آل إليه من الغرق و الهلاك. و كان جميع[3] ما ذكر فى قصة يوسف عليه السلام إلى الخير و السعادة، قال الله عز و جل «لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب[4]». ألا ترى[5] يعقوب عليه السلام رُدّ عليه بصره بعد العمى و جمع شمله، و إخوة يوسف العشرة[6] تاب الله عليهم و غفر لهم، و أوجب على عباده الإيمان به حيث يقول «قولوا آمنا بالله و ما انزل الينا و ما انزل الى ابرٰهم و اسمٰعيل و إسحٰق و يعقوب و الاسباط[7]». و إخوة يوسف[8] الأسباط، و زليخا المرأة التى كانت امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه رجعت حالها[9] إلى أحسن الأحوال حتى آمنت بالله بعد أن كانت كافرة، و نالت ما أرادت[10] من يوسف حلالا طيبا[11]،

(١) فى بن: ارسل.
(٢) زيد فى بن: و قومه.
(٣) زيد فى بن: مآل.
(٤) قرآن كريم ١٢: ١١١.
(٥) زيد فى بن: ان.
(٦) زيد فى بن: و.
(٧) قرآن كريم ٢: ١٣٦.
(٨) زيد فى بن: هم.
(٩) فى بن: الى حال هى.
(١٠) فى بن: ارادته.
(١١) العبارة من هنا إلى «ثمن الجنة» ليست فى بن.

و كانت اشترت يوسف و حبسته ، و كذلك الله تعالى اشترى المؤمن و حبسه فى الدنيا ، لأن الدنيا سجن المؤمن ، فاذا أخرجه من السجن أعطاه ملكا عظيما ، قوله تعالى «ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم[1]» و لم يقل : باع الجنة منهم ، و البائع لا يخلو من أمرين : إما أن يكون محتاجا أو طالبا للربح ، و الله تعالى غنى عن ثمن الجنة . و كذلك مآل يوسف[2] إلى العز و المملكة و الهيبة ، و جعل أهل مصر كلهم عبيدا له . قوله[3] تعالى «و كذلك مكنا ليوسف فى الارض[4]» قيل مكناه حيث جعلنا أهل مصر عبيده لما اشتروا منه الطعام بأنفسهم فى السنة السابعة ما يقتاتونه حين الغلاء ، و كانوا هم يزعمون أنه عبدهم فجعلهم الله[5] عبيدا له ، ثم قال عند اجتماعه بوالده : يا أهل مصر أنتم عبيدى ! و قد أعتقتكم اليوم لرؤيتى لوالدى[6] . فانظر إلى الفعل[7] الجميل ما أحسنه ! فان يوسف عليه السلام أعتق أهل مصر لما ملك رقابهم ، و صفح عن إخوته فيما فعلوه به بعد أن [٩٩ : ب] وقفوا بين يديه أذلاء ، فعفى عنهم بعد القدرة على عقوبتهم ؛ قال الشاعر[8] :

ما أحسن العفو من القادر

(١) قرآن كريم ٩ : ١١١ .

(٢) «يوسف» ناقص فى الأصل و وارد فى بن [٧٥ : ب] .

(٣) فى بن : لقوله .

(٤) قرآن كريم ١٢ : ٢١ .

(٥) زيد فى بن : لى .

(٦) فى بن : والدى .

(٧) فى الأصل و بن : فعل .

(٨) فى بن : بعضهم فى المعنى .

وسأذكر[1] حكاية فى المعنى، وهى أن بعض نواخذ[2] الزنج خرج فى مركب فيه التجار من مدينة عمان يريد مدينة قبيلة، فحملت الريح المركب إلى مدينة سفالة بأرض الزنج، وهم قوم يأكلون الناس. قال: فأيقنا بالهلكة، فاغتسلنا وتحنطنا ونشرنا أكفاننا، وأحاطت القوارب والسنابك بنا، فأدخلونا المرسى، فأرسينا [3]ونزلنا مع القوم إلى الساحل، فحملونا[3] إلى مراكبهم[4]، فرأينا غلاما حسن الوجه حسن الخلق، فسألنا عن أخبارنا، فعرفناه [3]أنا قصدنا بلده، فقال: كذبتم[3]، أنتم قصدتم مدينة قبيلة، فحملكم الريح إلى عندنا. فقلنا: صدقت. قال: فلا تخافوا، بيعوا واشتروا فأنتم آمنون[5]. قال: فحططنا أمتعتنا وبعنا أطيب بيع، ولم يلزمنا مُكسا [3]ولا مؤونة إلا ما أهدينا للملك[3] وأهدى إلينا[6] عوضا منه وأكثر، وأقمنا[7] عنده مدة، فلما حان وقت سفرنا [3]استأذناه فى السفر فأذن لنا[3]، فحملنا رحلنا إلى مركبنا، فلما عزمنا على الإقلاع عرفناه ذلك، فقام ومشى معنا إلى الساحل مع جماعة من

(١) فى بن: فلنذكر الآن. وفى هامش الأصل: حكاية فى المعنى عجيبة.

(٢) من بن، وفى الأصل: نواجذة.

(٣ - ٣) ليست فى بن.

(٤) فى بن: ملكهم.

(٥) فى الأصل وبن: آمنين ـ كذا.

(٦) فى بن: لنا.

(٧) فى بن: فاقمنا.

أصحابه

أصحابه و غلمانه، و ركب فى قارب هو و أصحابه، فظلع منه[1] إلى مركبنا و معه سبعة أنفس من وجوه خواصه بعد أن ربطوا قاربهم فى مركبنا، فلما حصلوا فى المركب الذى لنا حسن عندنا الإقلاع و الغدر بهم، فأقلعنا و هم معنا، و الملك بعد ذلك يسألنا الرجوع فى قاربه إلى مدينته و مكان مملكته[2]، و يعدنا بالإحسان متى عدنا إليه بالمتجر، ثم أراد النزول هو و أصحابه فى قاربهم ليرجعوا إلى مدينتهم، فبادرنا و قطعنا حبل القارب المربوط فى المركب، فانذهل الملك فى عقله هو و أصحابه، فواصيناهم و قلنا للملك: تقيم معنا حتى تصل بلدنا فنجازيك على إحسانك إلينا. فقال: يا قوم! لا تغدروا بى، فانى حميتكم من قوم يأكلونكم و يأخذون أموالكم، فأحسنت إليكم، و لم نأخذ منكم مكسا، و طلعت معكم مركبكم[1] لأودعكم، فاقضوا حقى و ردونى[3] إلى بلدى[4] و إلى مملكتى. قال: فلم يلتفتوا[5] إلى قوله، و طاب لنا الريح يومنا و ليلتنا، فلما أصبحنا[6] حصل الملك و أصحابه فى قبضتنا، و صاروا[7] من جملة رقيقنا و عبيدنا[1]،

(١) ليس فى بن.
(٢) زيد فى الأصل: فأقلعنا و هم معنا. و لكن الجملة على ما يظهر مشطوبة و فيها اعتراض لكلام الملك فى غير موضعه.
(٣) من بن، و فى الأصل: ردوا بى.
(٤) فى بن: مدينتى.
(٥) فى بن: فلم يلتفت.
(٦) فى بن: كان الصباح.
(٧) فى بن: صار.

فأمسك الملك عن الكلام[1] فما أعاد علينا كلمة واحدة و لا خاطبنا [١٠٠ : الف] بشيء ، و وصلنا إلى مدينة عمان ، فبعناه مع أصحابه فى جملة الرقيق الذى معنا ، فلما كان بعد ذلك إلى خمس سنين خرجنا من عمان نريد مدينة قبيلة ، فحملتنا الريح بقوتها إلى مدينة سفالة لذلك الموضع بعينه ، فطارت عقولنا ، وخرجوا إلينا [2]فأحاطوا[2] ، و إذا الوجوه التى نعرفها فى تلك الكرة ، فأيقنا بالموت و الهلكة بعد العذاب [3] الأليم و العقاب[3] المهين ، لعلمهم أن نحن الذين أخذنا ملكهم و خواصه و هم ينظرون من الساحل[4] إلينا ، و يصرخون علينا ، و نحن بهم سائرون[5] ، و لهم[6] غادرون[7] ، فما قدر أحد منا يكلم صاحبه من شدة الرعب و الخوف ، فاغتسلنا و تحنطنا[8] كما فعلنا أول مرة و قلنا : فرغت آجالنا ، و انقضت أيامنا ، فيا [9]طول عذابهم[9] لنا قبل

(١) زيد فى بن : معنا .

(٢-٢) فى بن : و احاطوا بنا .

(٣-٣) ليس فى بن .

(٤) فى بن : ساحلهم .

(٥) فى الأصل : سايرين ؛ و صحة الكلمة فى بن [٧٦ : الف] .

(٦) فى بن : بهم .

(٧) فى الأصل : غادرين .

(٨) فى بن : فعلنا .

(٩-٩) فى بن : طويل عذابهم .

قتلنا، ثم إنهم أنزلونا [1]عن مراكبنا[1]، و وافوا[2] بنا[3] الملك و أدخلونا عليه، فاذا نحن بالملك صاحبنا الذى أسرناه، و بالثمن البخس بعناه، و هو جالس على السرير الذى كان عليه من قبل، فوقفنا بين يديه ذليلين خائفين مرعوبين، فقال لنا: ارفعوا رؤوسكم، فقد أمنتكم على أنفسكم و أموالكم. فرفعنا رؤوسنا و لم نقدر أن ننظر إليه خوفا و فزعا[4]، فعرفنا و قال: يا غادرون[5]! فعلت بكم[6] و صنعت، و فعلتم بى و صنعتم، و قابلتم الإحسان بالإساءة، و أخذتم ملكا من الملوك، بعتموه كالمملوك، و بعتم خواصه و الغلمان، بأبخس الأثمان، و جعلتم كل واحد منهم بعد العز مهان[7]؛ و هذا جزاء الإحسان، يا أدون[8] الأدوان! فكل منكم غير إنسان. فقالوا[9]: أقلنا[10] و اعف عنا، فقد أسأنا و أخطأنا فيما فعلنا ما أحسن العفو من القادر! فلما رأى انكسارنا و ذلتنا قال: قد عفوت عنكم، فبيعوا و اشتروا كما فعلتم [11]أول مرة و أنتم آمنون مطمئنون[11] فحسبنا أن ذلك منه حيلة

(١-١) فى بن: من مركبنا.
(٢) فى بن: اتوا.
(٣) زيد فى بن: باب.
(٤) زيد فى بن: خجالا.
(٥) فى الأصل و بن: غادرين.
(٦) فى بن: معكم.
(٧) كذا لرعاية السجع، و إلا فالصواب: مهانا.
(٨) فى بن: ادوان.
(٩) فى بن: فقلنا.
(١٠) ليس فى بن.
(١١-١١) العبارة مطموسة فى بن، وفى الأصل «آمنين مطمئنين» مكان «آمنون مطمئنون».

و مكيدة و مكر[١] و خديعة حتى ننزل بضائعنا [٢]من مركبنا[٢]، [٣]و وجهنا له هدية لها قدر ، فردها علينا و قال : لست أقبل منكم هدية ، و لا آخذ منكم شيئا ، لأنه حرام لبغيكم و سوء فعلكم ، [٣]فبعنا على عادتنا بعد أن[٤] نادى لنا بالأمان على أنفسنا و مالنا[٥] ، و إلا كانت رعيته تقتلنا[٦] لسوء فعلنا ، فلما فرغنا و تجهزنا[٧] للسفر[٨] قلنا له : أيها الملك ! قد عزمنا على السفر . فقال : امضوا فى غير حفظ الله و لا سلامة . فقلنا : [٩]أيها الملك! قد عاملتنا[٩] بما لم نظنه لأنا غدرنا بك و ظلمناك ، فكيف[١٠] تخلصت و رجعت إلى مدينتك و مملكتك[٨] . قال[١١] : أخبركم بأنكم لما بعتمونى[١٢] [١٠٠ : ب] بمدينة عمان حملنى مولاى إلى البصرة ، فعلمنى الصلاة

(١) فى الأصل : مكرا .

(٢-٢) مطموس فى بن .

(٣) زيد فى بن : قال .

(٤) فى بن : اذ .

(٥) فى بن : اموالنا .

(٦) زيد فى بن : و تأكلنا .

(٧) زيد فى بن : و اوثقنا المركب .

(٨) ليس فى بن .

(٩-٩) فى بن : ان الملك قد عاملنا .

(١٠) فى بن : فبالله قل لنا كيف .

(١١) فى بن : فقال .

(١٢) من بن ، و فى الأصل : بعتونى ـ كذا .

و الصوم و قراءة[1] سور[2] من القرآن، و صليت مع الناس فى الجامع[3]، و أقمت إلى أن سافر الحاج إلى مكة، فسألت عن الحج ما هو، فأخبرت بصفته و بيت الله الحرام و بركته، فأردت السفر معهم، فأعلمت مولاى فلم يساعدنى على ذلك، فأغفلته و تعاملت مع أقوام خرجت معهم إلى مكة، فكنت أخدمهم طول الطريق و آكل معهم، و[4] وهبوا لى[4] ثوبين فأحرمت فيهما، و علمونى كيف أحج فحججت، و خفت إن أرجع إلى مولاى يضربنى[5]، و يتسلط على و لا يرحمنى، فخرجت مع قافلة أخرى لمصر مع قوم أخدمهم، فلما دخلت مصر رأيت النيل، فسألت عنه من أين يجيء، فقيل لى: أصله من بلاد الزنج، فلزمت ساحل بحر النيل أخرج من بلد و أدخل إلى آخر[6] و أطلب ما آكله، حتى وردت إلى البلد الفلانى من آخر بلاد الزنج، فسألت عن[7] بلدى هذا[7]، فقيل[8] إن أهله[9] إلى الآن ما جلّسوا[10] ملكا، و نواب الملك المأسور

---

(١) ليس فى بن .
(٢) فى بن : سورا .
(٣) فى بن : الجوامع .
(٤-٤) فى بن : وهبونى .
(٥) فى بن : فيضربنى .
(٦) فى بن : اخرى .
(٧-٧) فى بن : مدينتى هذه .
(٨) زيد فى بن : لى .
(٩) فى بن : اهلها .
(١٠) فى بن : اجلسوا .

يحكمون[1] عنه[2]، و قد حزنوا عليه حزنا شديدا، فقال[3] لهم المنجمون: إنه يظهر [4]لنا فى حسابنا أنه[4] سيخلص[5] من الأسر و يعود إلى مملكته[6]، فلذلك لم يملكوا [7]عليهم ملكا[7] غيره[8]، إلى أن أتيت إليهم من مدة شهر، و الآن فقد عدت إلى ملكى، [9]و أنا اليوم[9] [10]فرح مسرور[10]، لأن الله[11] من على بالإسلام و معرفة الدين[12] و الصلاة و الزكاة و الحج و الصيام، و بلغت ما لم يبلغه أحد فى بلاد الزنج، فكان فعلكم بى ذلك سببا لإصلاحى و صلاحى، فلذلك لم أؤاخذكم بما فعلتم بى[13] اقتداء بيوسف عليه السلام، إذ كان فعل إخوته به سببا

(١) فى الأصل: يحكموا.
(٢) زيد فى بن: فيه.
(٣) فى بن: فقالت.
(٤-٤) غير واضحة تمام الوضوح فى الأصل و يجوز قراءتها «لثانى» يتلوها بياض، و قد وضحت فى بن [٧٦: ب] حيث نقلنا العبارة فى النص عنها.
(٥) فى بن: سيتخلص.
(٦) زيد فى بن: كما كان.
(٧-٧) ليس فى بن.
(٨) فى بن: غيرى.
(٩-٩) فى بن: فالآن.
(١٠-١٠) فى بن: فرحا مسرورا.
(١١) زيد فى بن: تعالى قد.
(١٢) مطموس فى بن.
(١٣) ليس فى بن.

لعزه و ملكه و عفوه عنهم، و ما بي حسرة إلا مولاي البصري الذي هربت منه، لأنه اشتراني بدنانير كثيرة، و كنت أشتهي أن أرى ثقة فأدفع[1] إليه[2] ثمني ليرده عليه، و يحدثه بحديثي ليعذرني و لا يدعو عليّ، و لو كان فيكم خير[3] و لكم أمانة لدفعتها[4] لكم[5] توصلونها[6] إليه، [7]و لكن أنتم[7] أصحاب غدر و مكر [8]ليس لكم[8] أمانة، فإن رأيتموه فاذكروا [9]له حالي، و ما جرى لي، و إن[9] أتاني أكرمته و أحسنت إليه. قال: فودّعناه و انصرفنا [9]بعد أن قال لنا: إن أردتم العودة إلى عندنا[9] فأنتم آمنون[10] لا تخافوا[11] و لا تفزعوا[12]، و أما[13] إني أودعكم

(١) في بن: ادفع.
(٢) في بن: له.
(٣) في الأصل و بن: خيرا - كذا.
(٤) في بن: لدفعت.
(٥) زيد في بن: ذهبا.
(٦) في الأصل: توصلوها، و في بن: توصلوه.
(٧ - ٧) من بن، و في الأصل: و لكن.
(٨) في بن: و عدم، و في الأصل «له» مكان «لكم».
(٩ - ٩) العبارة مطموسة في بن.
(١٠) في الأصل و بن: آمنين - كذا.
(١١) في الأصل: تخافوا.
(١٢) في الأصل: تفزعوا.
(١٣) العبارة من «لا تخافوا» إلى هنا ليست في بن.

بمركبكم فلا سبيل إلى ذلك أبدا ! [١] ولما كنتم السبب فى صلاحى، خفضت [١] لكم جناحى، فامضوا بسلام، والسلام [٢].

ذكر كيفية ظفر القبرسى بالإسكندرية [١٠١ : الف] [٣] بما جمعه من أجناس نصارى الرومانية [٣] وغير ذلك من الواردات المستطردات [٤]

وذلك أن نائب السلطان بثغر الإسكندرية، وهو [٥] الأمير خليل [٦]

(١-١) العبارة مطموسة فى بن .

(٢) زيد فى بن [٧٦ : ب - ٧٧ : الف] : قال ثم إن نحن لما وصلنا إلى . . . ستراه فأخبرناه بخبره قال : كان أبى مملوكا وما أعلمنى بخبره ولا أخبرنى بقضيته . ثم إنه تجهز وسافر إليه مستصحبا معه هدية تصلح له، فلما عاينه الملك قام له وأجلسه معه على سرير ملكه وأخبره بخبره فى سفره وغربته وكدمته، فبكى سيده لما جرى عليه، ثم إنه أنعم على سيده وأكرمه وأتحفه بالمال الجزيل، وصار سيده يتجر من البصرة إلى بلد الملك يجلب له جميع ما يختاره وصارا متحابين متصافيين إلى أن فرق الموت بينهما .

(٣-٣) ليست فى بن .

(٤) هذا العنوان بالكامل مكرر فى الهامش . انظر فى موضوع هذه الجملة ومراجعها :

A.S. Atiya, the crusade in the Later Middle Ages, (Ist. ed., London 1938 2nd. ed., New York—Kraus Reprint corporation—1965), pp. 345–78.

(٥) زيد فى بن : ابن - ولا يتضح .

(٦) أخره فى بن عن « الدين » .

صلاح

صلاح الدين بن عرام كان غائبا عن [1] الثغر المذكور [1] بالحجاز الشريف بسبب الحج، و كان نائبا عنه فيه [2] باشارة الأمير الأتابكى يلبغا الخاسكى أمير يسمى جنغرا [3]. فلما دخل جنغرا [3] المذكور الإسكندرية [4] رأى [5] طوائفها المتطوعة [5] الحارسة لميناها [6] تنجرّ عليه بالجزيرة [7] بقسيّهم الجرخ الموتّرة، و أعلامهم الحرير المنشورة، مع ما بأيديهم من المزاريق و الرماح، و الدرق و الصفاح، و الزرد النضيد [8]، و مصفحات الحديد، و النفط الطيار، الصاعد منه لهب [9] النار، و هم بملبوسهم المختلف الألوان، كالزهر فى البستان. فلما عاينهم جنغرا [3] بكى و قال: هؤلاء أهل الجنة لرباطهم و جهادهم فى سبيل الله، قد طاب و الله العيش، بقوة هذا الجيش، لو أتى إلى الإسكندرية، جميع نصارى الرومانية [10]، ما قدروا على [11] هذا

(١ - ١) فى بن: الإسكندرية.

(٢) فى بن: فيها مدة غيبته.

(٣) فى بن: جنغر.

(٤) زيد فى بن: و.

(٥-٥) فى بن: طرائقها المطرفه - كذا.

(٦) فى الأصل و بن: لمينتها.

(٧) فى بن: الجزيرة.

(٨) فى بن: النضديد - كذا.

(٩) ليس فى بن.

(١٠) فى بن: الرومية.

(١١) فى بن: مع.

الجيش الثقيل على الإسكندرية ، بل يكسرون النصارى ، و يصيرونهم قتلى و أسارى . فأقام جنغرا بالإسكندرية من شوال سنة ست و ستين و سبعمائة إلى[1] المحرم ينظر لتلك الطوائف التى لكل طائفة منها ليلة فى الأسبوع تبيت تحرس بساحل المينا[2] ، و ربما بات[3] ليالى[4] فى الغرفة التى على باب مسجد[5] تربة[6] طغية[7] ، [8]و يقدم[8] قدامه فانوسين أكرتين مقابل باب المسجد المذكور . و تأتى طائفة الزراقين يطلقون النفط و هو ينظر من طيقان الغرفة المذكورة إلى [9]الشرار الطيار ، و اللوالب التى تدور بألوان النار[9] ، من الخضرة و الصفرة ، و البياض و الحمرة . فيحصل[10] بذلك الانشراح ، من العشى إلى الصباح ، و يبتهج أيضا بنظره إلى كثرة الخلائق المنتشرة على الساحل من الرماة و العوام ، و قد نُصب لهم سوق فيه من أصناف المأكول يشترون و يأكلون ، و من ماء الروايا و القِرَب التى تحمل من البلد إليهم يشربون . فاذا أصبحوا انتظمت الطائفة التى باتت تحرس

(١) زيد فى بن : شهر .
(٢) فى الأصل و بن : المينة .
(٣) المقصود هنا الأمير جنغرا .
(٤) من بن ، و فى الأصل : ليال .
(٥) ليس فى بن .
(٦) زيد فى بن : الأمير .
(٧) انظر ايضا ١٠٨ : ب – و كلا المسجد و التربة غير معروف .
(٨–٨) فى بن : يوقد .
(٩–٩) فى بن : الشرار الطائر و الكواكب الدائرة بالألوان النار .... .
(١٠) زيد فى بن : له .

مدخل[1] البلد فى همة و جلد ، و كثرة و[2] مدد ، فتجتمع لدخولهم الرجال و النسوان ، ينظرون لأقوام كزهر بستان ، من حسن الملابس ، و بياض تلك الطيالس[3] ، فتزرغتن[4] لهم النسوان إعلانا ، عند مشاهدتهن[5] لهم[6] عيانا[7] ، و الأبواق حينئذ تصرخ ، و الكوسات تدق ، و المزامر تزمر ، و الأعلام منشورة ، و المباخر [١٠١ : ب] بالطيب مغمورة ، و دخانها يفوح ، فتنبسط لتلك الروائح الأرجة كل روح[8] ، و الناس[9] فى فرح و سرور ، لرؤية ذلك الجيش المحبور[10] ؛ [11] المهتز له الشوارع و الدور[11] . فبينما هم كذلك على عادتهم مستمرون[12] ؛ و فى ثغرهم مطمئنون[13] ، لا تروعهم

(١) فى الأصل : و دخل ، و فى بن : دخلت .

(٢) ساقطة من بن .

(٣) من بن ، و فى الأصل : الأطالس .

(٤) فى الأصل : فتزغرن ، و صوابه فى بن .

(٥) فى بن : مشاهدتهم .

(٦) من بن ، و فى الأصل : لهن .

(٧) فى بن : تبيانا .

(٨) زيد فى بن : كما قال بعضهم . . . و مملوة الأحشاء تحسب انها متيمه تشكو من . . . .

(٩) زيد فى بن [٧٧ : ب] : مع ذلك .

(١٠) فى بن : المنصور .

(١١-١١) العبارة ساقطة من بن .

(١٢) فى الأصل و بن : مستمرين .

(١٣) فى الأصل و بن : مطمئنين .

الأعداء و لا رأوا مكروها أبدا ، إذ دهمهم صاحب قبرس اللعين ، فى جنده الضالين ، شتت شملهم أجمعين ، فروا[1] منه فى البلدان ، و دخل البلد باطمئنان ، و ذلك فى يوم الجمعة الثانى و العشرين من المحرم سنة سبع و ستين و سبعمائة ، و النيل منتشر على البلاد . قصد الملعون باتيانه[2] ذلك الزمن لتتعوّق النجدة من مصر لبعد الطريق من الجبل ، فنال الخبيث قصده فى ذلك اليوم و الذى بعده ، و تحصن قبل إتيان النجدة بمراكبه ، و فرح بسلامة نفسه و مكاسبه ، فلو كان بها أمراء مجرّدة ما نال الخبيث منها ثمن زردة .[3] لكن كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، و كان أمر الله قدرا مقدورا .

عن يزيد بن حبيب أن عمرو بن العاص رضى الله عنه لما فتح الإسكندرية ، و رأى بيوتها و بناءها مفروغا منها همّ أن يسكنها و قال: مساكن قد كفيناها . فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى ذلك . فقال عمر لرسوله : هل يحول بينى و بين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب عمر إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء[4] بينى و[4] بينهم فى شتاء و لا صيف إلا إذا كثروا . فتحوّل عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى مصر .

(١) فى بن : ففروا .
(٢) زيد فى بن : فى .
(٣) زيد فى بن : و .
(٤-٤) ساقطة من بن .

فعلى

فعل ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه خوفا على المسلمين لقلتهم[1] بها ، و بُعد المسافة إليها ، فى إبان[2] النيل لدورة الطريق فى الجبل للنجدة . فأرسل إليها عمرو بن العاص حينئذ قبائل العرب من[3] لخم و جذام و كندة و الأزد و حضرموت [4]و خزاعة[5] و المزائنة[6] مركزين قاطنين بها لحراستها . فلخم نزلت بالمكان المعروف بكوم الدكة ، و جذام نزلت ببركة جذام ، و كندة نزلت بالبراكل ، و الأزد نزلت بحارة الأزدى ، و حضرموت نزلت بحارة[7] الحضارمة و خزاعة[5] و المزائنة[6] نزلوا بناحية بوقير شرقى الإسكندرية من ظاهرها ، يحرسون[8] ميناها[9] . و الذين نزلوا باطن الإسكندرية من القبائل المذكورين عليهم إدراك الميناءين الشرقية و الغربية [10]بجزيرة الإسكندرية[10] . و ذرية هؤلاء القبائل إلى الآن فى

---

(١) فى بن : لقتالهم .

(٢) فى بن [٧٧ : ب] : اوان .

(٣) ليس فى بن .

(٤) العبارة من هنا إلى « و حضرموت » ساقطة من بن .

(٥) فى الأصل و بن : الخزاعة .

(٦) من بن ، و فى الأصل : المزاغنه .

(٧) فى بن : بشارع .

(٨) فى الأصل و بن : يحرسوا .

(٩) فى الأصل و بن : مينتها . و زيد بعده فى بن : التى بها .

(١٠ - ١٠) ليست فى بن .

سنة [١٠٢ : الف] خمس و سبعين و سبعمائة[١] يعرفون[٢] فى الإسكندرية بالقبائل، لهم أخبار، و هم ثلاثة و ثلاثون مقدما، تحت يد كل مقدم جماعة من القبائل لم يخرجوا عن طريقة ملبوس العرب، بل يسدلون العذبات و يفرجون درائعهم[٣]، على جارى عادة[٤] العربان من[٤] أسلافهم. و قطع عمرو بن العاص[٤] من أصحابه[٤] لرباط الإسكندرية: ربع الناس، و ربع فى السواحل، و النصف مقيمون معه بمصر. و كان يصير بالإسكندرية خاصة الربع فى الصيف بقدر ستة أشهر، و تعقب بعدهم شاتية ستة أشهر[٥] – انتهى.

نعود إلى ذكر كيفية إتيان القبرسى إلى الإسكندرية و ظفره بها، و ذلك أنه لما كان فى[٦] يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة سبع

(١) انظر ترجمة المؤلف ١٫٢٠ : الف – ب. و فى بن: سنة ست و سبعين و سبعمائة.

(٢) فى الأصل و بن: يعرفوا.

(٣) فى بن: ذراريعهم.

(٤–٤) ليست فى بن.

(٥) زيد فى بن: و كان عمرو بن العاص شجاعا حليما من حلمه أن رجلا خاطر رجلا أن يقوم لعمرو بن العاص و هو فى الخطبة ... ففعل و قال له عمرو هى النابغة بنت عبد الله أصابها رماح ... شتراها عبد الله بن جذعان للعاص بن وائل فولدت ... على جرأتك على نفذه و لم يؤاخذه بما قال.

(٦) ليس فى بن.

و ستين و سبعمائة ظهر فى البحر[1] مراكب مغربة و مشرقة ، زعم أهل الإسكندرية أنهم تجار البنادقة [2] ينتظرونهم يأتون بمتاجرهم على جارى عادتهم فى كل سنة ، و كانت تجار المسلمين جلبوا لهم من اليمن أصناف البهار يبيعونها عليهم ، و يتعوضون عنها من متاجرهم . فلما لم يدخلوا الميناء باتت الناس فى خوف[3] شديد بسببهم ، فلما أصبح يوم الخميس أقبلت المراكب الكثيرة ، طالبة ساحل الجزيرة ، منشورة[4] قلاعها كالقصور البيض ، فصار[5] الناس فى الطويل العريض ، من كثرة لججهم ، و حرّ وَهَجهم ، و تلك المراكب مقلعة آتية ، قد ملأت البحر من كل ناحية ، فلم تزل تشق البحر كالزلزلة ، إلى أن حطّت قلاعها ببحر السلسلة ، [6]و ذلك[6] من جهة الباب الأخضر[7] المسدود بعد الوقعة بالجير و الحجر ، ثم فتح بعد ذلك ، و رُكّبت[8] عليه أبوابه الأول و الثانى و الثالث المتجددة . و ذلك فى يوم الوقعة سنة سبع و ستين و سبعمائة فى ولاية الأمير

---

(١) زيد فى بن : الملح .

(٢) زيد فى بن : و كانوا .

(٣) فى بن : قلق .

(٤) من بن ، و فى الأصل : مستورة . و هو ما لا يتفق مع السياق .

(٥) فى بن : فصارت .

(٦–٦) ليس فى بن .

(٧) المقصود ببحر السلسلة من جهة الباب الأخضر هو الميناء الغربية – انظر :
E't. Combe, in Bull. Soc Arch. d, Alex., no. 32. 1938, pp. 207–8.

(٨) فى بن : ركب .

سيف الدين الأكز[١] بالإسكندرية . و سيأتى ذكر ولايته بها و ما فعل[٢] فيها إن شاء الله تعالى .

نعود ، و لما أرست المراكب الحربية ببحر السلسلة مبرزة[٣] عن الساحل اعتدّت أهل الإسكندرية للقتال ، و الحرب و النزال ، فتعمرت القلاع التى من جهة البحر و الجزيرة ، بالرماة الكثيرة ، و انتشرت[٤] الناس على السور[٤] ، و صار برماة الجرخ[٥] معمورا[٦] ، فخرج من مراكب الفرنج قارب يجسّ المينا بقميرة ، فرمى[٧] المسلمون عليه بالسهام ، فولى هاربا حتى لصق بالمراكب .

فلما كان بعد الغروب وُقدت الفوانيس على السور ، فضاء السور بالنور ، و بان[٨] المسلمون [١٠٢ : ب] متأهبين[٩] ، و بالسور محدقين[١٠] ، و العدو خانس لم يتحرك من الموضع الذى أرسى بـه ، و صارت تلك

(١) الأمير سيف الدين الأكز والى الثغر ، انظر فيما بعد ١٠٧ : الف .
(٢) زيد فى بن : من الأفعال المنكورة .
(٣) فى بن : برزه .
(٤-٤) ليست فى بن .
(٥) فى بن : الجلخ .
(٦) فى الأصل و بن : معمور .
(٧) فى الأصل و بن : فرمت .
(٨) فى الأصل و بن : فبانت .
(٩) فى بن : متأهبون .
(١٠) فى بن : محدقون .

المراكب[1] منضمّة بعضها إلى بعض كالطوف الصغير، فى البحر الكبير، فاستهون[2] المسلمون أمره وقالوا: ما يقدر هذا على هذه[3] المدينة، المسوّرة الحصينة، والقلاع المشيدة المتينة[4]، فلمّا كان بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة انتشر على الساحل بالجزيرة، خلق من المسلمين كثيرة، منهم من معه سيفه وترسه، ومنهم من معه نبله وقوسه، ومنهم من معه رمحه وخنجره، ومنهم من ليس عليه [5]سوى ثوبه الذى[5] يستره، وبعضهم قد لبس الزرد المنضد[6]، وبعضهم[7] [8]من هو[8] عارٍ[9] مجرد، وكانت الباعة خرجوا من البلد بطباليهم وقدورهم ودسوتهم ملآنة بالطعام، يبيعونها على من بالجزيرة من الخاص والعام، وذلك من ليلة الخميس ليكسبوا فى معايشهم[10] وهم معلنون بلعن كل راهب وقسيس،

(١) زيد فى بن: الكثيرة.

(٢) فى الأصل و بن: فاستهونت.

(٣) فى بن: هذا.

(٤) زيد فى بن: فعل الملعون ذلك خديعة كما قيل: الحرب خدعة، وكما قيل: عليكم فى الحرب المكيدة فانها أبلغ من النجدة.

(٥-٥) فى بن: إلا ثوب.

(٦) فى الأصل: المنضدة. وفى بن مطموس.

(٧) فى الأصل: بعضهم - ولا بد أن هاء «المنضدة» بدلت عن واو «بعضهم».

(٨-٨) فى بن: منه.

(٩) فى الأصل و بن: عارى.

(١٠) فى بن: معاشهم.

و ذلك من غير خوف من المراكب التى رئيت[1] يوم الأربعاء فى البحر، ثم إنهم ما فزعوا من الإفرنج باجتماع أفروطتهم[2] يوم الخميس، بل صاروا يلعنون القبرسى كلعنهم الإبليس[3]، لأمنهم فيما تقدم لهم من بيعهم على الطوائف المتقدم ذكرهم[4]، فكان أحدهم يغضب إذا نقص له المشترى
٥ حبة أو حبتين، و يفرح إذا غلب المشترى[5] بحبة واحدة، فيصير البائع كما قال الشاعر:

و لا تـغضب السوقى فبالحبـة ترضـيـه
و أخـذ الفلس من يده كأخذ الضرس من فيه[6]

---

(١) من بن، و فى الأصل: ريت.

(٢) «افروطة» - انظر ٢٧، الف، ٤٠: الف.

(٣) فى الأصل و بن: لابليس.

(٤) فى بن: ذكرها.

(٥) زيد فى بن: منه.

(٦) زيد فى بن [٧٨: ب]: و أيضا ان منازعة السوقة تشين السادة و تغير العادة. قال الأصمعى: لما حضرت وكيع بن أبى الأسود الوفاة جمع بنيه فقال: يا بنى! إنى قد جمعت لكم من المال ما ترون من حله و حرامه، فاحذروا أن تأتيكم هذه الباعة من الأسواق فيقولون: على أبيكم دين، يا بنى! إن كان الله عزوجل أن يغفر لى فوالله ما دينى فى ذنوبى إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود، و إن كان لا يريد أن يغفر لى فوالله ما دينى فى تلك الذنوب إلا كحصاة قذفت فى البحر، فشدوا أيديكم على مالكم و احفظوه - و السلام عليكم؛ ثم أعرض عنهم ساعة و مات. [و] دخل ابن السماك الواعظ على أمير المؤمنين الرشيد، فلما وقف بين يديه قال: عظنى يا ابن السماك! قال: كفاك بالقرآن وعظا يا أمير المؤمنين! قال الله تعالى «و يل للمطففين * الذين اذا اكتالوا على الناس=

فصاروا يشترون من الباعة و يأكلون، كما كانوا فى خروجهم مع الطوائف يعهدون، و ليس كل منهم مفكر فى اصطول[1] الفرنج ولا منه خائف[2]، و صارت الحرافيش و العوام يشتمون القبرسى بالصريح، و يسبونه بكل لفظ قبيح، و القبرسى يسمعهم من مراكبه و هو[3] ساكت، وكل من معه لم ينطق بكلمة بل كل منهم ضامت[3]. فقيل: إن القبرسى رمى من أعـــلى الجزيرة فى الليل جواسيسه فى زىّ لباس المسلمين، مستعربين كالشياطين، فاحتاطوا[4] بالمسلمين متجسسين، فرأوهم من لباس الحرب

= يستوفون * و اذا كالوهم اووزنوهم يخسرون * » (قرآن كريم ٨٣: ١-٣) فهذا يا أمير المؤمنين وعيـد الله لمن طفف فى الـكيل، فما ظنك بمن أخذه كله! فبكى الرشيـد و قال: قال بعضهم: الـكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب، و إذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.

وقف حكيم إلى بعض الملوك فحجب عنه، فكتب له رقعة: الناس فى غفلاتهم و رحى المنية تطحن، و كتب لـه أيضا تحت ذاك: ألم تر أن الفقير يُرجى له الغناء، وأن الغنى يخشى عليه من الفقر؟ فلما قرأها الملك لم يرد أن أدخل رجليه نعليـه وجعل على رأسه لاطية و خرج إليه فى ثوب فقال له: و الله ما اتعظت بشىء بعد القرآن اتعاظى بما كتبت به! ثم قضى حوائجه - انتهى.

نعود، ثم إن أهل الإسكندرية صاروا يشترون - الخ.

(١) فى بن: الاصطول.

(٢) زيد فى بن: مفتون.

(٣-٣) فى بن: وكل من معه سكوت لم ينطقوا بكلمة.

(٤) فى بن: فاختلطوا.

عاريين[1] ، فاشتروا كما قيل من المأكول[2] ، و أتوا به[3] لصاحب قبرس بالأسطول[4] ، و قالوا له : ليس بالجزيرة أحد من الشجعان ، و ليس بها إلا من هو من لباس الحرب عريان ، يأكلون و يشربون ، و بعضهم يحفر فى الرمل حفائر و بها ينامون .

فلما كان قبل [طلوع –[5]] الشمس من يوم [١٠٣ : الف] الجمعة أقبلت العربان ، من كل ناحية و مكان ، قد تخللوا بالكسيان ، وكانت النسوان ينظرن إلى مراكب الفرنج من رؤوس الكيمان ، التى هى[6] داخل السور ، المشرفة على القبور ، فزرغتت[7] النسوان ، لتلك العربان ، و قلن : قد أتت الشجعان ، يقتلون عُبّاد الصلبان ، فصاروا يتطاردون على خيولهم تحت الكيمان . و قد أرخوا لها الأعنّة عند سماعهم[8] الزرغتة[9] ، و تلك العربان من كثرتهم كالمطر ، خارجين من الباب الأخضر ، فصاروا فى[10] الجزيرة كالجراد المنتشر ، و كل من سرابيل الحرب منقشر ، ليس مع كل واحد منهم غير سيفه الأجرب[11] و رمحه ، قاصدا إما لقتله

(١) فى بن : عارين .
(٢) زيد فى بن : بالورق التى ... لذلك فيما مضى – كذا .
(٣) فى بن : بها اشتروه .
(٤) فى بن : لاسطول .
(٥) زيد من بن .
(٦) فى بن : فى .
(٧) و توجد الكلمة أيضا : فزغرتت . و الزغرتة فى اللغة العامية المصرية عبارة عن صيحات الفرح و التهليل من جانب السيدات .
(٨) العبارة من هنا إلى « كثرتهم » مطموسة فى بن .
(٩) و توجد الكلمة أيضا : الزغرتة .
(١٠) فى بن : إلى .
(١١) ساقطة من بن .

أو لجرحه . فقال أحد المغاربة و غيره للأمير جنغرا : هذا عدو ثقيل و قد خرجت النـاس [1]من الثغر[1] عرايا للبلايا ، و المصلحة دخولهم المدينة ، يتحصنون[2] بأسوارها الحصينة ، و [3] يقاتلون من خلف الأسوار ، ليظن العدو أن خلفها كل رجل كالأسد المغوار[4] ، يذيقونه برميهم عليه الشدة[5] ، إلى أن تصل من مصر النجدة . فقال من[6] له رباط بالجزيرة ، قد انصرف على بنائه ألوف كبيرة[7] ، بنيت بين مقـابر الأموات ، لمبيت[8] طوائف القاعات : ما نـترك هؤلاء الفرنج الذين[9] كل منهم رجس[10] مقامر ، يطؤون بأرجلهم تُرَب المقابر . قالوا ذلك خوفا على ربطهم[11] تخربها الفرنج إذا نزلوا الجزيرة ، بجموعهم الكثيرة . فقال عبد الله التاجر المغربي[12]

(١-١) ليس فى بن .

(٢) زيد فى بن : بها و .

(٣) ليس فى بن .

(٤) فى بن : الغوار .

(٥) فى بن : كل بلاء و شدة .

(٦) فى بن : من .

(٧) فى بن : كثيرة .

(٨) فى بن : لتبيت بها .

(٩) من بن ، و فى الأصل : الذى .

(١٠) فى بن : رجل .

(١١) فى بن : اربطتهم .

(١٢) زيد فى بن : المعروف بالبناء .

الجنعرا: دخول[1] المسلمين البلد أصلح لهم. فقالت أرباب الربط: أنتم يا مغاربة! أخربتم بلدكم طرابلس بأخذ الفرنج[2]، و تريدون أن تخربوا ربط المسلمين بدخول المسلمين[3] البلد، لا كيد لكم[4] و لا كرامة بل نمنعهم النزول من المراكب، و نذيقهم بالسهام العذاب الواصب.

ثم لما كان بعد وقعة القبرسي بسنتين رسم السلطان الملك الأشرف شعبان[5] بهدم ما تجدّد فى الجزيرة من الربط و القصور احترازا من العدو أن ينزلها فيجد مأوى يؤويه[6] و يجد ما يشرب من صهاريجها المملوءة بماء الأمطار، فهدمت تلك الربط و القصور، و لو كان[7] المسلمون تركوا للقبرسى[8] الجزيرة[9] و تحصنوا بالسور، و قاتلوا من ورائه كل رجس كفور[10]، لكان[11] المسلمون بتحصينهم بالثغر، سلموا من القتل و النهب

(١) فى بن: دخلوا.

(٢) زيد فى بن: لها.

(٣) فى بن: الناس.

(٤) من بن، و فى الأصل: لك.

(٥) الأشرف ناصر الدين شعبان (٧٦٤ – ٧٧٨ ﻫ / ١٣٦٣ – ١٣٧٦ م).

(٦) فى بن: يأويه فى الليل و النهار.

(٧) فى الأصل و بن: كانت.

(٨) فى بن: للعدو.

(٩) العبارة من هنا إلى «كفور» ليست فى بن.

(١٠) فى بن: تفور إلى أن تصل النجدة فى أقرب مدة.

(١١) فى الأصل و بن: لكانت.

و الأسر ، و ما كان عليهم من إخراب الفرنج للرُبُط المبنية[١]، لسلامة الإسكندرية ، من أذى الملة النصرانية . فالذين خافوا على ربطهم تخربت ، [١٠٣ : ب] و[٢] دورهم التى ٣داخل البلد٣ نهبت ، و ذلك بالرأى الغير صائب ، حتى حلت[٤] بهم المصائب ، لكن القضاء إذا نزل لا يرد ، و إذا أراد[٥] الله بحكم نفذ ، قال بعضهم :

قضاء المهيمن لا يدفع   إذا حل من ذا له يمنع

و قال الآخر :

و إذا أراد الله إنفاذ القضا   لم يكن فيه لمخلوق مفر – انتهى

نعود إلى[٦] ركون الأمير جنغرا[٧] لكلام أصحاب الربط ، و تركه لما ٨قاله له٨ عبد الله التاجر المغربى . فكان جواب جنغرا[٧] لعبد الله التاجر المذكور : لست أترك أحدا من الفرنج يصل إلى الساحل و لو قطعت منى الأوداج ، و نفذت المقاتل ، و إذا أراد الله أن يلطف

---

(١) فى بن : المهينة .

(٢) ليس فى بن .

(٣–٣) فى بن : بالبلد و .

(٤) فى بن : صلت – كذا .

(٥) فى بن : حكم .

(٦) زيد فى بن : ذكر .

(٧) فى بن : جنغر .

(٨–٨) فى بن : قال .

بعبده ألهمه حسن التدبير، و إذا خذله[1] شتّت رأيـه . ثم إن الفرنج صاروا بمراكبهم ينظرون أحوال الناس، فلم يروا إلا من هو عار[2] من اللباس[3]، فطمعوا فيهم، و زحفوا بغراب التقدمة إليهم، فنزلت[4] إليه طائفة من المغاربة خائضين فى الماء، ناوشوا من فيه القتال و الحرب و النزال، و مسكوا الغراب بأيـديهم[5]، و طلبوا من الزراقين النار ليحرقوه، فـلم يأت أحد بشرارة[6]، و ذلك لقلة همتهم، و تهاونهم و غفلتهم، فاستعجلوهم بالنار، فرموا بمدفع فيه نار كنار الحلفاء، فوقع فى الماء فانطفا، ثم إن المغاربة و أصحاب الغراب ضربوا بعضهم بعضا بالسيوف إلى أن قتلت المغاربة فى تلك المحاربة . فحينئذ دخل الغراب الساحل، و تبعه آخر كان يرمى بالسهام[7]، فلما دخلا البر تتابعت الغربان[8] داخلة من أماكن متفرقة، فنزلت الفرنج سريعا من مراكبها بخيلها و رجلها وقت ضحى نهار[5] يوم الجمعة إلى البـر، فرمت الخيالة المسلمون[9] بالسهام، تقدمهم أصحاب الدرق و السيوف مشاة على الأقدام .

(١) فى الأصل و بن : أخذله ـ كذا .
(٢) فى الأصل : عارى. و فى بن [٧٩ : الف] : و هو عارى من الناس .
(٣) فى بن : الناس .
(٤) فى بن : فبرزت .
(٥) ليس فى بن .
(٦) زيد فى بن : نفط .
(٧) زيد فى بن : خلفه .
(٨) زيد فى بن : بأجمعها .
(٩) فى بن : على المسلمين .

فلما رأت الباعة للطعام الذين كان [1] كل واحد [1] منهم يحاق [2] على الحبة و الحبتين، ترك ماعونه [3] و هرب حافيا بغير نعلين، فمنهم من نجا من الكفرة، و منهم من صارت هامته على الأرض مكركرة [4]، وكانت الفرنج مسربلة بالزرد النضيد، متجلببة بصفائح الحديد. على رؤوسهم الخود اللامعة، و بأيديهم السيوف القاطعة، [5] قد تنكّبوا القسى الموتورة، و رفعوا أعلام الصلبان المنشورة، و صاروا يرمون [6] على المسلمين [7]، فارتشقت سهامهم فى أهل [8] الإيمان، و [9] فى خيول العربان، فهجت بهم تلك الخيول فى كل جهة و مكان، فانهزموا إلى ناحية السور، فصار جيش المسلمين بهزيمة العربان مكسورا [10]، و لا عادوا قابلوا الفرنج [١٠٤ : الف] الكلاب، بل دخلوا البلد غائرين من الأبواب، و كانت الفرنج لابسين الحديد من الفرق إلى القدم، و المسلمين كلحم على وضم، فكيف يقاتل

(١-١) فى بن : الواحد.
(٢) فى الأصل و بن : يحاقق - كذا.
(٣) فى بن : باعونه.
(٤) فى بن : مكررة.
(٥) زيد فى بن : و.
(٦) فى بن : يرموا.
(٧) زيد فى بن : بالسهام.
(٨) زيد فى بن : الاسلام و.
(٩) زيد فى بن : ركزت.
(١٠) فى الأصل : مكسور، و وقع فى بن : بمكسور - كذا.

اللحم الحديد ، و كيف يبرز العارى لمن كس الزرد النضيد[١] ، فانهزم[٢] المسلمون و ولوا[٣] ، و من الكفار فروا[٤] ، فقال الشاعر فى ذلك :

قد ولت[٥] المسلمون لما باللبس وافاهم[٦] جنود
و كيف لا يهربون[٧] منهم و الناس لحم و هم حديد

ثم إن أهل الإسكندرية لما رأوا ما لم يعهدوه أبدا ، و لا شاهدوه على طول المدى ، رجفت منهم القلوب ، و صار كل واحد من عقله مسلوبا[٨] ، لما رأوا من الرؤوس الطائرة ، و الخيول الغائرة ، فتزاحموا على[٩] الأبواب بعضهم على بعض ، فصاروا موتى بالطول و العرض ، و ثبت بعض الناس و قاتل و هو مجتهد ، حتى قتل من الفرنج ما تيسر له قبل أن استشهد . قيل إن محمد الشريف الجزّار هجم على الفرنج بساطور المجزرة ، جعل عظام جماعة منهم مكسّرة ، و هو يقول : الله أكبر !

---

(١) فى بن : النضديد ـ كذا .

(٢) فى الأصل و بن : فانهزمت .

(٣) فى الأصل و بن : ولت .

(٤) فى الأصل و بن : فرت .

(٥) فى بن : فرّت .

(٦) فى بن : وافتهم .

(٧) فى بن : يهزمون .

(٨) فى الأصل و بن : مسلوب .

(٩) فى الأصل و بن : فى .

قتل من كفر ؛ إلى أن تكاثرت[1] عليه منهم جماعة كبيرة ، فاستشهد رحمه الله بالجزيرة . و رُئى بعض فقهاء المكاتب و يعرف بالفقيه محمد بن الطفال و هو قاصد الفرنج بسيفه ، فقيل له : تموت يا فقيه محمد ! فقال : إذًا أسعد و أصير مجاورا للنبي محمد ، و أى موتة أحسن من الجهاد فى سبيل الله لأصير إلى الجنة . و هجم فيهم فصار يضربهم و يضربونه إلى أن رُزق الشهادة ، و ختم له بالسعادة .

روى أن عمرو بن الجموح كان أعرج شديد العرج ، و كان له بنون أربعة مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه و سلم المشاهد ، فلما كان يوم وقعة أحد أرادوا حبسه عن الخروج و قالوا له : إن الله[2] عذرك بقوله « ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج[3] » . فأتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله ! إن بنىّ يريدون حبسى عن هذا الوجه و الخروج معك فيه ، فو الله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة ! فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أما أنت فقد عذرك الله ، فلا جهاد عليك . و قال لبنيه : ما عليكم ألا تمنعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة . فخرج معه فقتل[4] رحمه الله - انتهى .

نعود إلى ذكر من قاتل بالجزيرة[5] من المسلمين للفرنج الكافرين ،

(١) فى بن : تكاثر .
(٢) زيد فى بن : قد .
(٣) قرآن كريم ٢٤ : ٦١ .
(٤) زيد فى بن : يوم احد .
(٥) فى الهامش : ذكر من قاتل بالجزيرة .

و ذلك أن جماعة من رماة قاعة[1] القرافة [١٠٤:ب] المتطوعة[2] لما حوصروا فى الرباط الذى عمّره لهم الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بالجزيرة بسبب مبيتهم فيه و صلواتهم[3] و ذكرهم ليلة خروج طائفتهم ترابط به، و كان بناؤه قبل الوقعة بما يزيد على سنة، قيل: إنه انصرف على عمارته ثمانمائة دينار. فلما تكاثرت[4] الفرنج حول الرباط[5] صارت رماة المسلمين فى أعلاه يرمون على الفرنج بسهامهم، فقتلوا من الفرنج جماعة، فلما نفدت[6] سهامهم عمدوا إلى شرفات الرباط صاروا يهدمونها و يرمون الفرنج بأحجارها إلى أن نفدت حجارة[1] الشراريف[7] [8]منهم فانقطع رميهم، فكسرت الفرنج شبابيك[8] الرباط المذكور و صعدوا إليهم. فلما صارت الفرنج معهم صاحوا بأجمعهم: يا لمحمد! و صمتوا فلم يسمع لهم بعد ذلك صوت. أخبر عنهم بذلك عبد الله ابن

(١) ليس فى بن.

(٢) فى بن: المتطوعين.

(٣) فى بن: صلاتهم.

(٤) فى بن: تكاثر.

(٥) زيد فى بن: المذكورين.

(٦) فى بن: فقدت.

(٧) فى بن: شراريف.

(٨-٨) ليست فى بن.

الفقيه أبي[1] بكر قيم مسجد القشميري . كان مختفيا بصهريج[2] المذكور ، فذبحتهم الفرنج عن آخرهم بخناجرهم ، فصارت أدميتهم تجرى من ميازيب[3] الرباط المذكور بجرى الأمطار حين إبانها منها . و قيل : كان عدد المذبوحين فوق سطح الرباط من المسلمين الزيادة على الثلاثين ، فطوبى لهم إذ رزقوا الشهادة ، و ختم لهم بالسعادة .

فلما رجع من خرج من الإسكندرية فارا من الفرنج من أبواب البر ، كما سيأتى ذكر صفة فرارهم ، و عاينوا القتلى المطروحين بالأرض داخل[4] البلد و خارجه[5] بالجزيرة ، قصدوا رباط ابن سلّام المذكور ، فرأوا تحت الميازيب[6] دماء كثيرة جامدة ، فصعدوا إلى سطحه فوجدوا الرماة قد ذبحوا ، و بالجنة قد فرحوا و ربحوا ، فحفر لهم خارج الرباط [7]قبر متسع[7] و دفنوهم فيه[8] رحمة الله عليهم ، فكانوا كما قال الله تعالى فى أمثالهم ”و قاتلوا و قتلوا لأكفرنّ عنهم سيأتهم و لأدخلنّهم جنت

(١) من بن ، و فى الأصل : أبو .

(٢) زيد فى بن : الرباط .

(٣) فى بن : مزاريب .

(٤) فى بن : خارج .

(٥) فى بن : داخله .

(٦) فى بن : الميزاب .

(٧-٧) فى الأصل : قبرا متسعا ، و فى بن : فحفر لهم خارج البلد عند الرباط حفيرة متسعة دفنوا بها .

(٨) العبارة من هنا إلى « الثواب » ليست فى بن .

تجرى من تحتها الانهر ثوابا من عند الله و الله عنده حسن الثواب[1] ".

قال المؤلف غفر الله له و لوالديه و للمسلمين أجمعين: حــدثنى الشيخ الصالح [2]أحمد بن[2] النشائى (كذا) شيخ رماة قاعة القرافة بالإسكندرية قال: حدثنى محمد الخياط بعد قدومه من مدينة قبرس مع من حضر من أسارى الإسكندرية الراجعين إليها منها قال: كنت مع رماة المسلمين [3]على سطح[3] رباط ابن سلّام حين صعدت الفرنج إلينا، فصاروا يذبحون الرماة و أنا أضطرب من الخوف، فتركونى حيا لصغر سنى، و أما حسين البياع فانهم[4] لما قصدوا [١٠٥ : الف] ذبحه ضحك لهم فضحكت الفرنج لضحكه و قالوا: اتركوه لأنه ضحك موضع الخوف، قال: فأسرنا الاثنين، فحزن حسين بعد ذلك و بكى؛ فلما رجعنا مع أسارى الإسكندرية فى البحر[5]، فعند ما رآها حسين المذكور قام قائما على قدميه، و صرخ فوقع مغشيا عليه، فحركناه فوجدناه ميتا، فحصل له سعادة لخروجه من أرض الكافرين، و فرحة لرؤيته لبلد[6] المسلمين، فكان بكرم الله من أهل الجنة الفرحين المستبشرين.

عن فضالة بن عبد الله أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول:

(١) قرآن كريم ٣ : ١٩٥.

(٢-٢) فى بن: ابن العباس احمد.

(٣-٣) فى بن: فوق.

(٤) فى بن: فانه.

(٥) زيد فى بن: بعد مدة.

(٦) فى بن: بلد.

الشهداء أربعة : فرجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع إليه الناس أعينهم يوم القيامة هكذا - و رفع رأسه حتى وقعت قلنسيته[١] ، و رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو كأنما يُضرب جلده بشوك الطلح من الجبن أتاه سهم غرب فقتله فهو [فى-[٢]] الدرجة الثانية ، و رجل مؤمن خلط عملا صالحا و آخر سيئا ، لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة[٣] ، و سيأتى ذكر الشهداء[٤] و فضلهم إن شاء الله تعالى - انتهى .

نعود ، و لما رأى الشيخ[٥] محمد بن سلام ما فُعل برباطه من [أخذ -[٦]] بابه و شبابيكه النحاس و كسر قناديله و حرق سقف إيوانه و قتل رماة المسلمين به[٧] بكى و تألم على ما رأى و شاهد ، فسدّ حينئذ شبابيكه و بابه بالحجارة[٨] ، ثم إنه عمّره ثانيا فى سنة إحدى و سبعين و سبعمائة ، فصار كما كان أولا ، لكنه أقبى سقف إيوانه بالحجارة لا بالخشب حتى لا يصير للنار

---

(١) فى بن : قلنسوته .

(٢) زيد من بن .

(٣) من بن ، و موضعه بياض فى الأصل ؛ و لم يذكر الشهيد الثالث فتأمل .

(٤) انظر فيما بعد ٢٣٩ : الف ذكر ما قيل فى الشهداء و فضل الشهادة ، كذلك فى « ق » ذكر ما جاء فى فضل الشهداء و ما أعده الله تعالى لأوليائه فى الجنة .

(٥) زيد بن : ابو عبد الله .

(٦) زيد من بن .

(٧) فى بن : بسطحه .

(٨) زيد فى بن : اقام مدة كذلك .

فيه عمل إن حدث أمر[١] ، و هذا الرجل و هو محمد بن سلام المذكور صاحب هذا الرباط من عباد الله الصالحين المتصدقين ، له صدقات جارية على أهل الصلاح و المساكين ، صدقاته فى السر و الإعلان ، بالدراهم و الخرفان ، يفرق الضحايا فى عيد النحر فوق المائة خروف ، و يكسى جامع الإسكندرية الغربى بالحصر صفوفا بعد صفوف[٢] ، فجزاه الله عن فعله خيرا ، فقاعة القرافة التى هى برسم الرماة المتطوعة من بعض وقوفاته ، ينفعه أجرها فى حياته و مماته ، فمن فرش رقد ، و من زرع حصد ، قال الشاعر :

سيترك الجامعون ما جمعوا و يحصد الزارعون ما زرعوا

فأهل الصدقات ينالون من الله الحسنات ، مع ارتفاع الدرجات فى الجنات ، فتشبهوا بهم تكونوا مثلهم ، إن التشبه بالكرام فلاح - انتهى .

[٣]نعود إلى [١٠٥ : ب] ذكر خبر الإسكندرية[٣] ، و ذلك أن الأمير جنغرا المتقدم ذكره لما رأى الناس فروا من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و شماله بلذع سهام الفرنج ، و التذع هو أيضا بها ،

(١) زيد فى بن : مثل ذلك .

(٢) زيد فى بن : و جعل له على ذلك وقفا موقوف .

(٣-٣) العبارة مذكورة أيضا فى هامش الأصل كالعنوان . و لفظ « خبر » مكرر فى بن .

و سال

و سال دمه من نصلها ، ندم على مخالفته لقول القائل له : ادخل [١] بالناس ليتحصنوا[١] بأسوارها الحصينة ، يقاتلوا الفرنج الكفار بسهامهم من كوى الأسوار ، إلى أن تأتي النجدة ، في أقرب مدة ، ليزول بحضورها عن المسلمين الشدة . فتيقن حينئذ أن عدم خروجهم من الأبواب ، كان عين الصواب ، و أن الذي أشار عليه[٢] بعدم دخولهم البلد . كان فيه أليم العذاب . و صار كل منهم بالفرار مركونا[٣] ببلد البسلقون ، و بلد[٢] الكريون ، و غيرهما من البلاد ، الدانية و البعاد[٤] .

ثم إن جنغرا قصد ناحية المطرق[٥] المحاذي لدار السلطان غربي الإسكندرية من ظاهر سورها ، خائضا بفرسه في الماء و من تبعه من المسلمين . فدخل الإسكندرية من باب الخوخة ، فأتى بيت المال ، أخذ ما كان فيه من [٦]ذهب و فضة[٦] أخرجها[٧] من باب البر ، و أمر بتجار

(١-١) في بن : الناس المدينة يتحصنون .

(٢) ليس في بن .

(٣) في الأصل و بن : مركون .

(٤) في بن : القاصية .

(٥) انظر أيضا فيما بعد عن تحصينات الإسكندرية ١٨٦ : ب ، ١٨٧ : الف و كذلك ٢٧٥ : ب ، ٢٧٦ : ب .

(٦-٦) في بن : الذهب و الفضة .

(٧) من بن ، و في الأصل : اخرجها - كذا .

الفرنج و قناصلهم[١] و كانوا نحو خمسين[٢] بالإسكندريـــة مقيمين[٢] ، أخرجهم من باب البر[٣] ، [٤]وجّههم إلى ناحية دمنهور بعد أن امتنعوا من الخروج مع الجبلية المرسمين عليهم ، فعند ذلك ضرب أحد الجبلية عنق[٥] إفرنجى منهم بسيفه ، فحين رأوا ذلك خافوا أن تضرب أعناقهم[٦] ، فأذعنوا بالخروج سرعة ، فخرجت الجبلية بهم مسلسلين إلى جهة دمنهور[٧] . و كان خروجهم بهم حين انضمام العدو إلى القرب من السور ، فرماهم[٨] المسلمون من أعلى السور بالسهام ، فلم يقدروا على الوصول إليه .

ثم إن الفرنج عمدوا إلى بِتّيّة خشب ملأوها حريقا و قصدوا بها حرق باب البحر [٩]بكركرتها بأسنة الرماح[٩] ، فتتابعت عليهم السهام من أعلى السور ، فقتل من الفرنج جماعة ، فحاروا فى أمرهم ما ذا يفعلونه ،

---

(١) مطموس فى بن ، و فى الأصل : قناصلتهم . انظر فى موضوع القناصل أيضا ٩٥ : الف و بعد ١٨٦ : الف .

(٢-٢) فى بن : علجا .

(٣) العبارة من « و أمر بتجار » منقولة عن هامش الأصل .

(٤) زيد فى بن : و .

(٥) زيد فى بن : واحد .

(٦) زيد فى بن : بأجمعهم .

(٧) زيد فى بن : الدحس .

(٨) فى الأصل و بن : فرمتهم ـ كذا .

(٩-٩) ليست فى بن .

فتركوا البتّية تَقِد بنارها[1] بعيدا من الباب، و رجعوا[2] إلى ناحية المينا الشرقية و نظروا فلم يجدوا على السور من تلك الجهة أحدا و لا ثَمَّ خندقا يمنع من الصعود إلى السور، فدرجوا إلى جهة باب الديوان[3]، أحرقوه، و دخلوا[4] مع ما نصبوا هناك من السلالم الخشب المفصلة[5]، صعدوا عليها السور، فلما رآهم[6] المسلمون الذين على السور من البعد قد صعدوه و بينهم و بين الفرنج قلعة عالية[7] غير نافذة إليهم شردوا طالبين النجاة منهم لكثرتهم و لتحققهم[8] بأن الفرنج ملكت البلد، فقتل من المسلمين من أدركته الفرنج، و سلم منهم من خرج من أبواب[9] البر، فلو كان [١٠٦ : الف] السور الذي يلي البحر جميعه معمرا بالرجال من جهة الديوان و الصناعة[10] سلمت منهم الإسكندرية . و إنما قال شمس الدين بن غراب كاتب الديوان و شمس الدين بن أبي عذيبة الناظر :

---

(١) في بن : نارا .

(٢) زيد في بن : المقهقرين .

(٣) زيد في بن : الذي بالسور .

(٤) زيد في بن : منه .

(٥) زيد في بن : المركبة بعضها في بعض و .

(٦) في الأصل و بن : رأتهم .

(٧) في بن : واحدة .

(٨) في بن : تحققهم .

(٩) في بن : باب .

(١٠) انظر أيضا ١٠٩ : ب، ١٨٦ : ب .

أغلقوا باب الديوان الذى يلى[1] البلد لئلا تنقل التجار بضائعها منه إلى البلد، فتضيع الحقوق التى عليها، فقفل الباب، فلذلك امتنعت الرماة من[2] تلك الجهة من السور، فبذلك رأى العدو جهة[3] خالية[4] دخل[5] البلد منها . و قيل إن ابن غراب[6] المذكور كان متعاملا مع صاحب قبرس عليها، و إن صاحب قبرس أتاها قبل الوقعة فى زىّ تاجر آواه ابن غراب المذكور[7] مدة، فصار القبرسى يتمشى بالبلد من جملة الفرنج التى بها تجارا[8] و هو يكيّفها، و ينظر أحوال الناس بها، فلما[9] علم ذلك بعد الوقعة وسّط[10] الأمير صلاح الدين بن عرام بعد قدومه من الحجاز [11] شمس الدين[11] بن غراب المذكور و علقه قطعتين على باب رشيد .

(١) فى بن : من داخل .

(٢) زيد فى بن : حراسة .

(٣) فى بن : جهته .

(٤) زيد فى بن : من غير خندق مانع .

(٥) فى بن : فدخل .

(٦) زيد فى بن : الكاتب .

(٧) زيد فى بن : عنده .

(٨) ليس فى بن .

(٩) من بن ، وفى الأصل : فلمّ .

(١٠) من بن ، وفى الأصل : وسطه ، و لكنها على ما يظهر مصححة الى : وسط . و هى كلمة غريبة ، و المقصود فى الغالب أنه قطعه من وسطه بالسيف .

(١١-١١) ليس فى بن .

فلو فتح باب الديوان الذى يلى البلد قاتل[١] المسلمون الفرنج من أعلى سوره، و وجدوا[٢] ما يقوتهم بالأكل من نقل الشام، و كانت أصحاب البضائع [٣]تحرسها و يطعمون منها المجاهدين[٣].

فلما لم يكن للأمير جنغرا رأى صائب، و قفل ابن غراب و الناظر لباب الديوان[٤] أخذت الفرنج البلد منه[٥] و نفذت المقادير من كل كبير، من أهل الثغر و صغير. فمنهم من قتل و منهم من أسر، و منهم من [٦]سلم و منهم من كسر[٦]، و منهم من هرب، بعد أن ألقى سلاحه[٧] و اضطرب، و منهم من ترك وطنه و تغرّب، و منهم من ازدحم فى الأبواب و مات، و منهم من افتقر و بلى بالشتات. فما أسرع ما أخذ الثغر، [٨]و ما أعجل ما انكوى[٨] قلوب أهله بالجمر[٩]، ظفرت به الفرنج فى اليوم الذى نزلوا فيه من مراكبهم إلى البر، و لا أمسك[١٠] بالحصار

(١) فى الأصل و بن: قاتلت ـ كذا.

(٢) فى بن: كانوا جادوا.

(٣-٣) فى بن: سمحون بذلك.

(٤) زيد فى بن: كما قيل عنهما ذلك.

(٥) فى بن: من تلك الجهة.

(٦-٦) فى بن: وقع من السور كسر.

(٧) زيد فى بن: من الخوف.

(٨-٨) فى بن: فما اشرع ما انكوت.

(٩) زيد فى بن: و.

(١٠) فى بن: مسك.

يومين ، بل أخذ من المسلمين فى ساعتين . و قد قيل : إن الحصار للمدن و الحصون[١] تمسك السنة و السنتين .

أخبرنى الشيخ الفقيه العالم الفاضل المدرس أبو عمرو التونسي عن جده لأمه قال : إنى[٢] من أهل مدينة لُرقة ببرّ الأندلس ، و إن الفرنج حاصرتها و أنا بها مدة تزيد على ثلاث[٣] و عشرين سنة ، و بنوا إلى جانبها بلدا . و انتهى أمر المسلمين فيها إلى أن كان الرجل يخرج بالطبق فيه الذهب و الجوهر لم يجد من يملأه له عوض ذلك قمحا و لا شعيرا ، و لا بقى عندهم[٤] كلب و لا هرّ و لا فأر[٤] حتى أكلوه[٥] . و وقدوا سقوف [١٠٦ : ب] ديارهم تحت قدور عصائدهم . و بعد ذلك[٦] صالحوا الفرنج على أنفسهم ، و خرجوا[٧] بعد المدة المذكورة فتسلمتها الفرنج بعد تلك المدة الطويلة . و أهل الإسكندرية تسلمتها الفرنج منهم فى بعض يوم بفرارهم منها[٨] و عندهم ما يأكلون و يشربون إلى أن تصل إليهم

(١) ليس فى بن .

(٢) فى بن : نحن .

(٣) فى الأصل و بن : ثلاثة .

(٤-٤) فى بن : كلاب و لا قطط و لا فيران .

(٥) فى بن : اكلوها .

(٦) فى بن : تلك المدة الطويلة .

(٧) زيد فى بن : منها .

(٨) زيد فى بن : و خروجهم عنها .

النجدة من مصر ، فلا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم ، و لكن هكذا قُدّر ، و أيضا لو[١] أقاموا ببلدهم ، و رمى كل واحد من أعلى داره على الفرنج بالحجار[٢] ، سلمت لهم[٣] ما فى الدار ، كفعل ابن نخالة[٤] كاتب المحجة على بيع ثمرة البساتين برميه هو و رجاله على الفرنج بالحجار[٢] ، من أعلى الديار ، فلم يوجد بالمحجة بعد ذلك علج[٥] يمر بها ، بل أخذت الفرنج حذرهم منها[٦] ، فسلمت ديار المحجة من النهب .

فلما دخل الإسكندرية الأمير الأتابكى يلبغا الخاسكى بعد الوقعة قيل له ذلك ، فقال: إذا كان النخال حفظ جهته فكيف لو كان دقيقا [٧]أو سويقا كان[٧] حمى البلد ولم يدخل إليه من الإفرنج أحد[٨] - انتهى .

---

(١) زيد فى بن : كانوا .

(٢) فى بن : بالحجارة .

(٣) زيد فى بن : انفسهم و كل .

(٤) فى بن : عبد الله المشهور بابن نخالة .

(٥) زيد فى بن : من الكفار .

(٦) فى بن : منهم .

(٧-٧) ليس فى بن .

(٨) زيد فى بن (٨١ : ب) : و لكن أهل الإسكندرية فى ذلك الوقت لم يكونوا شاهدوا قتالا قط و لا عرفوه ، بل كل منهم فى أمن و رخاء عيش ، فلما رأوا ما ليس لهم به طاقة . . . و أمن بلادهم إلى غيرها لعدم طاقتهم بما لم يعرفوه =

و كان فرار أهل الإسكندرية من الفرنج من باب السدرة و باب الزهرى و باب رشيد ، بعد زحام شديد . فمنهم من أدركته الفرنج بباب السدرة فقتلته ، و منهم من أسرته ، و منهم من نزل من السور فى الحبال و العمائم ، فعطب العاطب و سلم السالم ، و صعدت الفرنج[1] على أعلى باب السدرة نصبت عليه الصلبان ، و صار كل واحد من المسلمين برؤيته للفرنج كالهائم الولهان[2] . و كان خروج أهل الإسكندرية من الأبواب ، من أعجب العجاب ، و ذلك لازدحامهم و هلاك بعضهم[3] من قوة الزحمة و فى ذلك الوقت نزعت من قلوبهم الرحمة ، فخرج من الأبواب ألوف مؤلفة ، بتوحيد الله معترفة . فامتلأت منهم الغيطان و البلدان ، و نهب بعضهم العربان ، و غلا السعر بينهم ، ما جلبته الباعة إليهم من البلدان ، فباعوا الغالى بالرخيص ، و صار كل منهم على تحصيل[4] القوت

= و إلا القوة من وقوع الحرب و الطعن و الضرب و أما [طاحون] خليل الديروطى فانها كان فيها ثمانية عشر بغلا ، فدخلتها الفرنج ليأخذوا تلك البغال يحملونها . . . . ثم إلى المراكب ، فتقدم إليهم بغل منهم ، صار كل من يقدم للبغال حمل عليه وكدمه بأسنانه ورفسه . . . . و الفرنج على أخذ بغل منهم بسبب قتال البغل وكان فعله ذلك بهم لزى لباسهم الذى لم [يشهده] البغل قط . وكان بعض صناع الطاحون مختفيا ينظر فعل البغل بهم ، فذكر ذلك بعد انصراف الفرنج ، فسموا البغل بالمجاهد فصارت هذه التسمية علما عليه يعرف بها من بين البغال .

(١) العبارة من هنا إلى « الهائم » ليست فى بن .

(٢) فى بن : كالولهان .

(٣) فى بن : من هلك .

(٤) فى بن : طلب .

حريصا[1]، و لا أمكنهم ترك القوت لزيادة الغلاء، و لا رجعوا إلى قول الشاعر فى بيته السائر بين الملأ، و هو:

و إذا غلا شىء علـى تركته   فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

لأن[2] الجوع ما معه صبر، و لأنه فى الفؤاد أحر من الجمر. و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب خبر الأمير سلار[3]، [4]الذى حوى من الأموال التى هى كالبحر [١٠٧ : الف] الزخار، و من[4] الحبوب ما ضاقت بـه[5] الشؤن الكثيرة[6]، و مات بشهوة كسرة خبز أو لعقة من عصيدة و حريرة [7]حتى قيل إنه أكل أخفافه و أكتافه من شدة الجوع[7]. و سيأتى أيضا ذكر ما حصل لبعض الناس فى الغلاء من البلاء إن شاء الله تعالى - انتهى.

نعود ثم أنه لما حصل الغلاء بين أهل الإسكندرية، الذين فروا من الملة

---

(١) فى الأصل و بن: حريص.

(٢) فى بن: لكن.

(٣) انظر فيما بعد ٢٢٧: ب عن تركة سلار.

(٤-٤) فى بن: من كثرة الاموال و.

(٥) فى بن: بها.

(٦) فى بن: الكبار.

(٧-٧) استبدلت هذه العبارة فى بن [٨٢: الف] بما يلى: فما مع الجوع صبر، و فاقده بعد مدة يسكن القبر.

النصرانية، منهم[1] من باع ما عليه من فوطة و فاضل قميص، و منهم من باع ما يتدفأ به من جبة و فرو مصيص[2]، و ذلك لخروجهم من بلدهم سرعة، و ليس مع بعضهم درهم[3] و لا قطعة، بل تركوا ديارهم[4] مغلقة الأبواب، [5]كسرتها و[5] رتعت فيها الإفرنج الكلاب، [6]فنهبتها من الحوانيت و[6] الفنادق، و حملت ما فيها على الجمال و البغال و الحمير و الأيانق . ثم قتلوا من اختفى عند مصادفتهم له من كبير و صغير، و عرقبوا المواشى فمنهم[7] هالك و كسير . ثم إنهم أحرقوا القياسر و الخانات، و أفسدوا النسوان[8] و البنات، و كسر كل علج مارد، قناديل الجوامع و المساجد، و علقوا على السور أعلام الصلبان، و أسروا الرجال و النساء و الإماء[9] و الولدان، و قتلوا كل شيخ عاجز، حتى المجانين و البلهاء و العجائز، و ضاع للناس فى خروجهم من أبواب المدينة،

(١) فى بن: فمنهم .

(٢) زيد فى بن: بالثمن الرخيص .

(٣) ليس فى بن .

(٤) زيد فى بن: وحدائقهم .

(٥-٥) فى بن: فيها المال ملأ الجراب .

(٦-٦) فى بن : بعد كسرهم الأقفال و الأبواب لهبتها مع .

(٧) فى بن: فمنها .

(٨) فى بن: النساء .

(٩) من بن، و فى الأصل: و الاء .

ما استخفوا حمله من ذهب و مصاغ للزينة ، و ذلك من قوة الزحمة ، و طلب النجاة بقوة همة ، فمن الناس من خرج بما كان معه ، و منهم من ضاع ما معه فى تلك الزحمة المفظعة[١] ، و منهم من ضاع ماله الذى خرج به بين الأبواب ، و صار من ضياعه فى حسرة و اكتئاب .

قيل إن بعض تجار الأعاجم خرج من باب رشيد و معه جراب فيه ستة آلاف دينار ، فمن قوة الزحمة فى الباب سقط من بين يديه ، بعد أن كان قابضا عليه ، فما قدر[٢] على الانحناء[٢] يأخذه من الأرض من قوة ازدحام الناس بعضهم لبعض ، بل دفعه من كان خلفه فخرج صحيح البدن من الباب ، مجروح[٣] القلب من ضياع الجراب ، فتفتت أكباده ، و عدم نومه و رقاده ، و صار إلى الجنون انقياده ، و زال عنه عقله و إرشاده ، فصار يستغيث فلا يغاث ، و نحل جسمه حتى صارت[٤] عظامه كالرفات ، [٥]ثم حصل له بذلك الضرر و البؤس ، لما أحيطت به العكوس و النحوس ، فصارت الأحباب[٥] تلومه على ضيعة[٦] الجراب ، فأنشد من لوعة الاكتئاب :

إذا كنت ألقى البؤس عند أحبتى   ترى عنـد أعدائى يكون دوائى

(١) مطموس فى بن ، و فى الأصل : المفضعة ـ كذا بالضاد .
(٢-٢) فى بن : ينحى ـ كذا .
(٣) فى بن : جريح .
(٤) فى بن : صار .
(٥-٥) فى بن : و صار من ذهابه مقهور وعدوه ..... شرور ثم صارت الأصحاب .
(٦) فى بن : ضياع .

[١٠٧ : ب] ثم إن الفرنج فعلوا بالإسكندرية ما تقدم ذكره من نهب بعد كسر ، و قتل و إحراق و أسر ، من عصر يوم الجمعة إلى آخر يوم السبت ثانيه . فكان مما أحرقوا[١] حوانيت الصرف بكمالها ، و سوق القشاشين[٢] بالمعاريج ، و الحوانيت الملاصقة[٣] لقيسارية الأعاجم من خارجها من الجهة الشرقية ، و حوانيت شارع المرجانيين و بعض فنادقه و فندق الطيبة[٤] مع فندق الجوكندار ، و فندق الدماميني الذي بسوق الجوار ، و وكالة الكتان ، المقابلة للجامع الجيوشي بالقرب من العطارين مع سوق الخشابين . و أحرقوا أيضا درابزى[٥] مدرسة ابن حباسة مع سقف الإيوان ، و عبثوا بكل ناحية و مكان ، و أحرقوا باب مدرسة الفخر القريبة من باب رشيد ، و عبث باحراق بعض حوانيت المحجة كل علج مريد .

[٦]ذكر لي[٦] شيخ يسكن بالمحجة قال : كنت مختفيا بأعلى داري في مكان أنظر[٧] من كوّة صغيرة ، فرأيت الفرنج يأتون[٨] إلى الحانوت

---

(١) في بن : احرقوه .

(٢) انظر في هذا : Paul Kahle, in Me'langes Maspe'ro, iii pp. 138-39

(٣) في بن : الملصقة .

(٤) في بن : فندق الطبيعة .

(٥) في بن : دارابزى .

(٦-٦) في بن : حدثني .

(٧) في بن : النظر .

(٨) في الأصل و بن : يأتوا .

المغلوق الباب[1]، فيمد أحدهم على بابه خطة سوداء و يخط من فوقها خطة حمراء، و يلقم الخط النار فيلتهب الباب بسرعة. قيل: إن الفرنج يستصحبون معهم حلق الحراقات المغموسة بالزيت و القطران و الزفت و النفط، [2]فيضع أحدهم الحلقة[2] [3]الواحدة فى نصل السهم الموضوع على متن قوس الركاب و يلقم الحلقة النار و يفك الوتر من الجوزة، فيخرج السهم صاعدا إلى السقف يركز فيه فيلتهب[4] الخشب بسرعة، فينزل[5] إلى الأرض يحرق كل ما فى البيت مما ليس لحملهم به حاجة، يفعلون ذلك نكاية للمسلمين، لعنة الله على الفرنج أجمعين.

و سأذكر الآن ما كانت الملوك[6] تفعله من الحريق لفتح المدن و الحصون إن شاء الله تعالى. ذكروا أن الإسكندر كان يفتح المدائن بالحجارة، حجارة قد هيّأها، و حمل معه حريقا يعالجه أهل الروم، فيطلى به الحجارة، ثم يضرب بها المدائن، فلا يقع الحجر منها على حجر و لا مدر و لا خشب إلا أحرقه فى أسرع من طرفة عين. و كان مسيره

(١) زيد فى بن: بالاقفال.

(٢–٢) فى بن: فتضع الحلقة.

(٣) العبارة من هنا إلى «النار» ليست فى بن.

(٤) فى بن: فيلهب.

(٥) فى بن: فيهبط.

(٦) فى هامش الأصل: ذكر ما كانت الملوك تفعله من الحريق لفتح المدن و الحصون.

فى الأرض رحمة للؤمنين ، وعذابا للكافرين . و النار أيضا من أشد العمل فى استفتاح الحصون ، كما فعل الإسكندر فى مدينة من مدائن الهند بناؤها خشب الساج و القنا ، و ذلك أنه حاصرها أياما كثيرة ، و كان فيها حمام دواجن ، فأمر الإسكندر بصيدها فاصطيدت ، ثم علّق فى أرجلها قوارير النفط و النار ، و خلّى عنها فرجعت إلى أوكارها و أوطانها بالمدينة ، فجعلت القوارير [١٠٨ : الف] تنكسر و تشعل النار حتى أضرمت المدينة نارا ، و خرج أهلها عنها هربا ، فأخذهم أسرى . و قد امتثل هذا بعض الملوك بعد الإسكندر فى مدينة حصينة كثيرة الأهل أطال[1] مقامه عليها ، و كانت سطوحهم[2] مؤلفة بالحلفاء و البردى لكثرة الأمطار بها و دوامها عليها ، فاتخذ من الورق[3] الصينى طيارات ، و عمد إليها فى ليلة شديدة الريح و الظلمة ، فشدّ فى أذنابها قوارير النفط و النار ، و لذع الورق بالنار المحشوة بالنفط ، و طيّرها نحو مدينتهم ، فلما أظلتهم قطعت خيوطها تلك النار ، فتساقطت عليهم ، فاشتعلت مدينتهم نارا ، ففتحوا أبوابها ، و خرجوا هاربين منها[4] .

(١) فى بن : طال .

(٢) فى بن : اسطحتهم .

(٣) فى بن : البوارق .

(٤) زيد فى بن : قال بعضهم ..... فى فحمة الدجى :

طا منظر قد قام خط استوائه كما انقص من ... و خلى عمودا خلفه من ضيائه .

أتلف العبارة و الشعر كليهما ترميم الورقة .

و ذكروا أن ملكين من الهند اقتتلا ، فقهر أحدهما صاحبه حتى صار إلى قلة و ذلة ، فلما اشتد[1] عليه الأمر دعا وزيرا كان لأبيه [2]شيخا كبيرا[2] له تجربة ، و كان قد جفاه و أقصاه قبل ذلك ، فقال له : قد وقعنا فيما ترى ، فما عندك ؟ قال له : مر أصحابك فليصد كل واحد منهم كركيا ، وهم اثنا[3] عشر ألفا[4] . فأعدوا اثنى عشر ألف كركى ، ثم أمر أن يتخذ لها سلاسل رقاق كالخيوط تشد فى أرجلها و تسرج القناديل[5] بفتائلها ، ثم يخلى عن الكراكى فى الليل المظلم ، ففعل ذلك و خلّى عنها فعلت فى الجو فصرخت فصارت تلك القناديل تسرج فى الليل بين السماء و الأرض و أظلت عسكر عدوه ، فنظر العدو إلى النيران فى الهواء[6] ، و سمعوا صراخ الكراكى و جلبتها ، فظنوا [7]أنه أمر[7] من السماء ، فاستعظموا ذلك و شغلهم عن التحرز و الاحتراز ، فهجم عليهم ذلك الملك الذى كادهم بهذه المكيدة هو و جيشه فاصطلمهم و قتلهم ، فحصل

---

(١) فى بن : طال .

(٢-٢) من بن ، و فى الأصل : شيخ كبير .

(٣) فى الأصل و بن : اثنى .

(٤) فى الأصل و بن : الف .

(٥) زيد فى بن : ذوات البرانس الزجاج و تعلق فى اطراق السلاسل السفلى و تشعل النار .

(٦) فى الأصل و بن : الهوى .

(٧ - ٧) فى بن : امرا .

له العز بعد الذلة، بهذه الحيلة المجلّة.

وذكروا أن الإسكندر كتب إلى معلمه أرسطاطاليس: إني هجمت على أمة لا يحصون عددا، ولا يطاقون شدة و[1]بأسا، فأشر[1] عليّ. فكتب إليه: إن هؤلاء القوم لا تقدر عليهم بالمحاربة، ولكن بالحيل اللطيفة[2]، فاتخذ ألف فرس بفرسانها من نحاس أجوف تمشونها بلوالب وفي أيدي فرسانها النيازك[3]، وأشعل النيران في أجوافها لتخرج[4] من مناخرها وأفواه فرسانها، ثم عودها خيلكم لتأنس بها، فاذا آنست بها فأنشب الحرب بينك وبين القوم، ثم انهزم عنها وخلّ تلك الخيول بفرسانها النحاس، ففعل، فلما هجمت عليها خيل القوم رجعت ناكصة بهم، نافرة من تلك النيران التي خرجت من أفواه الفرسان النحاس ومن مناخر الخيل النحاس، فاستعظموا ذلك وشغلهم [١٠٨ : ب] عن التحرز والاحتراز، فشد عليهم عند ذلك الإسكندر فاصطلمهم وقتلهم.

وذكروا[5] عن أصحاب الأترسة لما لقوا عدوهم أشاروا إلى خيل عدوهم[6] بالتماثيل المشوهة الهائلة الوحشة المنظر، فلما رأتها خيل[7] العدو

(١-١) في بن: عددا فما تشير.
(٢) في بن: والمداربة.
(٣) في بن: البيازك.
(٤) في الأصل وبن: ليخرج.
(٥) في هامش الأصل: نكتة.
(٦) زيد في بن: بالاترسة المدهونة.
(٧) زيد في بن: تحت.

نفرت منها و رُدّت على أعقابها، فانهزم العدو و انتصروا عليه - انتهى .

نعود إلى ذكر[١] ما فعلته الفرنج أيضا بالإسكندرية . ثم إن الملاعين أحرقوا فندق الكيتلانيين و فندق الجنويين و فندق الموزه و فندق المرسيليين[٢] ، فصارت النار تعمل في البندق و البضائع التي لم تجد لها محملا معهم لإشحان مراكبهم بما أخذوه من أموال الإسكندرية .

ثم كسرت الفرنج أيضا حوانيت الشماعين و البياعين بعد نهب قياسر البزازين ، و كسروا ما فيها من الأوعية و الأواني و الأعقاق[٣] و البراني ، فصارت ملقاة مطروحة في الطرقات قد سال ما فيها من زيت و عسل و سمن و غير ذلك ، و كسروا أيضا حوانيت الصاغة ، [٤]أخذوا ما فيها من مال و مصاغ ، كما أخذوا من حوانيت الصرف ما [٥]كان بها من دنانير و دراهم[٥] ، و نهبوا أقمشة التجار المصريين و الشاميين ، المحزومة المهيأة[٦] للسفر بها لمصر و الشام ، و نهبوا أيضا الحرير الذي قدمت به تجار الأعاجم و غيرهم إلى الإسكندرية ، و كانت[٧] عدة قناطير . و نهبوا من الدور

(١) في هامش الأصل : نعود إلى ذكر ما فعلته الفرنج أيضا بالإسكندرية .

(٢) في بن : المسليين .

(٣) في بن : الأحقاق .

(٤) زيد في بن : و .

(٥-٥) في بن : فيها من ذهب و فضة .

(٦) هكذا في بن ، و في الأصل : المهيئة .

(٧) في بن : كان ذلك .

الأموال و الأقمشة و المصاغ و الفرش و البسط و النحاس و غيره، و أخذوا معهم باب المنار الذى كان عمّره الأمير صلاح الدين بن عرام قبل الوقعة على الأساس الذى كان أسسه الملك المنصور قلاون[1] و بطلت[2] عمارته، فعمل ابن عرام عليه[3] حصنا دائرا[4]، ثم أخذت الفرنج أيضا شبابيك قبة تربة[5] طغية التى بالجزيرة، و أحرقوا سقوف الربط التى بها، و هى التى خافت عليها أصحابها[6] من الإفرنج قبل نزول الفرنج من مراكبهم، وكسروا قناديلها و قناديل المزارات، و أفسدوا قصور الجزيرة و تربها، وكسروا أعمدة قبة منبر مصلى العيد[7]، و عمودى ضرائح قبة تربة الأمير طغية و الأمير بلاط اللذين[8] فيهما تاريخ وفاتهما، وكانا موهين[9] بالذهب

(١) فى بن : الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاون . (جلس على عرش مصر ثلاث مرات فى ٦٩٣ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م، ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م، ٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م) .

(٢) كذا فى بن ، و فى الأصل : و بطل .

(٣) فى بن : على الأساس المذكور .

(٤) زيد فى بن : وعمل له الباب المذكور .

(٥) زيد فى بن : الأمير .

(٦) فى بن : أصحابنا .

(٧) فى بن : الاعياد .

(٨) فى الأصل و بن : اللذان .

(٩) فى بن : موهان .

و اللازورد . و قلعوا حلقتى باب المدرسة الخلاصية التى عمرها نور الدين[1] ابن خلاص ، وكانا من النحاس المخرّم . فعمل لباب المدرسة المذكورة غيرهما بعد[2] أشهر من حين الوقعة ، و أخذوا منها كرسى الربعة و بيتها ، وكانا من النحاس الأندلسى المخرم المنزل فيهما اليقات[3] الفضة بدائرهما ، لم يُر مثلهما حسن صنعة و تدقيق تخريم ، [١٠٩ : الف] و تركوا أجزاء الربعة المذكورة [4] الثلاثين جزءا[4] مطروحة بالمدرسة المذكورة لم يأخذوا جزءا واحدا ، و صعدوا صومعة المدرسة النابلسية[5] فوجدوا فيها جمال الدين ابن بانيها مختفيا منهم بها ، و كان شيخا كبيرا ضعيف البنية ، فألقوه على رأسه [6] من أعلاها[6] إلى الأرض فاندقت[7] عنقه فمات شهيدا رحمه الله . و قتلوا من وجدوه بالجوامع و المساجد ، و أقاموا بالإسكندرية العرابد ، فقتلوا الناس فى الدور و الحمامات و الشوارع و الخانات . و كانت الفرنج تخرج بالنهب من الإسكندرية إلى مراكبهم على الإبل و الخيل و البغال و الحمير . فلما فرغوا من النهب و قضوا أربهم من البلد طعنوها بالرماح ، و عرقبوها بالصفاح ، فصارت مطروحة بالجزيرة و البلد لم يُعلم لها عدد

---

(١) زيد فى بن : على .

(٢) زيد فى بن : مدة .

(٣) فى بن : القات .

(٤-٤) ليس فى بن .

(٥) فى بن : النابلية .

(٦-٦) فى بن : منها .

(٧) فى بن : فاندق .

فهلكت و جافت فأحرقها[1] المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها . ثم إن الفرنج تحصنوا بمراكبهم بعد وقرها و إشحانها بما نهبوه، و كانت تزيد على سبعين مركبا[2]، و تركوا بالساحل فضلات البهار التي لم يجدوا لها محملا، فرجع إلى أربابه، من وجد علامة عليه أخذه . ثم إن مراكب الفرنج ثقلت بما فيها فصاروا يلقون ما فيها في البحر على ما قيل لتخف من كثرة الوسق . و كان[3] الغواصون[4] يرفعون النحاس و غيره بناحية بوقير .

و لو لا لطف الله تعالى بعباده المسلمين بحرقهم باب رشيد و باب الزهرى كانت الفرنج ملكت البلد و حصل التعب في خلاصها كما حصل في طرابلس الغرب و مدينة انطاكيا ببر التركية . و سيأتي فيما يرد من هذا الكتاب [5]ذكر ظفر[5] الفرنج بهما إن شاء الله تعالى . و لطف الله تعالى بعباده المسلمين في عدم معرفة الفرنج لقصر السلاح الذي بالموضع المعروف بالإسكندرية بالزربية لو فهموه أحرقوا جميع ما فيه من السلاح المدخر من عهد الملوك السالفة رحمة الله عليهم، فلقد وضعوا فيه من الأسلحة الكثيرة ما ليس لعددها حصر .

(١) في الأصل و بن: فاحرقتها .

(٢) انظر أيضا فيما بعد ١١٨ : ب، ١٢٣ : الف .

(٣) في الأصل و بن : كانت .

(٤) زيد في بن: يغوصون .

(٥-٥) في بن: صفة اخذ .

ذكر

ذكر [1] أبو العباس أحمد شيخ رماة قاعة القرافة[2] المرصدة لسلاح الجهاد المتطوع به، بها ستين ألف سهم من بعض السهام التى فى أحد بيوت قاعة من قاعاته. قيل: إن فيه عدة[3] قاعات، فى كل قاعة عدة بيوت، فى كل بيت آلاف مؤلفة من السهام إلى غيرها من السيوف و الرماح و المزاريق و الأتراس و الخوذ و العنابر[4] [5]و الزرد[5] و الزرديات [١٠٩: ب] و الأطواق و القرقلات و السواعد و الركب و الساقات و الأقدام الحديد و القسى الملولبة[6] و الجرخ و الركاب و الأعلام، ما لا ينحصر بالأقلام. ثم فيه أيضا من حجارة المعلاج و المدافع و النفط و البارود[7] و حيل الحروب و مكايدها كثير[8]، فلو علمت به الفرنج أحرقته سريعا، فحصل اللطف الكبير، من اللطيف الخبير، لعدم معرفتهم إياه بعد أن أتوا إلى بابه ظنوا أنه أحد أبواب المدينة[9]، خافوا من

(١) زيد فى بن: الشيخ.

(٢) فى هامش الأصل: نكتة.

(٣) فى بن: سبع.

(٤) من بن، وفى الأصل: القنابر.

(٥-٥) ليس فى بن.

(٦) فى بن: الملوية.

(٧) «و البارود» ساقطة من الأصل، و واردة فى بن فأضفناها.

(٨) فى الأصل و بن: كثيرا.

(٩) زيد فى بن: لكونه مجا[و]ر السور من جهة البر.

كسر بابه[1] ليكون وراءه كمين[2] يطبق[3] عليهم .

قال المؤلف غفر الله له و لوالديه و للمسلمين أجمعين : حدثنى الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن يوسف حارس القصر المذكور و يعرف بابن قراجا ، قال : كنت فيه بمفردى لما دخلت الفرنج الإسكندرية ، فأغلقت بابه ، و قرأت حزب سيدى الشيخ الصالح أبى[4] الحسن الشاذلى[5] ، و إذا بالفرنج أتوا إلى الزربية فيهم خيالة و مشاة[6] ، وكنت صعدت أعلى القصر ، فصرت أنظر إليهم من شقوق فى حائطه ، فطلع[7] بعضهم على زلاقة بابه ، و صاروا يتشاورون فى أمره ، و كنت أعددت لنفسى مكانا أختفى به إن دخلوه ، لكن خفت بأن يحرقوه فأهلك بالنار ، فوقفوا ساعة و تركوه و مضوا ، فرأى أحدهم صبيا بالزربية يعدو[8] سريعا عند معاينته لهم ، فعدا الإفرنجى خلفه ، فلما أحس به الصبي وقف باهتا من الخوف ، فضربه الإفرنجى بسيفه ، فالتقى الصبى الضربة بيده اليسرى ،

---

(١) زيد فى بن : حسبة .

(٢) فى الأصل و بن : كمينا .

(٣) فى بن : نطبق .

(٤) من بن ، و فى الأصل : أبو .

(٥) حزب الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، يعنى حزب البحر ـ انظر رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٠ .

(٦) فى بن : و رجالة .

(٧) فى بن : فصعد .

(٨) فى الأصل و بن : يعدوا .

فطارت يده إلى الأرض ، ثم ضربه ضربة أخرى على عاتقه ؛ فوقع على شقه الأيمن مستقبلا القبلة ، و مضى و تركه فصار الصبي ينش الذباب بيده اليمنى عن وجهه و جراحه[1] [2] و هو راقد[2] ، و ما أمكنني النزول من القصر إليه خوفا من رجوع الفرنج إلى الزربية[3] ، فصار الصبي مطروحا بالأرض إلى أن مات شهيدا رحمه الله - انتهى .

نعود إلى ذكر ما أحرقته الفرنج أيضا بالإسكندرية ، و ذلك أنهم أحرقوا أبواب[4] البحر الأول و الثاني ، و أبواب الباب الأخضر الثلاثة ، و باب الخوخة و المجانيق التي كانت بالصناعتين الشرقية و الغربية . و كانت أهل الإسكندرية وقت هزيمتهم أحرقوا أغربة كانت بالصناعة الشرقية لئلا تأخذهم الفرنج ، فلما رأتهم الفرنج محروقة أحرقتهم بالنار . ثم أحرقت الفرنج أيضا دار الطراز و الديوان بعد أن أخذوا ما في دار الطراز من الاستعمالات الرفيعة الأثمان ، و أحرقوا أيضا قلعة ضرغام[5] ، [١١٠ : الف] و المكان المعروف بالكدس ، و كان برسم الاستعمالات[6] أيضا .

---

(١) في بن : جرحه .

(٢-٢) ليست في بن .

(٣) زيد في بن : يصدقوني فيقتلوني .

(٤) في بن : باب .

(٥) ربما ترجع هذه التسمية إلى أبي الأشبال الضرغام الوزير الفاطمي - سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م .

(٦) الاستعمالات و المستعملات وردت في القلقشندي (صبح الأعشى) =

و كان مدة إقامة الفرنج من حين أتوا إلى الإسكندرية و ظفروا بها إلى آخر من سافر منهم ثمانية أيام . و ذلك أنهم أتوها يوم الخميس حادى عشرين المحرم سنة سبع و ستين و سبعمائة ، و سافر آخرهم يوم الخميس الثامن و العشرين من الشهر المذكور . و كان سبب إقامتهم تلك الأيام لينظروا من البحر[1] من يأتى من النجدة من مصر ، فلما عاينوا و هم بمراكبهم العساكر أقبلت كالجراد المنتشر يقدمها الأمير الأتابكى يلبغا الخاسكى ، سافروا كما قال بعضهم فى المرثية رثى بها الإسكندرية :

يا لها من كسرة يجبّرها   من إذا شاء للكسر جبر
بالمقر الأشرف[2] العالى الذى   جوده كالشمس فى الأرض انتشر
يلبغا ليث الوغا من سيفه   للطغاة المارقين لم يذر

و منها :

ملأ البر جيوشا شُوسها   من أولى العزم صناديد غرر
و خيول صافنات ضُمَّر   للقا الأعدا لها كَرٌّ و فر
قادها الليث الهصور يلبغا   من على الدين بمرآه خفر
يأخذ الثأر من الأعدا فلم   يلق للأعداء فى الثغر أثر
بل هم، لما رأوا جيشه[3]   أقبلت تحربهم[4] مثل المطر

= ج ٣ ص ٤٩٤ و ج ١١ ص ٤٢٠ - ٤٢٥ ، و الكدس ضغط القطن أو الحرير أو غيره مما هو على شاكلته فى أكياس للشحن و التصدير .

(١) كذا فى الأصل ، و فى بن : مراكبهم .

(٢) المقر الأشرف يغلب أن يكون المقصود به الأمير صلاح الدين خليل بن عرام .

(٣) وقع فى الأصل و بن : جيوشه - و لا يستقيم به الوزن .

(٤) وقع فى الأصل و بن : لحربهم .

أيقنوا

أيقنوا ألّا[1] نجاة لهم   من عظيم حربه إلا السفر

و ستأتى هذه المرثاة[2] بكمالها و اسم مؤلفها إن شاء الله تعالى .

و قيل إن الفرنج استصحبوا معهم من أسارى الإسكندرية نحو خمسة آلاف نفر ما بين مسلم و مسلمة و يهودى ذمى[3] و يهودية و نصرانى ذمى و نصرانية و إماء و أطفال ، و الله أعلم بعدّتهم ، ففرّقوهم بأرض الرومانية ، و استرقوهم بعد الحرية ، فحزنت عليهم أهاليهم الحزن الشديد ، الذى ليس فوقه مزيد . و سيأتى[4] فيما يرد من هذا الكتاب[4] لمع[3] من [5]اخبار الأسارى المذكورين[5] إن شاء الله تعالى . و لله در القائل حيث قال فى المعنى :

بنتم و بنّا فما قرّت جوارحنا   شوقا إليكم و لا جفّت مآقينا
نكاد نحن تناجيكم ضمائرنا   يقضى علينا الأسى لولا تآسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت   سودا و كانت بكم بيضا ليالينا   [١١٠:ب
إذ جانب العيش طلق من تآلفنا   و مورد اللهو صاف من تصافينا
و إذ هصرنا غصون الأنس دانية   قطوفها فجنينا منه ما شينا
إن الزمان الذى ما زال يضحكنا   أنسا بقربهم قد عاد يبكينا

(١) فى بن : ان لا .
(٢) انظر ١٣٢ : ب و ما يتلوها .
(٣) سقط من بن .
(٤-٤) ليست فى بن .
(٥-٥) فى بن : اخبارهم فى اسرهم .

فاحلّ ما كان معقودا بأنفسنا   و ابتثّ ما كان موصولا بأيدينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم   رأيا و لم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيّرنا   إن طال ما غيّر النأى المحبينا

و قال آخر:

أنا فى أسر حزن من هو فى الأسر حبيس   أبكى لفقد حبيسى
أسرتهم أصحاب شرك و كفر   و غدوا بالموحدين[1] الخميس
ليس دين التوحيد كالشرك با   لله و ليس الأذان كالناقوس[2]

و سأذكر[3] الآن ما قيل فى التوحيد و الأذان و الناقوس إن شاء الله تعالى. اعلم أن المسلم الموحد لله تعالى ليس هو كمن يشرك به و يجعل له صاحبة و ولدا، بل هو واحد أحد، فرد صمد، لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كفوا أحد. قال بعض العلماء[4]: التوحيد ما كملت فيه العبودية، و ثبتت فيه أحكام الألوهية. و قال بعض العلماء: من ركن إلى موجود تناهى إليه فكره فهو مشبه، و من ركن إلى النفى المحض فهو معطل، و من قطع بمعلوم و اعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد[5]. حكى عن الشريف

(١) زيد بعده فى الأصل و بن: يوم - و لا يستقيم به الوزن.

(٢) فى بن: كالنواقيس.

(٣) فى هامش الأصل: ذكر ما قيل فى التوحيد و الأذان و الناقوس.

(٤) فى هامش الأصل: هو الشافعى.

(٥) زيد فى بن: قال ... قاله ابو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه: سبحان من لم يخلقه سبيلا إلى معرفته ....

الإمام أبي عبد الله محمد المهدى أنه لما أتى إلى السوس الأقصى ، و بثّ ما بثّ فى الناس من الهداية و التوحيد ، و قالوا له : إن الذى تأمرنا به قد قرأناه من الصغر فى المكاتب ، و هى سورة الإخلاص : قل هو الله احد . فقال : أجمعوا لى علماءكم[1] ، فجمعوا له مائة[2] ، فقال : نقّوا منهم عشرة ، ثم قال : نقّوا من العشرة ثلاثة ، فقال للثلاثة : اعلموا أن الآحاد ثلاثة : واحد يتحيز و ينقسم ، و واحد يتحيز و لا ينقسم ، و واحد لا يتحيز و لا ينقسم فأيهم هو الذى فى سورة الإخلاص ؟ فقال أحدهم : إنه[3] يتحيز و ينقسم . و قال الثانى : إنه [4]يتحيز و لا ينقسم[4] . و قال الثالث : إنه لا يتحيز و لا ينقسم ، لكنه يقوم بالتحيز . فقال الإمام المهدى : يُقتل الأول على دين اليهود لأنه مجسّم ، و يقتل الثانى على دين النصارى لأنه حلولى[5] ، و يقتل الثالث على دين المجوسية لأنه يعبد الأعراض [١١١ : الف] ، و ذلكم أن الأحد الحق هو الذى لا يتحيز و لا ينقسم و لا يقوم بالمتحيز ، قائم بنفسه ، يحتاج إليه كل شيء ، "ذلكم الله ربكم لا اله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه[6]" . قالوا له : لِمَ لا بينت هذا أولا ، و لم توقع هؤلاء فى الهلكة ؟ قال :

---

(١) من بن ، وفى الأصل : عُلامكم .

(٢) زيد فى بن : عالم .

(٣) زيد فى بن : الذى .

(٤–٤) فى بن : لا يتحيز و ينقسم .

(٥) و الكلمة فى بن مصحفة إلى : لحودى .

(٦) سورة ٦ آية ١٠٢ .

لايثبت الحق حتى يندحض الباطل . ثم استتاب الثلاثة و صرفهم .

و[1] السوس الأقصى مدينة متحضرة[2] و لها بساتين و جنات و نخل و قصب سكر يُعمل منه[3] السكر الكثير ، و منها إلى مدينة قرقوب[4] مرحلة و هى المدينة التى ينسب إليها الرقم القرقوبى[5] فى جميع الأرض ، و يُعمل بها ديباج مخوّص[6] بالذهب ، و قليــلا ما يوجد مثله بآفاق الأرض ، و هو الديباج القرقوبى . و سائر الثياب من الحلل و الديباج و الخزوز ينسج بطُرُزها السلطانية مثل ما فى طُرُز السوس ، يقال لصُنّاعها : القراقبة - انتهى .

نعود إلى ما قيل فى التوحيد . قال أبو المعالى : الواحد[7] معناه المتوحد المتعالى عن الانقسام . و قيل معناه الذى لا مثل له . و قال القشيرى : الواحد الذى لا قسم له و لا يستثنى منه - هذا حقيقته[8] عند

(١) زيد فى بن : اذا قدر ذكر السوس الأقصى فلنذكر صفته ، اعلم ان .

(٢) فى بن : مقصرة .

(٣) فى بن : معه .

(٤) فى هامش الأصل : قرقوب ، و فى بن : قرقوبة .

(٥) فى بن : القرنوى . و صحته « القرقوبى » فيما بعد فى النص .

(٦) فى بن : مخصوص .

(٧) فى الهامش : الواحد .

(٨) فى بن : حقيقة .

أهل

أهل التحقيق . و قال الإمام أبو بكر بن فُورَك : الواحد فى وصفه له ثلاثة معان و لفظ الواحد فى كلها حقيقة : أحدها أنه لا قَسْم لذاته و أنه غير مُتبعّض و لا متجزئ ، و الثانى أنه لا شبيه له ، و العرب تقول: فلان واحد عصره ، أي لا شبيه له ، قال الشاعر :

يا واحد العصر الذى ما فى الأنام له نظير

و الثالث أنه واحد على معنى أنه لا شريك له فى أفعاله ، متوحّـــد بهذا الأمر الذى ليس يشركه فيه أحد ؛ و الأولون قالوا : هذه المعانى الثلاثة مستحقة لله سبحانه و تعالى ، و لـكن لفظ التوحيد فيه[1] حقيقة و[2] نفى القسمة مجاز فى الباقى ، و الفرق بين الواحد و الأحد قيل : الأحد أكمل من الواحد ، ألا ترى أنك تقول : ٣فلان لا٣ يقوم له واحد ، فربما كان يقوم له اثنان أو أكثر . و إذا قلت : لا يقوم له أحد ، دلّ على أنه لا يقوم له واحد و لا اثنـان فصاعدا ، فصار أحد أكمل من الواحد . و فى الأحد أيضا خصوصية ليست فى الواحد ، ألا ترى أنك إذا قلت : ليس فى الدار أحد ، لا يجوز أن يكون فيها إنسان و لا دابة و لا كلب و لا غير ذلك من الحيوان ، لأن أحدا يقع على الناس و غيرهم . و إذا قلت : ٤ليس فى الدار٤ واحد ، فهو مخصوص للناس دون غيرهم ، [١١١ : ب] و فى الواحد

(١) فى بن : فى .
(٢) فى هامش الأصل : فرق بين الواحد و الأحد .
(٣-٣) من بن ، و فى الأصل : فلا .
(٤-٤) ليس فى بن .

لغات ثمان، نطق القرآن الكريم بواحد واحد. و كان بعضهم يقول: تسبيحه سبحان من[1] أنطق باللحم، و بصّر بالشحم، و أسمع بالعظم، إشارة إلى[2] اللسان و العين و السمع[2]؛ و هذه من لطائف الإشارات - انتهى.

نعود إلى ذكر سؤال الحجاج للشعبي عن التوحيد، و هو أن الحجاج بن يوسف الثقفي[3] أخذ الشعبي فأراد قتله، و كان يطلب علّة ليقتله عليها فلم يجد، فدعاه ليلة بعد العتمة، فدخل[4] على الحجاج[4]، فسأله فقال: يا شعبي! واحد من اثنين و واحد من واحد و واحد كواحد، أيها تعبد؟ فقال له: لا أعبد واحدا[5] من طريق العدد، و لا واحدا من طريق الجسد، و لا واحدا مثل الولد[6]، بل أعبد واحدا لا يدخل في العدد، و لا يخرج من الجسد، و لا يستقر في الصلب مثل الولد، ليس كمثله شيء و هو السميع البصير[7]. فسكت الحجاج و أطلق سبيله.

---

(١) في بن: الذي.

(٢-٢) في بن: ألسنة الحيوانات و أعينها و أسماعها.

(٣) في هامش الأصل: سؤال من الحجاج الثقفي، و في بن: الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٤-٤) في بن: عليه.

(٥) من بن، و في الأصل: واحد.

(٦) في بن: الواحد.

(٧) زيد في بن: و أيضا إعراض موسى عليه السلام عن سؤال فرعون حين قال: «ما رب العلمين» فقال له موسى: «رب السموٰت و الارض» الخ =

و أما[1] التفكر في ذات الله[2] فممنوع[3]، و التفكر في مخلوقاته جائز. قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني في العقيدة التي ذكرها في الرسالة في الفقه[4]: و لا يتفكرون في ماهية[5] ذاته. قال ابن رشد: كان من حقه أن يقول: لا ماهية[5] له. و قال غيره من الشيوخ: أطلق الماهية[5] فكأنه[6] يقول: و لا يتفكرون في حقيقة ذاته، لأن الماهية[5] إنما هي فيمن له أصل أو جنس، و الدليل على أن الله تعالى لا ماهية[5] له و أنه لا يجوز التفكر في حقيقة ذاته بالعقل و النقل، فالعقل أن التفكر في الذات يؤدي إلى أحد شيئين ممنوعين: إما أن يؤدي إلى التشبيه، و التشبيه يؤدي إلى التجسيم، و ذلك حرام بالإجماع، و أن التفكر في الذات يؤدي إلى التعطيل، و التعطيل حرام؛ و من النقل ما رُوي أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لأصحابه: تفكروا[7] في

= الخ. و يلاحظ أن هذه القصة وردت في ر أيضا فيما بعد ـ انظر ما يلي من النص.

(١) في بن: و اعلم ان.

(٢) زيد في بن: تعالى. و في هامش الأصل: التفكر في ذات الله تعالى حرام.

(٣) من بن، و في الأصل: فممنوع ـ كذا.

(٤) زيد في بن: فقال.

(٥) من بن، و في الأصل: مائية ـ كذا.

(٦) في بن: فكان.

(٧) من بن، و في الأصل: تفكرون.

مخلوقات الله و لا تتفكروا[١] فى ذاته . قال السرّاج عبد اللطيف التكريتى من أرجوزة له :

من شبّه الله تعالى بالبشر فقد تعدّى فى المقال و كفر
و كل ما مثّلته فى بالكا فالله لا شك خلاف ذالكا

و قال أيضا من قصيدة له :

و احذر من التشبيه فهو مطية الشيطان و الإصغا إليه ضلال
و إذا تصور فى النفوس مخايل و هواجس هجست و ضاق مجال
[١١٢: الف] فادفعه بالتنزيه عنك فانه وهم و تصوير النفوس محال
و الاعتزال محجة التعطيل و هو على عقول الملحدين عقال
و السنّة البلجاء و هى محجّة التقوى فلا تهوى بك الأهوال
و يد الإله مع الجماعة حيث ما سلكوا فنهجهم هدى و نوال
و دع المرا و الخوض و انأ عنهما فالخوض مُردٍ و المراء وبال
و اعرض هُديت عن الجدال فمذهب السلف الكريم النهى و الإقلال

و أعرض موسى عن سؤال فرعون[٢] حين قال : "ما رب العٰلمين[٣]" فقال له موسى : "رب السمٰوٰت و الارض و ما بينهما ان كنتم موقنين[٤]" فأجابه عن غير ما سأله عليه، ثم قال فرعون لمن

(١) من بن ، و فى الأصل : و لا تفكرون .
(٢) فى هامش الأصل : سؤال فرعون لموسى .
(٣) قرآن كريم ٢٦ : ٢٣ .
(٤) قرآن كريم ٢٦ : ٢٤ .

حوله[١] : ”ألا تستمعون“ أسأله عن شيء و يجيبني بغيره! لأن فرعون إنما سأله عن كيفية الذات ، فاعراض موسى عن سؤال فرعون دليل على أن التفكر فى الذات ممنوع . ثم قال موسى : ”ربكم و رب آبائكم الاولين“ . ثم قال فرعون : ”ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون“ ، فأضاف الجنون إلى موسى ، و قال[٢] المفسرون : فاضافته إلى فرعون أحق و أولى . و قال بعض الصوفية : كيف يطلع نجم السعادة لمن سبق له نجم الحرمان! و فى هذا المعنى يقول الشاعر :

فكم من عائب قولا صحيحا و آفته من الفهم السقيم

كان بعض العلماء مشتغلا بتصنيف العلوم الشرعية النافعة فى الدنيا و الآخرة ، و كان له ولد جاهل ، فكان الولد كلما دخل عليه رآه على ما هو عليه من التصنيف و التأليف ، فلامه على فعله و ما هو عليه من التعب و النصب و الفكر ، فأنشده والده يقول:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتى فعذلتنى وعلمت أنك جاهل فعذرتكا - انتهى .

نعود ، روى فى الحديث أن الإنسان يأتيه الشيطان فيقول له : من خلق كذا؟ فيقول : الله . ثم يقول له: من خلق كذا؟ فيقول : الله . ثم يقول له : و الله من خلقه؟ فاذا تخيل ذلك لأحدكم فدواؤه[٣]

(١) جميع هذه المقتبسات مأخوذة من سورة الشعراء ، وقصة فرعون وردت مرارا فى سور متفرقة من القرآن الكريم .
(٢) فى الأصل و بن : قالت .
(٣) فى بن : فادرؤه .

أن يقول: لا إله إلا الله، ليس كمثله شيء و هو السميع البصير. سئل الشبلي فقيل له: أخبرنا عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد. فقال من أجاب عن التوحيد بالعبارة [١١٢ : ب] فهو ملحد، و من أشار إليه فهو ثنوي، و من أومى إليه فهو عابد وثن، و من نطق به فهو غافل، و من سكت عنه فهو جاهل، و من همّ أنه وصل فليس له حاصل، و من أومى أنه قريب فهو بعيد، و من تواجد فهو فاقد، و كل ما ميّزتموه بأوهامكم و أدركتموه بعقولكم في أتمّ معانيكم فهو مصروف مردود إليكم، مصنوع مثلكم[2]. و قال الجنيد: أشرف كلمة في التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته[1]. قال الإمام فخر الدين الرازي في القواعد الخمسين في أصول الدين: الدليل على وحدانية الله تعالى هو أنا إذا فرضنا إلهين فأراد أحدهما حركة زيد و الثاني سكونه فان حصل مرادهما يلزم الجمع بين الضدين، و الجمع بين الضّدين محال، و المحال هو الذي لا يتصور أبدا؛ و إن لم يحصل مرادهما فهما عاجزان، و العاجز لا يجوز أن يكون إلها، و إن حصل مراد أحدهما دون الثاني فالذي يحصل مراده فهو الإله، و الذي لا يحصل مراده فهو عاجز، و العاجز لا يصلح للالهية، فيرجع إلى قوله تعالى: "لو كان

---

(١) ليس في بن.

(٢) زيد في بن: سمع الشبلي قائلا يقول: يا سائلي عن سلمى فهل من مميز يكون له علم أين تنزل؟ فزعق فقال: لا و الله ما في الدارين عنه مخبر.

فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[1] " . قال القاضى عامر بن عامر البصرى فى تنزيه البارى سبحانه و تعالى من قصيدة له عارض بها قصيدة ابن الفارض فقال[2] :

فلا أنت مولود و لا أنت والد لأنك فرد الذات من غير قسمة
و لا أنت منسوب إلى جوهر و لا إلى عَرَض يعزى إلى عنصرية
و لا أنت روحانى بذات[3] بسيطة و لا أنت جسم[4] ذو[5] مواد كثيفة
و لا أنت علوى و لا أنت سافل و لا أنت محصور بحد و عرضة
و لا أنت مخفىّ و لا أنت ظاهر و لا أنت ذو طبع و لا بطبيعة
و لا أنت عقل[6] لا و لا نير و لا هيولى[7] و لا ذات[8] بروح لطيفة
و لا أنت مشغول و لا أنت فارغ و لا أنت ذو كيف و لا بكمية
و لا أنت ذو قيد و لا بمجرّد و لا أنت محسوس و لست بحاسة
و لا أنت فى شىء من الكل داخل و لا خارج عنه و هذى عقيدتى

(١) قرآن كريم ٢١ : ٢٢ .
(٢) فى هامش الأصل : قصيدة غريبة حسنة .
(٣) فى الأصل : فى ذات . ولا يستقيم بها وزن البيت .
(٤) ليس فى بن .
(٥) فى الأصل و بن : ذا .
(٦) فى بن : عقلى .
(٧) من بن ، وفى الأصل : هيولا .
(٨) فى بن : انت .

فأنت إذا فرد[1] لك الكل ساجد   و لا كل إلا أنت يا أكل صفوتى
فأنت على ما أنت قدرا و قدرة   بنفسك أدرى من جميع البرية

[١١٣ : ألف] و أول هذه القصيدة :

تجلى لى المحبوب فى كل وجهة   فشاهدته فى كل معنى و صورة

و فى آخرها يقول :

و بكر أتت لا فارض يدر علمها   إذا ما بدت أخفت سنا الفارضية
لها زى مسكين لضعف معينها   على أنها سلطان كل قصيدة
تخال معانيها خلال حروفها   كواكب تبدو فى حنادس ظلمة

و هذه القصيدة طويلة جدا ، و سأذكر منها فيما يرد من هذا الكتاب ما قاله فى الآداب و حسن الخلق و الحث على الكمالات إن شاء الله تعالى - انتهى .

نعود إلى ذكر ما جاء فى سورة الإخلاص[2] و كلمة التوحيد من الفضل و الخير ، جاء فى الخبر أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن . عن معاذ بن جبل عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من قرأ سورة "قل هو الله أحد" عشر مرات حتى يختمها بنى الله له بيتا فى الجنة . فقال عمر بن الخطاب : إذا نستكثر يا رسول الله !

---

(١) من بن ، و فى الأصل : فردا .

(٢) فى هامش الأصل : ذكر ما جاء فى سورة الإخلاص و كلمة التوحيد من الفضل و الخير . و هذا الجزء مقتضب فى بن ، و بدايته : فلنذكر الآن ما جاء فى فضل قوله لا إله إلا الله .

فقال

فقال: الله أطيب و أكبر. و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لتدخلنّ الجنة كلكم إلا من أبى و شرد على الله شرد البعير على أهله. فقال[1]: يا رسول الله! و من الذى يأبى؟ قال: من لم يقل لا إله إلا الله، فأكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم و بينها، فإنها كلمة التوحيد، و هى العروة الوثقى، و هى ثمن الجنة. قال سهل بن عبد الله: إذا قلت: لا إله إلا الله، مد الكلمة و انظر إلى قدم الحق، فأثبتها و أبطل ما سواه. و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: من قال: لا إله إلا الله، و مدها، هدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر. قال أبو حامد الغزالى: أمر الله الكافر بكلمة الإيمان لا إله إلا الله، جمع ما فيها من النفي و الإثبات، و قدم النفي على الإثبات، و[2] لا يتكمل إلا بصيانته [3]عما يضمن[3] مخالفه، و هكذا جمع فى سورة الإخلاص بين النفى و الإثبات، فوصف نفسه بأوصاف الكمال فى قوله «قل هو الله أحد ۝ الله الصمد ۝» ثم نفى عن نفسه النقائص فقال سبحانه «لم يلد و لم يولد ۝ و لم يكن له كفوا أحد ۝».

قال أهل المعارف فى صفة الصمد: إنه يتضمن إثبات كل صفة لا يتم الخلق إلا بها، و نفى[4] كل صفة لا يجوز وصفه بها، لأن الصمد

(١) فى بن: فقيل.
(٢) فى بن: لان الاثبات.
(٣-٣) فى بن: عن كل ما يظن.
(٤) فى بن: و فى.

فى اللغة هو السيد [١١٣ : ب] الذى يرجع إليه فى الحوائج ، و هذا يوجب له إثبات صفات الكمال التى بها يتم نفى النهاية و الحد و الجهة ، و نفى كونه سبحانه جسما أو جوهرا ، لأن من اتصف بشيء من هذه الأوصاف لم يستحل اتصافه بالتركيب و وجود الجوف ، و تقدم بهذه الجملة وجوب المعرفة بالنفى و الإثبات و التميز بين الحق و الباطل ، و من لا يتحقق صفة الباطل لم يتقرر له معرفة للحق . و قد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يسألونه عن الحق لصحة الاعتقاد ، و عن الباطل و الشر بالتمكن من المجانبة ، حتى قال حذيفة بن اليمان : كان الناس يسألون النبى صلى الله عليه و سلم عن الخير ، و كنت أسأله عن الشر . و إنما كان يفعله حذيفة ليصح له مجانبته ، لأن من لا يعرفه يوشك أن يقع فيه ، كما قال الشاعر :

عرفت الشر لا للشـــــر لـكنّ لتوقيـــه
و من لا يعرف الشـــر من الناس يقع فيه — انتهى .

نعود إلى قول الشاعر فى المصراع الثانى من البيت الثالث المتقدم ذكره و هو :

[ليس دين التوحيد كالشرك باللـ]ـــه و ليس الأذان كالناقوس

اعلم أن الأذان المشتمل على توحيد الله تعالى تلتذ به المسامع ، و يصير كل مسلم لسماعه ¹خاضعا خاشعا¹ ، و خاصة من الأصوات الطيبة ، لأن سماع الصوت الطيب و النغمة الحسنة حظ الروح و طرب السمع

(١-١) فى الأصل و بن : خاضع خاشع — كذا .

و هيمان السامع ، ألا ترى إلى الإبل كيف تقطع المسافة البعيدة و تقاسى تعب السير و مشقة الجولة فيهون عليها بالحداء عند سماعها لنغمة الحادى لها، و تهيم بالطرب ، إلى أن يرى منها العجب ، و لله در القائل حيث يقول :

غنى لها من بعد شرب الساقى   فتمايلت طربا من الأشواق
و حدا لها حادى المطى بنغمة   مشتقة من نغمة العشاق
سارت ولذ لهاالسرى فتتابعت   فى سيرها بالسوق و الإعناق

قال الشيخ أبو بكر الدينورى : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم ، فرأيت غلاما أسود[1] مقيدا هناك ، و رأيت جمالا ميتة بفناء البيت ، فقال لى الغلام : أنت الليلة ضيف و أنت كريم على مولاى ، اشفع لى فانه لا يردك ، فقلت لصاحب البيت : لا آكل طعامك [١١٤ : الف] حتى تخلى هذا الغلام ، فقال لى : قد أفقرنى هذا العبد و أتلف مالى . فقلت له : ما الذى فعل ؟ فقال له : صوت طيب و نغمة حسنة ، و كنت أعيش من ظهر هذه الجمال فحملها[2] أحمالا ثقالا و حدا لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى يوم واحد ، فلما انحطت عنها أحمالها ماتت كلها ، و لكن قد وهبته لك ! و حل عنه القيد ، فلما أصبحنا أحببت أن أسمع صوته ، فسألته ذلك ، فأمر[3] الغلام أن يحدو على جمل كان على

(١) فى الأصل و بن : أسودا .
(٢) فى بن : فحملتها .
(٣) زيد فى بن : بها .

بئر هناك يستقى ، فحدا[1] فهام الجمل على وجهه و قطع حباله ، و لم أظن أنى سمعت صوتا أطيب منه ، و وقعت لوجهى حتى أشار إليـــه بالسكوت ، و أنشدوا فى المعنى :

إن كنت تنكر أن[2] للـــأصوات فائـــدة و وقعـا
فانظر إلى الإبل اللـــوا تى هن أغلظ منك طبعـا
تصغى إلى حدو الحـــدا ة فتقطع البيـداء قطعـا[3]

و اعلم أن الصوت الطيب لا يدخل فى القلب منه شىء ، و لكنه[4] يحرك ما فى القلب ، و لذلك اعتمدت فقراء الصوفية على السماع ، لأنهم إذا سمعوا الغناء من الأصوات الطيبـة و آلات الطرب طربوا و هاموا ١٠ و تحركت سواكنهم و حنوا لذكر مولاهم ، كما قال ابن الفارض فى قصيدته التائية :

(١) زيد فى بن : بها .
(٢) « ان » زيدت من بن ، و قد سقطت من الأصل و يستقيم الوزن بها .
(٣) زيد فى بن [٨٧ : الف] : و قالت الروم : إن الدرفين البحرى إذا تفرق عنه أولاده لم تجتمع إليه حتى يصفر لها بصوت رقيق تطرب فتجتمع إليه . فاذا كان الحيوان الذى لا يفهم و لا عنده عقل على هذه الطبيعة ، فكيف الإنسان الذى خصه الله تعالى بالفهم و العقل و جعل له نفسا ناطقة ناصحة عاقلة يبلغ بها الطرب بالسماع إلى أن يظهر من محاسنها و أفعالها الجميلة أنفسها و هو الجود و الكرم . و اعلم أن ـ الخ .
(٤) فى بن : لكن .

و ما

و ما أطرب الأرواح منا[1] لدى[2] الغنا　　سوى نغمات أدركتها قديمة
و ذلك أن النفس قبل اتصالها　　بتدبيرها الجسم الذى قد تولت
وعى سمعها من طيب الحان نغمة　　تنغمها الأفلاك أعظم لذة
إذا أقبلت أجرامها فى اصطكاكها　　ترجعها فى قطعها كل دورة[3]
رشد[4] لبعد العهد عنها فلم تكن　　تذكرها إلا بتجديد نغمة
فلما أحست فى السماع بذكرها　　تذكرت العهد القديم فحنت
و قد يطرب الدولاب عند حنينه　　فكيف حنين النغمة الفلكية
و ناهيك أن الطفل عند بكائه　　يغنى فتغشاه سكينة سكتة
و يذهل عما كان فيه من الأذى　　و تبدو[5] لنا منه مخائل طربة
و لو لا ادّكار النفس منه لذى الغنا　　عهودا[6] قديمات لها ما استلذت
و قد تطرب العجماء عند سماعها الـ　　مغنى و تنسى عنده كل غمة
و إلا فما بال المطى إذا ونت　　عن السير هاجت فى الفلاة بحدوة
فتصغى إلى الحادى بأسماعها كما　　يكون سماع العاقل المتصنت
[١١٤:ب] ويرتاح بعض الطير عند سماعه　　تجاوب أوتاد إذا هى جسّت

---

(١) فى بن : منها .
(٢) كذا فى بن ، و فى الأصل : لذى .
(٣) من بن ، و فى الأصل : درورة ـ كذا .
(٤) فى بن : و شد .
(٥) فى الأصل و بن : تبدوا .
(٦) فى بن : عهود .

و ما ذاك إلا أن أفلاكها على مراكزها لما إستدارت تغنت
فلا تحسب الأشياء مهملة كما توهم أصحاب العقول الضعيفة
و ما النحل فى أوضاعها لبيوتها مسدسة من حكمة بخلية
و جعل لعاب العنكبوت لصيده[1] الذباب شباكا ليس إلا لخبرة
و يفهم بعض الذر مقصود بعضه بقوة إدراك لنفس ذكية
و إن ازدواج الشكل بالشكل مشعر بقوة تمييز و صحة فطرة
و لو لم يكن إلا تفاهمها إذا تناغت بأصوات لها أعجمية
لكان لنا فيه دليل يدلنا على أن ذا لا عن نفوس بليدة

– يعنى نفسه .

و قد شهدت الذكر الحكيم بأنها مسبحة و الذكر أعظم حجة
و هل يصدر التسبيح عن غير عاقل و لكن عيون الجهل غير البصيرة

[2] قال الله تعالى فى الذكر الحكيم ، و القرآن الكريم : « و ان من شيء الا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم[3] » . و قول ابن الفارض :

و ينبئك عن شأنى الوليد و إن نشا بليدا بالهام كوحى و فطنة

أى و ينبئك بالهام و فطنة كوحى إلى النبى .

إذا أن من شد[4] القماط و حن فى نشاط إلى[5] تفريح أفراط كربة

---

(١) فى بن : بصياده .
(٢) العبارة من هنا إلى « ابن الفارض » ليست فى بن .
(٣) قرآن كريم ١٧ : ٤٤ .
(٤) فى بن : شدة .
(٥) كذلك فى بن ، و فى الأصل : أتى .

يناغي فيـلقى كلَّ كلٍ أصابـه   و يصغى لمـن ناغاه كالمتصنّت
و ينسيه مر الخطب حلو خطابه   و يذكره نجوى[1] عهود قديمـة
و يعرب عن حال السماع بحالة   فيثبت للرقص[2] انتفاء النقيصة

أى[3] لا نقيصة فى رقص إذا كان عن هذا السماع المجرد ، و المشهور : [4]الرقص نقص ، فالطفل أثبت انتفاء النقص .

إذا هام[5] شوقا بالمناغى و همّ أن   يطـير إلى أوطانـه الأولية
و يسكن[6] بالتحريك و هو بمهده   إذا ما له أيدى مربّية هزّت – انتهى .

نعود إلى ما قيل فى الأذان و المؤذن . يستحب أن يكون المؤذن حسن الصوت ، ففى ذلك نيل المقاصد من[7] سعى المسلمين إلى إقامة الصلوات فى المساجد المرصدة للراكع و الساجد ، فاذا حنّت القلوب لذكر الله ، أقبلت على عبادة الله . قال بعضهم فى مؤذن حسن الوجه و الصوت :

[١١٥:الف] رأيت مؤذنا كالبدر يحكى   تلوح علـى شمائـله السعاده

(١) فى بن : نحو .
(٢) اعتمادا على الشرح الذى يتلو الشعر ، و فى الأصل و بن : للنقص – كذا .
(٣) ليس فى بن .
(٤) زيد فى بن : ان .
(٥) كذا فى بن ، و فى الأصل : و هم .
(٦) كذا فى بن ، و فى الأصل : يسكّن .
(٧) فى بن : حين .

تشهّد فى الأذان فمتّ وجدا فيا بشراى متّ على الشهاده

و رُوى أن حسن الصوت مما أنعم الله به على صاحبه من الناس. قال الله تعالى « يزيد فى الخلق ما يشاء[1] » ، قيل فى التفسير : الصوت الحسن . قيل : إن داود عليه السلام كان يستمع لقراءته الإنس و الجن و الوحش و الطير ، إذا قرأ بحسن صوته الزبور . و كان يحمل من مجالسه أربعمائة جنازة ممن قد مات ممن سمعوا قراءته . و قال النبى صلى الله عليه و سلم لأبى موسى الأشعرى : لقد أعطى مزمارا من مزامير آل داود[2] - انتهى .

و يستحب وضع إصبعى المؤذن فى أذنيه حين أذانه ، فذلك مما يعينه على امتداد صوته و رفعه ، و يمدّ ما استطاع . قال أبو سعيد الخدرى : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول لعبد الله بن عبد الرحمن الأنصارى : إنى أراك تحب الغنم و البادية ، فاذا كنت فى غنمك و باديتك فأذّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن و لا إنس إلا شهد له يوم القيامة . و الأذان فيه ثلاثة أقوال : سنّة مطلقا للفرد[3] و الجماعة فى مسجد أو غيره ، و قيل : فرض[4] فى مسجد

(١) قرآن كريم ٣٥ : ١ .

(٢) زيد فى بن [٨٧ : ب] : و كان بلال ابن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه و سلم ندى الصوت و كانت حليته أسود طويل (كذا) كالنخلة السحوق عيناه حمراوتان كأنهما العلق جهورى الصوت .

(٣) فى الأصل : للفذ . و فى بن : للفد . و سياق الكلمة بالجملة واضح .

(٤) فى الأصل و بن : فرضا - كذا .

الجماعات ، و قيل : كفاية على أهل البلد . و الأذان فى اللغة هو الإعلام ، قال تعالى : « و اذان من الله و رسوله [١] » أى إعلام ، و اختلف مما ذا أشتق [٢] ، فقيل : من الآذان ، لأنه يسمع بالأذن ، و قيل : من الإذن لأنه [٣] أذن به فعل العبادة بـدخول وقتها المرتقب ، قال الله تعالى : « و اذّن فى النـاس بالحج [٤] » ، و "حيّ على الصلاة" كـلمة للحث على الاستعجال . و فائدة الأذان ثلاثة أشياء : أحدها الإعلام بدخول الوقت ، و الثانى الإشعار أن الدار دار الإسلام ، لأن النبى صلى الله عليه و سلم كان إذا أغار [٥] على بلد فان سمع مؤذنا [٦] ترك ، و إن لم يسمع مؤذنا [٦] أغار [٧] عليهم ، [٨] الثالث لاجتماع الناس . و الإقامة سنّة ، و فى المرأة حسن ، و جائز أن يقيم غير من أذّن ، و إسرار المنفرد حسن فى الإقامة خاصة ، لأن المقصود منها إشعار النفس بالتأهب للصلاة . و كل من استهزأ بالأذان ينبغى قتله ، كما قتل النعمان الكاتب الشاعر [٩] المستهزئ به ، و ذلك

(١) قرآن كريم ٩ : ٣ .

(٢) فى هامش الأصل : اشتقاق الأذان .

(٣) من بن ، و فى الأصل : لأن .

(٤) قرآن كريم ٢٢ : ٢٧ .

(٥) من بن ، و فى الأصل : غار .

(٦) فى الأصل و بن : مؤذن .

(٧) فى الأصل و بن : غار .

(٨) زيد فى بن : و .

(٩) فى الأصل : للشاعر .

أن الشاعر المعروف بابن الخشكرى كان يقال [١١٥ : ب] عنه إن اعتقاده فاسد[1] ، و كان النعمان صاحب ديوان بغداد يبلغه عنه أشياء فاسدة ، و اتفق أن النعمان المذكور انحدر إلى واسط ، فلما كان بالنعمانية حضر ابن الخشكرى [2]عنده و أنشده قصيدة قد قالها فيه ، فبينما هو ينشدها[2] بين يديه إذ أذّن المؤذّن ، فاستنصته النعمان ، فقال ابن الخشكرى : يا مولانا! اسمع شيئا جديدا و أعرض عن شيء له سنين . فثبت عند النعمان ما كان يقال عنه ، ثم باسطه و لم يظهر له أنه أنكر عليه شيئا ، و قال لإنسان : استفرد به و اقتله ، فقتله – انتهى .

نعود إلى قول الشاعر : و ليس الأذان كالناقوس[3] ، [4]فالناقوس هو الذى تضربه[4] النصارى عند مواقيت صلواتهم بكنائسهم ليجتمعوا لها بضربهم إياه فيها . و صوت الناقوس من عاداته يدهش الرؤوس ، و يزعج النفوس ، و يقلق النائم ، و يصيّر نومه غير ملائم ، لما هو عليه من الصوت الفظيع ، و الحسّ المريع . قيل : إن فى النواقيس من زنته الزيادة على[5] عشرين قنطارا حديدا ، و حوله من النواقيس الصغار كثير[6] ،

(١) فى بن : فاسدا .

(٢–٢) ليست فى بن .

(٣) زيد فى بن [٨٨ : الف] : فقد تقدم القول على الأذان فلنذكر ما قيل فى الناقوس .

(٤–٤) فى بن : اعلم أن الناقوس الذى يضرب .

(٥) ليس فى بن .

(٦) فى الأصل و بن : كثيرا .

فاذا ضُرب الكبير، سُمع له حس[١] نكير، وسُمع لمن حوله من النواقيس الصغار دوى[٢] ينزعج لأصواتها الصغار ثم الكبار . وقد ذم الله سبحانه الصوت الفظيع فقال : « ان انكر الاصوات لصوت الحمير[٣] » . قال العتبى[٤] : حدثنا أبو إبراهيم قال : لما كبر أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان اعتراه أرق ، فكان إذا غفت عينه أيقظته[٥] نواقيس الروم بفظاعة أصواتها بكنائس دمشق ، فلما أصبح يوما ودخل عليه الناس قال : يا معاشر العرب ! هل فيكم من يفعل ما آمره وأعطيه ثلاث ديات أعجل له واحدة واثنتين إذا رجع ؟ فقام فتى من غسان فقال : أنا يا أمير المؤمنين ! قال : تذهب بكتابي هذا إلى ملك الروم فاذا صرت إلى بساطه أذّنت . قال : ثم ما ذا ؟ قال : لا غير ذلك . قال : لقد كلفت أمرا صغيرا وأعطيت كثيرا . فكتب له وخرج ، فلما صار على بساط قيصر أذّن ، فتناحرت[٦] الروم واخترطوا سيوفهم ، فسبق إليه ملك الروم وجثى عليه وجعل يسألهم بحق المسيح عليهم[٧] لما كفوا عنه ،

(١) فى بن : صوت .

(٢) فى بن : دووى - كذا .

(٣) سورة ٣١ آية ١٩ .

(٤) فى بن : القتبى .

(٥) فى بن : ايقظه .

(٦) فى الأصل : فتناخرت ، ولا يستقيم المعنى إلا بتعديل أمكنة النقط فى الكلمة ؛ وفى بن : فتنافرت ، وهو جائز .

(٧) فى بن : عليه .

ثم ذهب به[1] حتى أصعده على سريره، ثم جعله بين يديه ثم قال: يا معشر البطارقة! إن معاوية قد أسن و كبر، و من أسنّ أرق، و قد آذته النواقيس التى بكنائس دمشق فأراد [١١٦ : الف] أن يقتل هذا على الأذان، فيُقتل من قِبَله منا على ضرب النواقيس ليبطل ضربها بكنائس الشام؛ و بالله ليرجعنّ إليه بخلاف ما ظنّ لتصير تضرب على عادتها فى أوقاتها المعروفة، فكساه و حمله و رجع الرجل إلى معاوية. فلما رآه معاوية قال: أو قد جئتنى سالما؟ قال: نعم و مكتسيا[2] أيضا. و حدثه حديثه و طالبه بالديتين الباقيتين فدفعهما له[3].

و سأذكر الآن ما قالت الأطباء فى الأرق[4] و ما الذى يزيله عمن ابتلى به، قالوا: الحيلة فيمن يعتريه الأرق باستنشاق دهن البنفسج العراقى و دهن الأطراف بعد الغمز الرفيق و قطع الأصوات إلا خرير الماء باعتدال و تقليل الضوء و تحذر أسباب الضعف و هى الجوع و السهر و الغم و الاستفراغ المفرط و الوجع الشديد لا سيما وجع المعدة خاصة ما يبلغ أن يحدث الغشى و إفراط المزاج للأعضاء و الأخلاط - انتهى. نعود، ثم إن النواقيس صارت تضرب على عادتها فى أوقاتها المعروفة مستمرة بكنائس دمشق، و ذلك لأن أهلها النصارى لا تبطل صوت

---

(١) ليس فى بن.

(٢) كذا فى بن، و فى الأصل: و مكتسى.

(٣) زيد فى بن: و انصرف ـ انتهى.

(٤) فى هامش الأصل: ما قالت الأطباء فى الأرق.

نواقيسهم إلا بمخالفة الشروط التى شرطت عليهم فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[١]، فاذا خالفوا الشروط استوجبوا بطلان ما عُوهدوا عليه. و كانت الشروط التى أُخذت على النصارى الذميين بدمشق حين فتحت هى و غيرها[٢] ألا يركبوا فرسا و لا يتختموا[٣] و لا تعلو دورهم على دور المسلمين، و لا يرفعوا أصواتهم عليهم، و لا يبنوا فى الإسلام كنيسة و لا ديرا، و لا يجدّدوا ما اندثر من دينهم و شريعتهم، و أن يتلقوا المسلمين بالتذلل و الخضوع و يسارعوا[٤] إلى قضاء حوائجهم و ما يريدون من مصالح شأنهم، و يعظمون الإسلام و أهله، و من أذنب منهم حُدّ، و من ارتد عن قول المسلمين قتل، و أن يشدّوا الزنانير على أخصارهم إظهارا لذلتهم و عرفانا بطاعتهم، و أن لا يظهروا صليبا و لا شيئا من أمور دينهم و كفرهم، و إذا صلّوا فى كنائسهم يضربون[٥] نواقيسهم و لا يرفعوا أصواتهم فى قراءتهم، و أن تؤخذ منهم الجزية عن كل رأس رجلا و امرأة ممن بلغ الحلم أربعة دنانير.

و هذه الشروط اشترطت[٦] على الروم أيضا بالإسكندرية حين فتحها

(١) فى هامش الأصل: ما شرط على الذمة عند فتح دمشق.

(٢) زيد فى بن: وسائر نصارى أهل الذمة الذين بأرض مصر و الشام.

(٣) فى بن: و لا يتختمون.

(٤) فى بن: يسارعون.

(٥) فى الأصل و بن: يضربوا.

(٦) ليس فى بن.

عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . قال الإمام فخر الإسلام[1] الشاشى الشافعى فى كتاب العمدة فى [١١٦ : ب] الفقه: تضرب الجزية على من له كتاب و[2] شبهة كتاب ، و هم اليهود و النصارى و المجوس ، و يشترط عليهم مع الجزية التزام الأحكام الشرعية ، فيؤخذ فى دار الإسلام بلبس الغيار ، و شد الزنار ، و يمنعون من ركوب الخيل ، و لا يتقلدون السيف ، و لا يحملون السلاح ، و إذا ركبوا البغال ركبوا باللكف عرضا ، و لا يُبدأون[3] بالسلام ، و يلجأون[4] إلى أضيق الطرق ، و لا يُصدّرون فى المجالس ، و يمنعون من إظهار الخمر و الخنزير ، و لا يجهرون بالتوراة و الإنجيل و ضرب الناقوس ، و من إظهار أعيادهم ، و رفع الصوت على موتاهم ، و يكون فى رقابهم خاتم من رصاص أو جرس يدخل معهم الحمام ، و يكون فى عنق المرأة من نسائهم خاتم يدخل معها الحمام ، و يكون أحد خُفيها أسود و الآخر أبيض ، و يمنعون من المقام بمكة و المدينة و اليمامة ، فان امتنع الذمى من أداء الجزية و التزام أحكام الإسلام أو قاتل المسلمين انتقضت ذمته ، فان زنى بمسلمة أو أصابها باسم النكاح ، أو فتن مسلما على دينه ، أو قطع عليه الطريق ، أو أوى للشركين عينا أى جاسوسا ، أو دلهم على عورات

(١) زيد فى بن : ابو بكر .
(٢) فى بن : او .
(٣) فى الأصل : يبدون .
(٤) فى الأصل و بن : يلجون .

المسلمين ، أو قتل مسلما و[١] كان قد شُرط عليهم الكف من ذلك ، انتقضت ذمته ، و قتل فى الحال ، و غُنم ماله فى أصح القولين – انتهى .

نعود إلى ما قيل فى فتح مصر[٢] و ما أُخذ من القبط حين صولحوا عليها . روى يحيى بن ميمون الحضرمى قال: لما فتح عمرو بن العاص مصر فى سنة تسع عشرة من الهجرة صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم إلى فوق ذلك ليس فيهم امرأة و لا صبى و لا شيخ على دينارين دينارين[٣] ، فاحصوا لذلك فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف ، فقبض منهم ستة عشر ألف ألف دينار . ثم إن عمرو بن العاص قال لقبط مصر: من كتمنى كنزا عنده[٣] فقدرتُ عليه قتلته . و إن قبطيا من أهل الصعيد يقال له بطرس[٤] ذكر لعمرو أن عنده كنزا ، فأرسل إليه ، فأنكره و جحده ، فحبسه فى السجن و عمرو يسأل عنه ، فقالوا: سمعناه يسأل عن راهب فى الطور ، فأرسل عمرو إلى بطرس ، فنزع خاتمه من يده ، ثم كتب إلى ذلك الراهب أن: ابعث إلىّ بما عندك ، فجاءه رسوله

(١) فى بن : او .

(٢) فى هامش الأصل : ذكر ما قيل [فى] فتح مصر . انظر أيضا فيما سبق ١٠١ : ب .

(٣) ليس فى بن .

(٤) و هذه القصة معروفة فى مختلف الكتب . انظر ابن اياس ج ١ ص ٢٤ و ابن دقماق ج ٤ ص ٥ و السيوطى (حسن المحاضرة – طبعة مصر ١٣٢٧) ج ١ ص ٥٤ و المقريزى (الخطط – نشر wiet) ج ١ ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

بقلّة نحاس مختومة بالرصاص ، فوجد فيها صحيفة مكتوبة[1] فيها : يا[2] أهل النصرانية ، و أهل ماء[2] المعمورية ! إن مالكم تحت الفسقيّة الفلانية ، فأرسل عمرو إلى فسقيّة [١١٧ : الف] النصارى الكبيرة ، فحبس عنها الماء ، ثم قلع البلاطة التي تحتها ، فوجد فيها بضعة و خمسين أردبا ذهبا مضروبة ، فضرب عمرو عنق بطرس عند باب المسجد ؛ فذكر ابن أبي رقية أن القبط أخرجوا كنوزهم شفقة أن [3] يبغى عليهم [3] فيقتلوا كما قتل بطرس . و هذا تصديق لحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و هو أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم و هم يحفرون[4] الخندق أي خندق المدينة ، فتناول رسول الله صلى الله عليه و سلم الفأس فضرب به ضربة ، فقال : هذه الضربة يفتح الله بها كنوز الروم . و لما فتح[5] المسلمون الأندلس جاء إنسان[6] إلى الأمير موسى بن نصير فقال : ابعثوا [7] معي حتى[7] أدلكم على كنز الروم . فقال لهم الرجل : احفروا ههنا . قال : فحفروا حائطا فسال عليهم من الزبرجد و الياقوت

---

(١) من بن ، و في الأصل : مكتوب .

(٢) ليس في بن .

(٣-٣) في بن : يسعى بهم .

(٤) زيد في الأصل و بن : حول .

(٥) من بن ، و في الأصل : فتحت .

(٦) في الأصل : انسانا ، و في بن مطموس .

(٧-٧) ساقطة من بر و واردة في بن .

شيء

شيء لم يُر مثله قط [1] .

و قد تغلغل بنا الكلام و تشعب إلى أن أخرجنا عن ذكر خبر وقعة الإسكندرية فلنرجع إلى ذكر ما فعلته الفرنج [2] أيضا بها ، و ذلك أن القتلى صارت بها مطروحة [3] فى كل ناحية ومكان من الرجال و النساء و الولدان [4] . قيل : إن الفرنج كانوا يذبحون المرأة و يذبحون ولدها على صدرها . و قيل : إنهم كانوا يجذبون الصبي الصغير بين اثنين فيتقطع و يتمزق . و قيل : [5] يضربون الصغار فى الحيطان فيهلكون .

و فيما اتفق بالإسكندرية قال الواقدي فى معناه قديما [6] فيما مضى من الزمان :

---

(١) زيد فى بن [٨٩ : الف - ب] : وقيل ان موسى بن نصير لما دخل الأندلس و ثبت جيوشه فيها فتح عليه من السبي ... الفضة ما لم يفتح مثله للمسلمين فى غزوة قط . لقد كان البربريان يجدان الطنفسة فنـ .... الذهب و الفضة منظومة باللؤلؤ و الياقوت و الزبرجد فلا يستطيعان حملها حتى يأتياه بالفأس فيضربان وسطها فيقسمانها و يحملانها و الناس مشغولون بمثل ذلك - انتهى . و قد تغلغ[ل] .... إلى ما قيل فى فتح مصر و ما أخذ من القبط حين صولحوا عليها عن ذكر خبر وقعة الإسكندرية . فلنرجع - الخ .

(٢) فى هامش الأصل : ذكر ما فعلته الفرنج أيضا بالإسكندرية .

(٣) الكلمة ساقطة من بر و واردة فى بن .

(٤) فى بن : و الأطفال .

(٥) زيد فى بن : كانوا .

(٦) ساقطة من بن .

قد أتتنا العلوج فى البحر جمعا بجيوش و عُـدّة وعَديــد
فاستباحوا منـا الحريم بقــهر بعد هول[1] منه يشيب الوليــد
و سبوا الحريم[2] صرن[3] حيـارى حاسرات و لاطمات الخـدود
وهبوا للمليــك[4] منهم نفوسـا طـاهرات تقِرّ بـالتوحيــد

ثم إن الأمير يلبغا الأتابكى المعروف بالخاسكى[5] المتقدم ذكره دخل الإسكندرية عقيب الوقعة ، فرأى ما حل بها ، و شاهد ما آل أمرها إليه من الحريق و الهدم ، و عاين جثث المسلمين قد انتفخت و اسودّت و تغيّرت و جافت ، بكى بكاء شديدا و حصل له من الألم المؤلم ما حمله على أن يأخذ الثأر من الفرنج الكفار ، فتهيأ لعمارة المراكب الغربان منها و الطرائد ، و شرع فى عمل السلاح و آلات الحرب ، و كان قد أتاه لما دخل الإسكندرية الأمير [١١٧ : ب] جنغرا ، و هو الذى أخذت المدينة[6] على يديه بدمه[3] الذى [7] صبغ قماشه [7] من سهام الفرنج ، فهدده يلبغا على تفريطه و أخذ الفرنج[6] البلد منه بجهله و عدم رأيــه

(١) فى بن : حول .

(٢) كذلك فى بن ، و فى الأصل : للحريم .

(٣) ساقطة من بن .

(٤) فى بن : للملوك .

(٥) فى بن : الخاصكى ـ عادة بالصاد .

(٦) ساقطة من بر و واردة فى بن .

(٧-٧) فى بن : صبغت ثيابه .

و خروجه بالناس[1] إلى الجزيرة و لم يتحصّن بسورها و يقاتل من أعلاه إلى أن تصل إليه[2] النجدة فى أقرب مدة ، فخاف جنغرا منه و قال : بهذا حكم الله لا قوة إلا بالله ، و لسان حاله يقول[3] :

من ضيّع الحزم جنى لنفسه ندامة ألذع من سفع الذكا
إن الشقا بالشقى مولّع لا يملك الرد له إذا أتى
و الدهر يكبو بالفتى و تارة ينهضه من عثرة إذا كبا
لا غرو إن لجّ زمان جائر فاعترق العظم[4] الممخ و انتقى
فان أمُت فقد تناهت مدتى و كل شىء بلغ الحد انتهى

فلما سمع يلبغا لسان[5] جنغرا و رأى ثيابه مصبوغة بدمائه ، علم أن المقادير لا تُردّ . فقال لسان حال يلبغا لجنغرا : قد تعرضت للشهادة بجهدك ، و لكن الله علم حاجتنا إليك فأبقاك للاسلام بخذلان من كان معك . و للواقدى أيضا شعر فى بعض وقائع الشام مع الروم ، اتفق مثله بالإسكندرية و هو :

أتتنا الروم فيها كل طاغ بجمع بالجزيرة حاصرونا
بأيديهم حراب من حديد و أسياف بها متقلدينا

(١) زيد فى بن : منها .
(٢) ساقطة من بر و واردة فى بن .
(٣) زيد فى بن : ما ذكره ابن دريد من مقصورته .
(٤) فى بن : اللحم .
(٥) فى بن : اعتذار لسان حال .

وسُود[1] من حديد جلّبوها   على الأجسام صاروا لابسينا
وصلبان ترفّع فى رماح   مذهبة بأيدى الكافرينا
فقتّلت الرجال بكل فجّ   وذبحت البنات مع البنينا
فما رحموا الصغير لصغر سنّ   وقد شقّوا بطون الحاملينا
فكم قتلوا وكم أسروا رجالا   مع النسوان صاروا سائقينا
تقول الغانيات بدار أسر   وقد بدّلن بعد العزّ هونا
وأسكبن الدموع على خدود   منعّمة وأظهرن الحنينا
ألا يا مسلمين فأنجدونا   ومن بين الكلاب نخلصونا[2]
فلو عاينتمونا فى أمور   لكنتم دائما تبكوا علينا

وهذا مثل لسان حال أسارى الإسكندرية فيما اتفق لهم، وقد [١١٨: الف] قلت أبياتا متفائلا بها كى يرجعوا إن شاء الله إلى بلدهم، كما قيل: الفأل موكل بالمنطق، وهى:

سوف تأتون يا أسارى إلينا   عن قريب وتقدمون علينا
قد غدا يلبغا الأمير عليكم   باكى العين مستكينا[3] حزينا
فاصبروا أيها الأسارى قليلا   سوف تأتوا[4] أوطانكم آمنينا

فلما كان الفأل موكلا[5] بالمنطق، رجع منهم إلى الإسكندرية جماعة

(١) كذا فى بن، وفى الأصل: سرد.
(٢) فى بن: خلصونا.
(٣) فى بن: مسكينا.
(٤) كذا.
(٥) من بن، وفى الأصل: موكل.

من

من أرض النصرانية . و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب[1] ذكر رجوعهم إليها[2] إن شاء الله تعالى .

ذكر المرثية

التى رثا بها الإسكندرية مؤلفه[3] غفر الله له و لوالديه و للأقربين إليه و لجميع المسلمين آمين[3] :

عاذلى لا تلم و خلّ ملامى   فعيونى بعد الدموع دوامى
خلّنى أسبل الدموع غزارا   و أطيل النواح طول دوامى
لا تلم و استمع مقالة صدق   لحديث نظمته من كلامى
هو يشجى القلوب عند سماع   فتصير الدموع منه هوامى
كيف لا أجرى الدموع كوبل   هاطل[4] مسبل كهطل الغمامى
لبلاء قد عمّ جمع أناس   سلبوا عزّهم بحدّ الحسامى
فالرزايا حلّت بثغر جليل   عَلَم من أكابر الأعلام
تركته من بعد عزّ متين   حالك اللون من غبار القتام
لهف نفسى على مدينة علم   رُزئت من مدائن الإسلام
لهف نفسى و لهف نفسى عليها   كيف أمست بعد الضيا كظلام
لهف نفسى على سلاح كثير   كيف[5] صار السلاح عند اللئام
أخذوه من القياع[6] اللواتى   حبستها بها كرام الأنام

(١-١) انظر ١٣٣ : الف .

(٢) زيد فى بن : و خبروا به فيما جرى لهم فى أسرتهم .

(٣-٣) فى بن استبدلت عبارة الغفران بالرحمة كالآتى : رحمه الله تعالى .

(٤) ساقطة من الأصل ، و واردة فى بن .

(٥) زيد قبله فى الأصل « و » خطأ ، و التصحيح من بن (٦) كذا .

كى تقاتل بها الفرنج الأعادى   الطغاة الكفار عند الصدام
ذلك اليوم لم تفد فى قتال   بعضها مغنم و باقٍ حطام
و غدا القصر سالما من أذاهم   لم يضع منه مقبضا لحسام
حفظ الله القصر منهم جميعا   فله الحمد دائما بالدوام
لهف نفسى على المساجد فيها   عُطّلت من جماعة و إمام
مدة كانت الفرنج أتتها   خُليت[1] من جماعة الحكام
[١١٨ : ب] ليس فيها غير النصارى تعطعط   و دواوينهم بطول المقام
يكتبوا النهب فى الجرائد حقا   بُحلاها بألسُن الأقلام
لهف نفسى على الجزيرة ما ذا   حلّ فيها من الفرنج الطغام
خرّبوا ربطها و عاثوا و عادوا   عرقبوا للجمال و الأنعام
لهف نفسى على التجار جميعا   أصبحوا بعد العزّ فى إعدام
لهف نفسى على حوانيت بزّ   و قماش مطّرز الأكمام
كيف[2] خلّوا جمع[2] الحوانيت منها   صفصفا بالخراب[3] مأوى الهوام
لهف نفسى على حلىّ كثير   و ستور الحرير ذى الارتسام
و البشاخين و المساند أيضا   مع فُرش وثيرة الأجرام
كيف صارت عند النصارى بقهر   و بجور و عنوة[4] و انتقام
لهف نفسى على الأسارى جميعا   أصبحوا بعد عزة و احترام

---

(١) فى بن : خلت .

(٢–٢) كذا فى بن ، و فى الأصل : تخلوا جميع .

(٣) فى بن : لخراب .

(٤) فى بن : و شدة.

فى كبول الحديد قد قيّدوهم — بقيود الحديد فى الأقدام
لهف نفسى على مدينة قوم — وحّدوا للهيمن العلام
كيف أمست بها الفرنج النصارى — الكلاب العباد الأصنام
ينهبون[1] و يأسرون رجالا — و نساء مع جملة الخدام
لهف نفسى على مدينة علم — تنجلى كالعروس بين الأنام
تركتها الفرنج يبكى[2] عليها — بحريق متوج بقتام
هى إسكندرية تسمى قديما — [3]عمّروها بسالف الأيام
عمروها بقبرس فى سنين — نحو سبعين مركبا[4] بتمام
دهنوها بالقار ثم بزفت — و بشحم تمشى بلا أقدام
فوق شبر من المياه تراها — كالثعابين تلتقى بازدحام
فأتوا سرعة ببيض قلوع — نحو إسكندرية كالغمام
قصدوا نحوها بحرب متين — بلباس سرد و حد حسام
فالتقتهم أهل لها[5] بجموع — كأسود الغابات و الآجام
قاتلت للفرنج وهو ببحر — خائضات للماء[6] بالأقدام
عن قريب شاهدت جمع النصارى — نزلوا البر فيهم كل حام

(١) من بن ، و فى الأصل : ينهبوها .
(٢) ساقطة من بن .
(٣) زيد فى الأصل : قد . والمصراع فى بن هكذا : قد أتتها الفرنج فى ذا العام.
(٤) انظر ١٠٩ : الف ، و على وجه أخص أيضا ١٢٣ : الف .
(٥) من بن ، وفى الأصل : اهلا لها.
(٦) فى بن : فى الماء .

بدروع ما مثلها من دروع   مسبلات على علوج جسام
[١١٩: الف] وخيول قد أنزلوها سريعا   عاليات كأكبر الأنعام
ملكوا[١] البرّ منهم واستعدّوا   كشرار يطير بالاضطرام
فرّت[٢] المسلمون منهم سريعا   قصدوهم بالضرب فى الأجسام
تركوا الباعة التى حاككوا النا   س دُسوت الطغام بالانهزام
منهم سالما من القتل حقا[٣]   ثم منهم رؤوسهم فى الطغام
قطعتها السيوف ثم تراها   غمغمت باللسان لا بالكلام[٤]
عائمات من[٥] حد سيف صقيل   خرط العنق[٦] سرعة بالعظام
قصد المسلمون للباب[٧] قصدا   مات من مات من قوى الازدحام
غلقوا الباب واعتلوا فوق سور   ورموهم بخارقات السهام
صارت السُّهم لا[٨] تؤثر فيهم   من لباس الحديد والاخترام
زحفوا أحرقوا لباب[٧] صغير   باب وِرْد موجه بالرخام
هجموا منه هجمة عافصوهم   بسيوف فى المسلمين الكرام

(١) فى بن: تملكوا.
(٢) كذا فى الأصل و بن، والصواب: فر، ولكن لا يستقيم به الوزن.
(٣) فى بن: عدواً.
(٤) هذا البيت ساقط من الأصل و وارد فى بن.
(٥) فى بن: فى.
(٦) فى بن: اللحم.
(٧) فى بن: الباب.
(٨) ليس فى بن.

ضربهم

ضربوهم ضربا قويا فخرّوا   بصعيد صرعى بذوق الحمام [١]
ليلة السبت صيّروها بذل   ما لها في ديارها من محام
أطلقوا النار في القياسر حتى   صيّرت بالحريق في إعدام
أسروا من شبابها كل شبّ [٢]   حسن مشبه لبدر تمام
وغدوا يأسروا [٣] نساء حسانا   كشبيه المها مع الآرام
حملوا المال والأسارى جميعا   سرعة لا إطالة الأيام
شردت منهم خلائق شتى   عالم لا تعد بالأقلام
خرجوا بالشتات من باب بر   سلكوا الطرق يرتمون المرام
وغدوا في البلاد جمعا حيارى   سكروا بالإرجاف لا بمدام [٤]

(١) زيد بعد هذا البيت في بن [٩٠ : ب] : الصعيد التراب ، وهو قول مالك والشافعي . و قال قتادة : الصعيد الأرض الملساء . و قال أبو زيد : الأرض المستوية . فان قيل : لأى شيء أمر ابن آدم بالتيمم عند عدم الماء؟ قيل : لأن ابن آدم خلق من ماء و تراب ، فكانت عبادته تتردد بين الماء و التراب ، إذا عدم أحدهما وجد الآخر ، و فيها حكمتان : أحدهما (كذا) أن طهارتها الأصلية كانت بالماء فنقل النبي صلى الله عليه و سلم منها عند عدم الماء إلى التراب الذى هو أصل الخلقة ، فتكون العبادة د[ا]ئرة بين قوام الحياة و أصل الخلقة ، و الثاني (كذا) أن النفس خلقها الله تعالى على جبلة و هي أن كل ما تتركب منه و أعرضت كسلت عنه ونفرت ، فاذا عدمت الماء أمرت بالتيمم لكيلا تتكاسل عن الصلاة فتأخذها عادة ـ انتهى . نعود إلى ذكر بقية أبيات المرثية .

(٢) في بن : شاب .

(٣) كذا لاستقامة الوزن .

(٤) انظر في ذلك الإشارة الى بعض آى القرآن الكريم (سورة ٢٢ آية ٢) : « و ترى الناس سكارى و ما هم بسكارى و لكن عذاب الله شديد » .

كل أنثى تصيح بعلى و ابنى   ثم بنتى و الطرف بالدمع هامى
ثم أخرى تقول داري و حليبى   و قماشى وا كشفتى وا سقامى
وا بلاى عدمت سترة حالى   ما بقى لى خلفى و لا قدّامى
يا عيونى [1]ابكوا على ما جرى لى   ضاع عقلى[2] منى و زال احتشامى[3]
ثم جمع التجار أضحوا حيارى   من ضياع الأموال و الخدام
صارت الناس و التجار جميعا   من بلاد العراق و الأعجام
و صعيد و أرض مصر و غرب   و حجاز و برقة و الشام
[١١٩: ب] باكيين[4] العيون مما دهاهم   منهم من يصيح بالآلام
ثم أيضا منهم رجال صموت   أزعجتهم نوائب الإعدام
كنت فيهم بعيلتى و بقلبى   حرّ نار الجوى كوخز السهام
لأثاث تركته مع كتب   نسختها[5] أناملى بالدوام
و تذكرت ما جرى لأناس   فكحلم رأيته فى منام
قال قلبى رويدك الآن فاصبر   قد كفيت الهموم[6] فى ذا العام
بنجاة من حد سيف لعلج   و عيال داموا[7] على الإسلام

(١) زيد فى بن: احزنوا و.
(٢) فى بن: العقل.
(٣) هنا بعض الأبيات ساقطة من بن.
(٤) فى الأصل و بن: باكين.
(٥) و هذا من الأدلة على صناعة النويرى و هى نسخ الكتب المخطوطة.
(٦) فى بن: اللوم.
(٧) من بن، وفى الأصل: أداموا.

فحمدت الإله ربى طويلا و توجهت بالعيال أمامى
قاصدا نحو بلدتى و مقامى من قديم الزمان والأيام
ليت شعرى متى تعود الليالى و أرى الثغر عامرا بالأنام
و جميع التجار تأتى إليه مثل ما قد مضى من الأعوام
و يعود الزمان يجمع شملى بقضاة و سادة ذى احترام
فعليهم تحيتى كل وقت ما صغى مسمع لصوت حمام
يا ترى ماجرى بأرض النصارى للأسارى مع الكلاب الطغام
فارحموا من غدا أسيرا و قولوا خلّص الله أسره بسلام
رحم الله جمع قتلى بثغر قتلوا وقت صدمة الاصطدام
قتلوا قتلة بنصل فرنج زهقت روحهم لدار السلام
فحيوا بعد قتلهم بجنان رُزِقوا من لذيذ [١] أكل الطعام [١]
شهداء ماتوا و حلوا بدار غبطتهم بها جميع الأنام
فعليهم رضوان رب رحيم ما ربت تربة بوبل [٢] زكام
صارت اسكندرية أحدوثة الدهر فى الأقاليم شائعا بالدوام
و تقول الرواة فى كل وقت إنها غودرت بشر اصطلام
لو [٣] بها كان حاميا يَحْمِيَنْها [٤] من ذوى الرأى ناهضا [٥] متسامى

(١ - ١) فى بن: كل طعام .
(٢) فى بن: نعرىل – بدون نقط .
(٣) فى بن: ولو .
(٤) فى بن: يحميها .
(٥) من بن، و فى الأصل: ناهظا .

لم يرعها جمع النصارى بسوء   لو أتوا[١] كالسيول أو بحر[١] طامى
لهف نفسى لو كان فيها صلاح الديـ   ـن المقر العالى زين الكرام
و الشجاع الصبور عند التلاقى   حامى الثغر ذى الأيادى الجسام
نائبا للسلطان فيها فأضحى   قاصدا للحجاز بالإحرام
جنغرا صار نائبا عنه فيها   زمن الحج مدة الأيام
فغدا جرحه يسيل دماء   من حسام أصابه و سهام
أخذت منه فى أقل قليل   هكذا حكم واحد علام
لهف نفسى لو كان فيها مقيما   ابن عرام عند وقع الصدام
كان يلقاهم بصدر رحيب   و برمح مثقف و حسام
و برأى مهذب مع قوم   وحّدوا الله دائما بالدوام
بعد جرى المياه فى خندق السو   ر بحذق و همة و التزام
فابن عرام للحروب إمام   يلتقى كل ضيغم ضرغام
و ابن عرام للفرنج حسام   باتر ضارب لهم بانتقام
و ابن عرام فى الولاية[٢] يرعى   أمد[٣] الدهر حوزة الإسلام
و ابن عرام صالح[٤] لأمور   عاجز غيره عن الإتمام
حكم الله أن يغيب عن الثغـ   ـر لأمر قد خطّ بالأقلام

(١ – ١) فى بن : كالسبول و بحر .
(٢) فى بن : الثغر .
(٣) فى بن : أبد .
(٤) فى بن : صلاح .

زاده الله رفعـــة و عُلوّا و سُمُوّا و بهجة فى الأنـام
ما سرت نسمة معطرة العر ف بمسك و عنبر و خزام
فالنويرى[1] قد رثا الثغر حقا عام سبع يا ويحه من عـام
بعد ستين بعد سبع مئين و أتى بالتـاريخ للأعـلام
غفر الله ذنبه و هـــداه لسواءالصراط طول الدوام - آخرها .

و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب ذكر المراثى[2] الشجية التى رثيت بها الإسكندرية إن شاء الله تعالى .

و كان السبب فى تأليفى هذا الكتاب . طول إقامتى بالإسكندرية و محبتى لها و لأهلها ، فانى دخلتها فى ذى الحجة سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة بسبب زيارة الصالحين و رؤيتها ، فلما حللت بها رأيت مدينة حسنة البناء جميلة المعنى طيبة السكنى ، كما قال الشاعر فيها :

فما مثلها فى الأرض يلقى مدينة فان كنت فى شك فأين نظيرها
فأضحت بحسن اليمن أحسن روضة و فاض بماء السعد فيها غديرها

(١) فى بن : و النوزى ، و هو خطأ واضح . و هذا من الأمكنة القليلة المذكور فيها اسم مؤلف الكتاب مما حذا بأهلواردت أن يفهرس مخطوط برلين بدون مؤلف - انظر المقدمة .

(٢) انظر ١٨٧ : الف - مرثية أبى عبد الله محمد بن حسن الشاطبى ، و كذلك ١٨٩ : الف - مرثية أبى عبد الله محمد بن طاهر الاخميمى ، و أيضا ٢٣٨ : ب - مرثية أبى عبد الله محمد النستراوى . و قد سبق ذكر مرثية ابن أبى حجلة ابتداء من الورقة ١٢٢ : ب و عليها من الشروح و التعليقات الهامة مع الكثير من المستطردات .

فلذت بمن يبغى بها مطلب الغنى فأوفر ذو مال و سر فقيرها
فقل للذى قد طال عنها انتزاحه هلم فقد طابت و طاب عبورها

[١٢٠ : ب] فأحببتها حينئذ و سكنتها [١]وتأهلت بها[١] و ألفت هذا الكتاب بها ، و ابتدأته فى جمادى الآخرة[٢] سنة سبع و ستين و سبعمائة إلى أن فرغت منه فى ذى الحجة سنة خمس و سبعين و سبعمائة[٣] . ثم اخترت سكناها أيضا حبا فى المرابطة بها لقول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : فرض الجهاد لسفك دماء المشركين ، و الرباط لحقن دماء المسلمين ، و حقن دماء المسلمين أحبّ إلىّ من سفك دماء المشركين . ثم ازددت فى سكناها حبا أيضا لقول الشاعر :

أرى الإسكندرية ذات حسن بديع ما عليه من مزيد
هى الثغر الذى يبدى ابتساما لتقبيل العفاة من الوفود
إذا وافيتها لم يبق مما بقلبك مذ تراها من بعيد
حللتُ بظاهر منها كأنى حللت إذًا بجنات الخلود
فلا بئر معطّلة و كم قد رأيت هناك من قصر مشيد
بياض يملأ الآفاق نورا يبشر برقه بسحاب جود
فأقسم لو رأتها مصر يوما لكادت أن تغيب عن الوجود

(١-١) ساقطة من الأصل و واردة فى بن ، و يدل ذلك على أن المؤلف تزوج من الإسكندرية و بها . و العبارة مكررة فى الأصل بعدئذ بقليل .

(٢) فى الأصل و بن : الآخر .

(٣) فى بن [٩١ : ب] : سنة ست و سبع و سبعمائة . و هو خطأ واضح .

وكم

وكم قصر بها أضحى كحصن[١] منيع لا كزرب من جريد
يرص فصوصه بانيه رصّا يفضله على نظم العقود
لها سور إذا لاقى الأعادى يقابلهم بوجه من حديد
هو الفلك استدار بها وكم قد رأينا فيه من برج سعيد
أحاط بسورها بحر أجاج ومنهل أهلها عذب الورود
هم السادات[٢] لا يرجى ويخشى سواهم عند وعد أو وعيد

فحملني حسنها وكثرة خيرها ٣على أن٣ سكنتها، وتأهلت بها، ونسخت لأكابرها بساحتها المنيرة كتبا كثيرة[٤]. ثم خرجت منها[٥] مع من خرج من الوقعة من باب برّها[٦]، ورجعت إليها لأرى صدفة دُرّها، كيف صارت بعد فعل الكفرة بها، لما تعدت عليها وجارت، فرأيت ما حيّر عقلي، وأذهل لبي، من خراب بعض أماكنها، وحريق بعض[٥] جوانبها، وجيف البغال والخيول، وتغيير الحال الذى يورث الذهول. وأما القتلى فانهم دفنوا قبل وصولى إليها، لم أر غير قبورهم بداخلها،

(١) كذا فى بن، وفى الأصل: كقصر.

(٢) فى بن: السعادات: وهو خطأ واضح.

(٣-٣) فى بن: أنى.

(٤) والمؤلف يكرر بهذه الجمل موضوع زواجه وصناعته بالإسكندرية.

(٥) ليس فى بن.

(٦) زيد فى بن [٩١ : ب] : لعدم إلقاء النفس فى الهلكة، لما لم يبق فى أهلها للقتال حركة، ثم رجعت.

و فيها دفنوا بأماكنهم، لتغيرهم و عدم استطاعة حملهم لتزلعهم . فجذبتنى الغيرة بأسبابها، و دعتنى [١٢١ : الف] الحمية لأربابها، إلى تأليف هذا الكتاب بها، ليقف عليه من يأتى من المسلمين بعد عصرنا هذا ليعلموا به ما اتفق بها فيما مضى من الزمان، و لتجتهد ملوك مصر الآتية بعد
٥ ملوك عصرنا فى حفظها من الفرنج بتكثير القياد بها و التركيز فيها لحراستها، كفعل عمرو بن العاص حين فتحها، فانه حفظها على طول الزمان، بقبائل العربان، فالله تعالى يجعلها فى حفظ و سلامة، إلى يوم القيامة، بمنّه و كرمه ليقام بها دين الإسلام، على مر[1] الليالى و الأيام .
و سأذكر الآن ما وقفت عليه من وقعة بغداد[2]، ليتسلى بها عما

---

(١) فى بن : مدى .

(٢) فى هامش الأصل : وقعة بغداد سنة إحدى و خمسين و ستمائة فى خلافة المستعصم بالله مع هلاكو خان .

و صحة ذلك التاريخ هو المحرم سنة ٦٥٦ هـ/ يناير سنة ١٢٥٨ م ويقع المؤلف فى نفس الخطأ فيما بعد (انظر ١٢١ : ب) .

و يلاحظ أنه بعد كلمة « وقعة » فى بن [٩٠ : ب] ينتقل المؤلف أو الناسخ فجأة إلى الجملة « خوفا من جبابرة الشام » فى الصفحة التالية [٩١ : الف]، و الجملة واردة فى قصة عيسى (انظر فيما بعد ر ١٣٠ : ب)، و على ذلك تسقط من بن أقسام عديدة هامة منها تاريخ وقعة بغداد و ما جرى للخليفة المستعصم مع التتر، و بعض أجزاء مرثاة ابن أبى حجلة، و مراكب البحر الرومى، و ما قيل فى أمور الملاحة و الفلك و الرياح، و مراكب بحر اليمن و الهند و نهر النيل =

جرى على الإسكندرية من الفساد، و ذلك أن جيوش التتر نزلت على بغداد فى سنة إحدى و خمسين و ستمائة، و أحاطت بـــدار الخلافة، فجاء سهم فى حَظيّة المستعصم بالله[1] و هى بين يديه من الشباك فقتلها، فعزّ ذلك على الخليفة، فأمر الخليفة بالاحتراز و كثرة الستائر، و اشتد القتال. ثم بعد ذلك وقعت المصالحة على أن ينزل الخليفة إلى بين يدى ملك التتر و يوافقه على نصف خراج العراق، ففعل الخليفة ذلك و نزل إليهم. فلما قرب من منزل السلطان حجبوا عنه كل من معه إلا سبعة عشر نفسا و أنزلوهم عن خيولهم و نهبتها التتر، فهال الخليفة ما رأى، فاضطرب فى كلامه. ثم عاد إلى بغداد و فى صحبته خواجا نصير الدين الطوسي صاحب كتاب تجريد العقائد الذى شرحه الشيخ شمس الدين الأصفهانى، و الخليفة تحت الحوطة و المصادرة، فأحضروا من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب و الفضة و الحلى و المصاغ، و ذلك بعد قتل الخليفة رفسوه رفسا فى جواليق الملك هلاكوخان[2] ملك التتر لئلا يقع على الأرض من دمه شيء فيؤخذ بثأره، و يقال إنه غرق فى الدجلة. ثم مال جيش هلاكو الملك على أهل بغداد، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال و النساء و الولدان و المشايخ و الكهول، و نزل كثير

= و الدجلة، ثم تحليل المؤلف لأعضاء الجسم البشرى و وظائفها، إلى أن دخل فى قصة عيسى عليه السلام. و قد أوردنا جميع هذه الموضوعات نقلا عن بر فيما يلى.

(١) و كان حكمه سنة ٦٤٠ - ٦٥٦ هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م.

(٢) تاريخ حكمه ٦٥٤ - ٦٦٣ هـ / ١٢٥٦ - ١٢٦٥ م.

من الناس فى الآبار استخفوا بها ، فبلغت القتلى ألفى ألف نفس ، فانا لله و إنا إليه راجعون . و كان قتل الخليفة المستعصم بالله يوم الأربعاء و عمره ست و أربعون سنة و أربعة أشهر ، و قتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، ثم قتل ولده الأصغر مبارك و الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن ، و أسر [١٢١ : ب] من دار الخلافة نحو ألف بنت بكر ، و قتلت الشيوخ و الخطباء و حملة القرآن ، و تعطّلت المساجد و الجماعات مدة شهور ، و قضى الأمر المقدر ، و بقيت بغداد مدة أربعين يوما خاوية على عروشها ، ليس بها أحد إلا القليل من الناس ، و القتلى فى الطرقات كالتلول ، و نتنت البلد من جيفهم ، و تغير الهواء ، و حصل الوباء الشديد حتى تعدى و سار إلى بلاد الشام فحصل الوباء به . ثم بعد ذلك نودى ببغداد بالأمان ، فخرج من كان تحت الأرض من الآبار و المطامير و المغاور[1] كأنهم الموتى إذا انتشروا من القبور ، و قد أنكر بعضهم بعضا ، فلا يعرف الوالد ولده ، و لا الولد والده ، و أخذهم الوباء الشديد ، فتفانوا و تلاقوا من البغداديين المقتولين . ثم إن السلطان هلاكو خان رحل عن بغداد ، و فوض أمرها إلى الأمير بهادر .

ثم إن هلاكو خان قبل رحيله عن بغداد أرسل كتابه إلى الملك الناصر[2] صاحب دمشق يقول فيه : « أما بعد فانا نزلنا على العراق سنة إحدى و خمسين[3] و ستمائة و نازلنا بغداد فحاولنا ملكها و سألناه عن

(١) فى الأصل : المغائر — كذا .

(٢) و هو الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف و كان حكمه سنة ٦٤٨ – ٦٥٨ هـ / ١٢٥٠ – ١٢٦٠ م .

(٣) كذا فى الأصل و ربما كانت صحته : ست و خمسين .

مسألتين فكذب فيهما و ندم ، فاستوجب منا العدم « و وجدوا ما عملوا حاضرا و لا يظلم ربك احدا[١] » و باعوا أنفسا نفيسة بنفائس خسيسة ،

إذا تم أمر بدا نقصه توق[٢] زوالا إذا قيل تم

أعاذنا الله من عين التمام ، و جعلنا مستزيدين على مر الليالى و الأيام ، حال وقوفك على هذا المثال تسيّر البغاددة و المنتزحين عنها و تعد الرؤوس و تأخذ على كل رأس دينارا ، و تنفد الإسماعيلية[٣] بأموالهم و أولادهم ، و تجىء تبصرنى تبصر صورة ما رأيت مثلها » .

قيل إن هلاكو خان الذى تسميه العوّام هلاوون[٤] أقام على بغداد أربعة عشر يوما يقتل فى كل يوم خمسين ألف نفر . فلذلك قيل : إن الذى قتل فيها سبعمائة ألف نفر ، و إنه جمع جميع من فيها من الصغار و جعلهم فى الجامع على أن يراهم الملك ، فيجعلهم برسم الخدمة ، فغلق عليهم أبواب الجامع إلى أن ماتوا الجميع جوعا و عطشا ، و الذى قُتل من بنى العباس ما يزيد على ثمانمائة نفر و لم يبق منهم إلا صبى صغير .

---

(١) قرآن كريم ١٨ : ٤٨ .

(٢) فى الأصل : توقى .

(٣) كان تدمير فرقة الإسماعيلية و قلاعهم من ضمن برنامج الغزو الذى رسمه هولاجوخان ، و الظاهر أنه غزا فعلا جميع حصونهم فى سنة ٦٥٤ ﻫ / ١٢٥٦ م قبل اتجاهه فى العراق لغزوة بغداد و الخلافة العباسية .

(٤) فيما يلى بعض أسماء هولاجوخان فى المصادر الأوربية القديمة و هى توافق تقريبا تسمية العوام له :

Halaoon, Halaou, Haloou, Kulau, Haloon, Haloen, Holaou, Alloni.

و يقال : إن الخليفة المستعصم أُشبح على الأرض و ركب العسكر و داسه حتى أُخذ فى حوافر الخيل و لم يوجد له أثر ، فلا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم . و كان بمصر رجل صالح زاهد[1] قال : كنت بمصر فبلغنى ما وقع [١٢٢ : الف] ببغداد ، قلت : فكيف و فيهم الأطفال و من لا ذنب له ! فرأيت فى المنام رجلا و فى يده كتاب ، فأخذته فاذا فيه بيتان[2] من الشعر و هما[3] :

دع الاعتراض فما الأمر لك و لا الحكم فى حركات الفلك
فلا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجّة بحر[4] هلك

قال السرّاج عبد اللطيف التكريتى[5] فى ديوانه من قصيدة مدح بها النبى صلى الله عليه و سلم أولها :

ما للبرية غير بابك باب سيما و قد ضاقت بنا الأسباب

و منها :

من فتنة جلّتْ و جلّ مصابها و غزية حلّت فحلّ مصاب
تتر أتوا تترى كأن جيوشهم سيل تحادر أو أظلّ سحاب
فتحوا مدائن فارس و حصونها و سبوا ذراريها و لم يرتابوا
و أتوا إلى دار السلام فنكسوا علم الخلافة بالعراق و آبوا

(١) فى الأصل : زاهدا .
(٢) فى الأصل : بيتين .
(٣) فى هامش الأصل : مطلب بيتين رآهم رجل من الصالحين فى المنام .
(٤) فى الأصل : بحره .
(٥) السراج عبداللطيف التكريتى ، انظر فيما تقدم ٣٦ : ب ، ٤٣ : ب ١١٤ : ب .

و ديار بكر و الجزيرة كم خلت منها قرى و شوارع و رحاب
ركبوا ظهور الصافنات و غيّروا نهر الفرات و هم له ركاب
ملكوا الشآم مع العراق فعمّوا دينا بمصر الخوف و الإرهاب
و طغى على الإسلام علج كافر سيىء السريرة فاجر كذاب
ذلت عساكرنا لديه و ولت الـأدبار خوفا من لقاه و هابوا
و غدت جيوش المسلمين هزيمة منهم و آن من البلاد ذهاب
و سما الصليب بجلّق و بلادها و علا بها بعد الضياء ضباب
فالمال نهب و الحريم تحكمت فيه الأعادى و الديار خراب
كم ذات خدر أبرزت من خدرها و دموعها فوق الخدود سكاب
من كل واضحة الجبين تخالها سترت محاسن وجهها الأبواب
يا رب قد عمّ البلاد مصائب عظمت وحارت عندها الألباب[1]
ووهت عرى الإسلام وانحل القوى و تقطّعت من دونك الأسباب

و منها:

يا آل هاشم يا قريش وسيلة يا آل غالب أنتم الغُلّاب
فارفع لواء النصر فوق رؤوسنا فأغث إذا ما صُفّقت الأطلاب
واشدد عرى الإسلام منك بعزمة و سل الإله لهم فأنت مجاب
فمتى عطفت على الوجود بعطفة ولويت جيدا من وجودك طابوا

[١٢٢ : ب] و فى تاريخ وقعة بغداد أخذت التتر دمشق و حلب، و زال ملكهم عنها بعد أن دخلوا إلى الجامع بالخمر. و فيه جاءت الأخبار

(١) فى الأصل: الأبواب.

بنصرة المسلمين على التتر بعين جالوت[1]، فبويع بالخلافة للمستنصر بالله عم المستعصم، و قد كان معتقلا ببغداد، و ركب فى دست الخلافة بالديار المصرية، و الأمراء بين يديه و الناس حوله، و شق القاهرة، و كان إذ ذاك [2]منصب الخلافة شاغرا[2] ثلاث سنين و نصف سنة، و ألبس الخليفة الملك الظاهر بيبرس بيده خلعة سوداء و طوقا فى عنقه و قيدا فى رجليه. و صعد فخر الدين إبراهيم رئيس الكتاب كرسيا فقرأ عليه تقليد السلطان الملك الظاهر بهذه الأبهة و القيد فى رجليه و الطوق فى عنقه، و الوزير بين يديه على رأسه التقليد، و الأمراء و أرباب الدولة فى خدمته مشاة، و قد زينت القاهرة، و كان يوما مشهودا.

و فيه توفى الخليفة المستنصر بالله العباسى المذكور بمصر مقتولا. و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب ذكر أسماء الخلفاء و أسماء ملوك الفرس و الروم و العرب، و ما قالوه من الحكم، و بعض ملوك مصر إن شاء الله تعالى.

ذكر المرثية التى رثا بها الإسكندرية الشيخ الفاضل أبو العباس أحمد ابن أبى حجلة المغربى[3]، و ذكر ما يتيسر ذكره على أبياتها إن شاء الله تعالى. قوله رحمه الله و عفى عنه و غفر له:

(١) و تاريخ هذه الوقعة رمضان سنة ٦٥٨ هـ / سبتمبر سنة ١٢٦٠ م، و كانت النصرة فيها للسلطان بيبرس.

(٢-٢) فى الأصل: لمنصب الخلافة شاغر.

(٣) ابن حجلة و تتكون مرثاته من ٢٣ بيتا بالإضافة إلى التعليقات و فيها بعض شعر.

ألا في سبيل الله ما حلّ بالثغر على فرقة الإسلام من عصبة الكفر

يعنى بالثغر ثغر الإسكندرية، و بفرقة الإسلام أهلها، و بعصبة الكفر جند الكلب اللعين ربير بطرس صاحب قبرس بن ريوك، جمع الملعون جموعه النصرانية و أتى بهم إلى الإسكندرية على حين غفلة من حماتها فظفر بها كما تقدم ذكره. و سأذكر ما قيل فى الحين إن شاء الله تعالى.

الحين[1] فى اللغة: الوقت، و منه قولك: حينئذ، أى وقت إذ كان كذا، و سواء طال ذلك الوقت أو قصر، و قد يستعمل بلفظ الإطلاق و يراد به الوقت، و منه قوله تعالى: «هل أتى على الانسان حين من الدهر[2]» و أما الدهر فله معنيان: أحدهما الزمان، قال الشاعر:

إن دهرا يلفّ شملى بجمل لزمان يهمّ بالإحسان

و أمّا الزمان[3] فاسم مطلق الوقت و يستعمل فى قليله و كثيره. و أما [١٢٣: الف] العصر فالدهر. و قال ابن عباس فى الحين: إنه ستة أشهر، و مال بعض شيوخ العلم إلى حمل الحين على مدة فيها طول و إن لم يبلغ سنة، و هو الأقرب لأن الناس لا يريدون بالحين و الزمان هنا معناهما لغة و لم ينضبط لهم فيه عادة بالسنة و إنما يريدون غالبا من ذلك الطول بحسب الوقائع، و الله أعلم. قال اللخمى: إذا قال دهرا أو عصرا أو زمانا فهو سنة. و قال الداودى: الأكثر فى الزمان و الدهر مدة

(١) فى هامش الأصل: الحين.

(٢) قرآن كريم ٧٦: ١.

(٣) فى هامش الأصل: الزمان.

الدنيا . و قاله ابن شعبان فى العصر، و القول بالأبد منصوص إلا فى الدهر و الزمان و العصر - انتهى .

و قول ابن أبى حجلة :

أتاها من الفرنج سبعون مركبا فضاحت[1] بها الغربان فى البر و البحر

أتاها يعنى الإسكندرية مراكب[2] حربية مجمعة من أجناس مختلفة . قيل : إن البنادقة أتت معه إليها فى أربعة عشر غرابا ، و الجنوية فى غرابين ، و الروادسة فى عشرة[3] غربان ، و الفرنسيسيين فى خمسة[4] غربان ، و الباقى من جزيرة قبرس . و المراكب الغزوانية تسمى غربانا[5] ، و ذلك لرقتها و طولها و سوادها بالأطلية المانعة للماء عنها كالزفت و غيره ، فصارت تشبه سوادها الغربان من الطير لسوادها و سواد مناقيرها ، فالغراب الأسود جميعه من الطير يسمى نوحيا و الأبلق يسمى زرعيا . و قد ورد فى الخبر أن آدم عليه السلام لما هبط من الجنة و زرع الزرع جاء الغراب أكله ، فأنزل الله عليه [6]قوسا و أسهما[6] و قال : نش آب ، و آب اسم الغراب ، فرماه آدم بتلك الأسهم[7] قتله فسميت الأسهم نشاب ، و يقال أيضا لغراب الطير : غراب البين . و البين البعد كأنه فى صياحه ينذر بالبعد و فراق الأحبة ، كما يقال فى المثل : أشأم من غراب .

(١) ابن إياس ج ١ ص ٢١٥ : و ضاقت .
(٢) فى الأصل : مراكبا .
(٣) فى الأصل : عشر . (٤) فى الأصل : خمس .
(٥) فى هامش الأصل : لم سمى غرابا .
(٦ - ٦) فى الأصل : قوس و أسهم .
(٧) فى هامش الأصل : نكتة .

قال

قال المقدسي على لسان حال الغراب[1] : أيها النادب بين الأحباب ، المتجلبب من الحداد بجلباب ، الراضي بين العباد بتسويد الثياب ! ما بالك لم تزل في البكور ساعيا ، و على الربوع ناعيا ؟ إن رأيت شملا مجتمعا أنذرت بشتاته ، و إن شاهدت مربعا بشّرت بدروس عرصاته ، فأنت لذي[2] الخليط المعاشر ، أشأم من قاشر . فناداني بلسان زجره الفصيح ، و عنوان حاله الصحيح : أنت لا تفرّق بين الحسن و القبيح ، فكأن المواعظ في أذنك ريح ، أما تذكر ارتحالك من هذا الفسيح ، إلى ضيق الضريح ؟ أي جمع لم يتفرّق ؟ [١٢٣ : ب] أي شمل لم يتمزّق ؟ أين ذو العمر الطويل ؟ أين ذو الوجه الجميل ؟ أين ذو المال الجزيل ؟ أما قرضهم الموت جيلا بعد جيل ؟ أما ساوى في الثرى بين العبد الذليل ، و المولى الجليل ؟ فكيف تلومني على نواحي ، و تتشاءم بصياحي ؟ و لو علمت أيها اللاحي ، ما فيه صلاحك و صلاحي ، لوافقتني في سواد جناحي ، و أجبتني بالنواح في سائر النواحي ، و ها أنا أعرف النازل خراب المنازل ، و أبشر الراحل بقرب المراحل ، فصديقك من وعظك و أيقظك ، و حذرك و أنذرك ، و لو أنذرتك بسواد جناحي ، و حذرتك بتردادي و صياحي . و قال :

يعنفني الجهول إذا رآني ... و قد ألبست أثواب الحداد
فقلت مجاوبا بلسان حالي ... فإني قد نصحتك باجتهادي

(١) في هامش الأصل : مقامة في الغراب .
(٢) في الأصل : لذا .

فها أنا كالخطيب ألست تلقى   على الخطباء أثواب السواد
تيقظ يا قليل السمع و اسمع   إشارة ما تشير به الغوادى
فكم من رائح فيها و غادى   ينادى من دنو أو بعادى
لقد أسمعت لو ناديت حيا   و لكن لا حياة لمن تنادى – انتهى .

نعود ، و سأذكر الآن ما قيل فى البحر الرومى[1] و مراكبه ، و البحر اليمنى و الهندى و مراكبهما ، و نهر النيل و مراكبه ، و نهر الدجلة و مراكبه ، و أسمائها ، و الرياح و مهابها و أسمائها و جهاتها ، و معرفة العلامات التى جعلها الله هدى فى الظلمات ، و الرائس و ما يلزمه فى معرفة سفره فى البحار ، لأنه متسلم رقاب التجار و أموالهم ، إن شاء الله تعالى .

اعلم أن البحر الرومى[2] المالح له مراكب مختصة به ، و لها أسماء غير أسماء مراكب الأنهار ، فبحر الروم مراكبه مسمورة بالمسامير الجافية الكثيرة العدد ، بخلاف بحر اليمن و الهند فانها ليست مسمورة بل مخيطة بالقنبار ، و هو ليف النارجيل ، و ذلك لما فى بحر الهند و اليمن من جبال المغناطيس الذى إذا شمها الحديد طار إليها بسرعة لعشقه لها . و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب ذكر حجارة المغناطيس[3] و مواضعها و صفاتها عند ذكر أصناف الجواهر و أسمائها ، إن شاء الله تعالى .

(١) فى هامش الأصل : ذكر ما قيل فى البحر الرومى و غيره .
(٢) فى هامش الأصل : مراكب البحر الرومى .
(٣) انظر « ق » ١٣٩ : ب عن حجر المغناطيس .

فالبحر الرومى عليه من المدن[1] صور و عكا و طبرية و الرملة[2] و عسقلان و غزة و الفرما و تنيس[3] و دمياط، و يقطع الإسكندرية، ثم يمر على بلاد برقة و طرابلس الغرب و القيروان[4] و فاس و الأندلس. فمراكبه الكبار تسمى [١٢٤ : الف] قراقر واحدها قرقورة، و صاحبها يسمى بلغة الفرنج كبطان[5]، و كاتبها على حملها لبضائعها يسمى شَكِرْبان[6]، و تاجرها يسمى البترون[7]. و منها زوارق واحدها زورق. و منها طرائد واحدها طريدة. و منها غربان واحدها غراب، و يقال للغربان أيضا شوانى واحدها شينى، و يقال لها: أجفان واحدها جفن، و هى ذوات أجنحة. و منها شياطى واحدها شيطى. و منها عشاريات واحدها عشارى. و منها سلالير واحدها سلّورة. و منها قوارب واحدها قارب.

---

(١) فى هامش الأصل: أسماء المدن التى على البحر الرومى.

(٢) يلاحظ أن الرملة و طبرية على بعد من شاطئ البحر.

(٣) الفرما و تنيس زالتا قبل القرن الرابع عشر الميلادى.

(٤) القيروان على مسيرة يومين من شاطئ البحر، و ربما كان المقصود المنطقة لا البلد بالذات.

(٥) بلغة الفرنج المعروفين بالإسكندرية Capitano. انظر فى موضوع المراكب باللغة العربية كتاب كندرمان:

H. Kindermann: 'Schiff'im Arabischen. Untersuchung über Vorkommen und Bedeutung der Termini. Zivickau i. Sa. 1934.

(٦) بلغة البنادقة و الجنوية Scrivano.

(٧) أى Patrone أو Padrone.

و القراقر و الزوارق لحمل البضائع ، و الزوارق دون القراقر جدا . فني القراقر ما[1] هي بثلاث ظهور ، و توسق البضائع من أبواب بأجنابها ، فاذا قرب الماء من الباب الأسفل بعد كمال سفلها بالوسق غُلق و سُمّر و قُلفط و طُلى بالأطلية المانعة للماء و حُملت البضائع إلى الباب الذى هو أعلاه فى الطبقة الثانية إلى أن يتكمل وسقها، فاذا تكمّل سُدّ بابها الذى هو فى ظهرها، و صار سطحها فارغا للركاب و أثاثها ، و ليمر الماء عليه عند هيجان البحر، فتمر الأمواج عـلى سطح القرقورة ليخرج من ميازيبها المصنوعة لها بجوانبها ، فتصير القرقورة بتلك الميازيب آمنة من إقامة المياه على ظهرها و سطحها مع ما يُنزح من بئر جمتها بالدلاء المرصّدة لها . و القراقر ليس لها سفر إلا بالقلاع الممتلئة بالريح العاصف ليجرّها لكبرها و ثقل حملها . و لكل قرقورة ثلاث قلاع ، القلع الواحد يسمى بلغة الفرنج بنّيطه[2] و الثانى اَرْدِمُون[3] و الثالث كاكوا[4] . و أما الطرائد فانها مفتوحة المواخير بأبواب تُفتح و تَغلق معتدة لحمل الخيل بسبب الحرب.

و أما الغربان فتحمل الغزاة ، و سيرها بالقلع و المجاذيف ، منها من

(١) فى الأصل : من .

(٢) و الكلمة بلا شك معربة عن الاصطلاح الفرنجى Bonneta أو Bonnette و يعنى بها قلع صغير اضافى للقلاع الكبيرة و المقصود به تعريض أكبر مساحة ممكنة للرياح و المساعدة فى جريان المراكب .

(٣) «الأردمون» لا بد تعريب كلمة Artimon وهو قلع المركب الأمامى .

(٤) «كاكوا» ومن الممكن أن تكون «كاكاتوا» وهى لا بد معربة عن Cacatois وهذه عبارة عن قـلع صغـير إضافى يوضع فوق القلع الأكبر لإحكام تسيير المراكب بالرياح .

له مائة و ثمانون مجذافا و أقل من ذلك . و الشيطى يجر بثمانين مجذافا ، و وظيفته كشف اليمين و يرد بالخبر للقراقر و الغربان و غيرها . و أما العشارى فيجر بعشرين مجذافا و هو الذى يعدى بالبضائع و الرجال من الساحل ، لأن القراقر لا تقف إلا فى المكان الغزير الماء من الميناء لكونها إذا نطحت قاع البحر انكسرت لثقلها و ثقل وسقها ، فان فى القراقر من يكون حملها بضعة عشر ألف جريرة[1] من الزيت إلى غير ذلك من سائر الأصناف . و السلورة بين الشيطى و العشارى ، و القوارب نافعة لرماة المسلمين وقت الحرب فى البحر يكون [١٢٤ : ب] فى كل قارب أربعة أو خمسة من الرماة يعينون[2] غربان المسلمين على القتال لغربان الفرنج و قراقرها ، و ذلك لسرعة دورانها و خفتها و تفرقها على مراكب الفرنج . و يقال : إنه ليس على القراقر ضرر غير القوارب إذا تفرقت عليها بسهامها و مدافعها إذا كانت القرقورة مرسية .

و المراكب المعروفة بالنقائر تنفع فى البحر الملح لقتال المسلمين فيها للفرنج الكافرين . فهذه مراكب البحر الرومى التى يسافر فى بعضها الفرنج و المغاربة و الشاميون[3] ببضائعهم إلى سواحل الشام مثل طرابلس و صيدا و بيروت و الصرفند و غيرها ، و لها مراسى معروفة كل مرسى باسمها . و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب ذكر المراسى التى ببحر الروم

(١) فى الأصل : جزيرة .

(٢) فى الأصل : يعينوا .

(٣) فى الأصل : الشاميين .

و المأمون منها و المخوف و ما فى كل مرسى من العيون و المواجن [١] و القراطل [٢] و ما تحمل كل مرسى من البضائع [٣] إن شاء الله تعالى .

و سأذكر الآن ما قيل فى رائس [٤] بحر الملح و ما يلزمه فى معرفة سفره فيه متسلما [٥] رقاب التجار و أموالهم . و ذلك أنه لا يتم لرائس المركب فى البحر الملح قاعدة شغل إلا بمعرفة العلامات التى جعلها الله هدى فى الظلمات و بها يستخرج قوانين الجهات و مهابات الرياح و الأمهات . قال الله تعالى : « و هو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمٰت البر و البحر [٦] » . و الواجب منها معرفة الاثنى عشر برجا [٧] و منازلها الثمانية و العشرين . فأول البروج الحمل ، ثم الثور ، ثم الجوزاء ، ثم السرطان ، ثم الأسد ، ثم السنبلة ، ثم الميزان ، ثم العقرب ، ثم القوس [٨] ، ثم الجدى ،

(١) أيضا « المواجل » جمع « ماجن » أو « ماجل » أى مخزن المياه cistern . انظر Vollers, in ZDMG, 1898, p. 635 . انظر أيضا اليعقوبى ص ٣٤٨ حيث يذكر « المواجل » فى القيروان .

(٢) جمع قرطال أو قرطاز أو قرطيل ، أى رأس أو نتوء من الساحل فى البحر من اليونانية To' α' kρωτηρioγ (To Akrwtyrion) . راجع الإدريسى طبعة Dozy-de Goeje.

(٣) فى الأصل : القطايع .

(٤) فى هامش الأصل : رائس مراكب البحر المالح .

(٥) فى الأصل : متسلم .

(٦) قرآن كريم ٦ : ٩٧ .

(٧) فى هامش الأصل : البروج الاثنى عشر .

(٨) فى هامش الأصل : المنازل .

ثم الدلو، ثم الحوت، و منازلها ثمانية و عشرون: أولها النطح، و البطين، و الثريا، و الدبران، و الهقعة، و الذراع، و النثرة، و الطرف، و الجبهة، و الزبرة، و الصرفة، و العواء، و السماك الأعزل[١]، و الغفر، و الزبانة[٢]، و الإكليل، و القلب، و الشولة، و النعائم، و البلدة، و سعد الذابح، و سعد بلع، و سعد السعود، و سعد الأخبية، و الفرغ[٣] الأول، و الفرغ[٣] الآخر، و الشرطين[٤]؛ و على هذه المنازل عيوقات[٥] تعرف بالكواكب الثابتة مثل الدبران، و منكب الجوزاء، و الشعرى العبور، و الشعرى الغميصاء، و قلب الأسد، و السماك الرامح، و السماك الأعزل، و قلب العقرب، و النسر الواقع، و النسر الطائر، و الفكة، و الردف، و الدلفين، و بطن قيطوس، و ذنبه و غيرهما مما يطول ذكرها[٦]. و اختص أهل البحر بمعرفة الكواكب الثابتة التى ليست بغاربة

---

(١) فى الأصل: و السماك و الأعزل. (٢) فى الأصل: الزبانا. (٣) فى الأصل: الفرع. (٤) كذا فى الأصل، و الظاهر: الشرطان، كما فى تاج العروس ١٦٦/٥. و هذه كلها سبعة و عشرون منزلا، و الثامن و العشرون «بطن الحوت» راجع كتاب التفهيم للبيرونى ص ١١٣.

(٥) فى الأصل: عبوقات، و قد ظهرت فيما بعد: عيوقات، و الغالب أن هذا هو الأصح، و ربما كان المقصود بها الكواكب الموجودة بين كوكبين فهى لذلك تعوق الطريق بينهما.

(٦) انظر فيما يتعلق بعلم الفلك عند العرب و ما تركه من الأثر فى أوربا و اللغات الأوربية:

P. Kunitzsch, *Arabische Sternnamen in Europa*, (Wiesbaden 1959.)
Mohammad Abdur-Raḥmān, *Muslim Contribution to Meteoric Astronomy*; in *Islamic Culture*, XX (1946), pp. 353-61.

كبنات نعش [١٣٥ : الف] و ما حولها من الفرقدين ، و الجدى ، و بين الجدى و بين الفرقدين القطب الشمالى يعرف بالسمايا عند أهل البحر ، و القطب ثابتة نقطة دائر الكواكب المتحركة بتقدير العزيز العليم .

و من كان عالما بهذه المنازل و الأبراج و الكواكب طالعها و غاربها
٥ و عيوقاتها الدالة عليها و مراتبها و مقدار سيرها المحقق لأخذ نقطة الجهات فى كل الأوقات من ليل و نهار استحق التقليد فى سبقه و تصدّى لادعاء رتبة الاجتهاد مع التوكل على خالقه و التسليم لأمره ، و إنه تعالى الهادى فى بره و بحره .

و اعلم أن للفلك [١] قطبين شماليا و جنوبيا ، فالجنوبى لا يُرى بشىء
١٠ من جزيرة العرب ، و الشمالى هو المرئى بالمغرب ، و به تقتدى أهله ، فاذا عدموها و حُجبت عن أبصارهم فسرّ الحجر المغناطيس [٢] المودع فيه بتقدير اللطيف الخبير ينوب عنها ، و ذلك أنه يؤخذ حُقّ من الخشب ، و يُركّب فيه قشرة خشب معروفة عند أهل البحر ، لها خرطوم فيها

= راجع أيضا : كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم لأبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى ، ترجمه إلى الإنجليزية R. R. Wright بعنوان

"*The Book of Instruction in the Elements of the Art of Astrology.*"

طبعة المتحف البريطانى (لندره سنة ١٩٣٤)

George Sarton, *Introduction to the History of Science* (Baltimore 1947-48), Vol. III, *Science and Learning in the Fourteenth Century*, Part II.

(١) فى الأصل : الفلك .

(٢) بهامش الأصل : بيت الإبرة .

إبرة

إبرة بوسط القشرة مربوطة بتلك القشرة و طرف الإبرة على خرطوم القشرة ، و يجعل فى وسط القشرة سهم قائم كهيئة عجلة الطاحون فى الأشتول[1] ، و يجعل فوق ذلك الحُقّ زجاجة كجامة الحمام تقى الحُقّ من الهواء[2] ، فاذا كان الغيم فى الليل و لم تر[3] نجمة فى السماء يطوف الرائس الحجر عنها فتصير دائرة إلى أن تقف ، فلا يقف طرف الإبرة إلا مقابلا للقطب الثابت فى السماء ، فيعرف الرائس حينئذ المكان الذى يقصده فى سفره ، إما أن يأخذ مقابل القطب أو عن يمينه أو عن يساره أو يتركه خلف ظهره .

و ليكن الرائس له معرفة أيضا بما يقصده من الجهات الأربع[4] و مهاب الرياح الأمهات و غيرها ، و الأمهات من أربع جهات ، فالجهة الشرقية مهب الصبا و هى الشرقية ، و الجهة الغربية مهب الدبور و هى

(١) « الأشتول » فى الغالب كلمة مشتقة من الأصل اليونانى (στυ'λος=Stylos) و المقصود بها المقعد أو العماد أو مكان الارتكاز ـ و الألفاظ اليونانية التى عُرّبت من هذا النوع معروفة ، مثال ذلك (στο'λος=Stolos) و يعنى بها استول أو اسطول ، و كذلك كلمة (στο'μα=Stoma) أى الفم ، و تظهر هذه الكلمة فى بعض أسماء المدن المصرية مثل « اشتوم » ـ راجع فى هذا الموضوع :

E't. Combe, *Bull. Soc. Arch. d' Alexandrie*, no. 38, pp. 93-94.

(٢) فى الأصل : الهوى .

(٣) فى الأصل : ترى .

(٤) فى هامش الأصل : جهات الرياح الأربع .

الغربية، و الجهة الجنوبية مهب الجنوب و هى القبلية، و القبلة عن يسار مستقبل هذه الريح، و الجهة الشمالية يهب منها ريح الشمال و هى الجوفية. و بين كل مهبين رياح تسميها العرب النكباء من حيث نكبت عنها الأمهات الأصول المركبة على الجهات الأربع، و أهل البحر يسمونها بأسماء مرتجلة عندهم مثل الشلوق[١] و الجرج[٢] و اللبج[٣] و البرانى[٤] و الحليق[٥] و القور[٦] و بين الأردية[٧] و غير ذلك. و اعلم أن للريح الشرقية مهبين كبيرا و صغيرا، و للريح الغربية كذلك. فمهب الشرقية الكبير يصب على مهب الغربية الصغير، و مهب الغربية [١٢٥ : ب]

(١) «الشلوق» رياح جنوبية شرقية و هى معروفة فى اللغات الأوربية باسم Sirocco, Sirocanus, Siroccus و قلب الشين سينا واللام راء ظاهرة لغوية طبيعية فى نقل المصطلحات من العربية. انظر أبا الفداء ترجمة Renaud: *Geographie* ص ١٩٧ من المقدمة.

(٢) «الجرج» أو «الشرش» رياح شمالية غربية و يعادلها فى اللغات الأوربية Circius راجع أبا الفداء فى مقدمة الترجمة الفرنسية فى نفس الموضع بالحاشية السابقة.

(٣) «اللبج» رياح جنوبية غربية و تعرف فى اللغات الأوربية باسم libas, libeccio, lebeg, lebesche وهى مشتقة من اليونانية (λ ε ψ) و جائز أن تكون بفتح اللام المشددة أو كسرها. انظر نفس المرجع فى الحاشيتين السابقتين.

(٤) «البرانى» رياح شمالية غربية مثل «الجرج» - نفس المرجع و نفس المكان.

(٥ - ٦ - ٧) رياح لم يرد لها ذكر أو تفصيل فى المراجع المعروفة.

الكبير يصب على مهب الشرقية الصغير[1].

فاذا فتح الرائس قلاعه فليأخذ من رياح هذه الأمهات ما يوافقه، و ليقابل ذلك بما يشاكله من تدبير قلاعه فى تخلية البحار و ترويح القرون[2] و ضد ذلك، فاذا توسط البحر عدل قلاعه فى جوف سفينته، و يقول الرائس عند حل قلاعه و من معه من الركاب: «بسم الله ٥
مجريها و مرسٰها ان ربى لغفور رحيم»[3] «إن صلاتى و نسكى و محياى

(١) انظر فى موضوع الرياح مايلى:

نهاية الأرب فى لغة العرب ج ١ ص ٩٨. «ذكر أسماء الرياح اللغوية».

كاظم جديلى: أسماء الأرياح عند أهل السفن العراقية فى لغة العرب ج ٤ ص ١٢٦ - ١٣٢.

J.J. Hess, *Die Namen der Himmelsgegenden und Winde bie den Beduinen des innern Arabiens*, in 'Islamica,' II (1927), pp. 585–589.

H.P.J. Renaud, *Les noms des Vents Chez les indigenes du Maroc Occidental*, in 'Me'moires, Socie'te's des Sciences Naturelles du Maroc,' no. 41 (Sept. 15, 1935).

R.R. Wright, Op. cit. (al-Biruni) p. 49 s 130 (جهات الرياح الأربع)

I. Sarton, *Introduction to the History of Science*, Vol. III—*Science and Learning in the Fourteenth Century*. (Baltimore 1947–48), Pt. I, pp. 131 ff., 694 ff. and Pt. II, pp. 1117 ff., 1523 ff.

راجع أيضا المسعودى: كتاب التنبيه و الأشراف (طبعة دى خويه De Goeje سنة ١٨٩٤) و ترجمته إلى الفرنسية بمعرفة المستشرق كارادى قو.

Carra de Vaux, *Le livre de l'avertissement* (1897), pp. iv ff.

و كذلك مروج الذهب و معادن الجوهر (طبعة دار الأندلس ببيروت سنة ١٩٦٥) ج ١ ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) فى الأصل: الفرون.

(٣) قرآن كريم ١١: ٤١.

و مماتى لله رب العلمين ، لا شريك له و بذلك امرت و انا اول المسلمين »[1]، فانها أمان من الغرق .

و إذا أردت أيها الرائس استخراج الجهات الأربع فاجعل[2] القطب الشمالى وسط ظهرك و أنت معتدل فى قيامك ، فما واجهك فهى نقطة الجنوب ، و ما كان عن يمينك فهى نقطة وسط المغرب ، و ما كان عن يسارك فهى نقطة وسط المشرق ، و ما كان موازيا بظهرك فهى نقطة الشمال ، و نقطة وسط المشرق و المغرب هما المرادتان بقوله تعالى : « رب المشرقين و رب المغربين »[3] فانه يريد أقصى المشرق إلى جهة الشمال ، و هو مطلع نقطة رأس السرطان ، و أقصى المشرق أيضا إلى جهة الجنوب و هو مطلع نقطة رأس الجدى . و يريد بقوله تعالى : « و رب المغربين » أقصى المغرب أيضا إلى جهة الشمال و هو مغرب نقطة رأس السرطان ، و أقصى المغرب أيضا إلى جهة الجنوب ، و هو مغرب رأس الجدى . و أراد بقوله تعالى : « و رب المشارق[4] » مشارق الشمس من نقطة رأس السرطان إلى نقطة رأس الجدى . و كذلك مغارب هذه المطالع على مثالها « الا له الخلق و الامر تبارك الله رب العلمين »[5].

و سأذكر ما قيل فى السفينة إن شاء الله تعالى[6] . اعلم أن السفينة بيت بغير أساس فى قبر مهيأ ، سجن ضيق ، ترجف من الموت ، و هى

(١) قرآن كريم ٦ : ١٦٢ - ١٦٣ (٢) فى الأصل : فاتجعل - كذا (٣) قرآن كريم ٥٥ : ١٧ (٤) قرآن كريم ٣٧ : ٥ (٥) قرآن كريم ٧ : ٥٤ (٦) فى هامش الأصل : ما قيل فى السفينة .

فرس اللجّة تجرى على الأمواج حاملة الأثقال، راكبها خائف من الغرق، رائسها غريب عن وطنه و أهله، معاند للرياح، هلاكه كل حين حاصل، و مع ذلك كله هو راغب فى ركوب البحر. و سمى الموج[1] موجا لأنه يموج أي يضطرب، و ماج الناس يموجون أى يضطربون. قال بعضهم لغزا[2] فى مركب فى البحر الملح:

و بهماء خضراء البساط قطعتها بجارية حبلى و ليس لها بعل
و تضمر أولادا كبارا بجوفها و قد وضعت حملا و ليس لها حمل

و قال لقمان لابنه: يا بنى! إن الدنيا بحر عميق فيها خلق كثير، فلتكن سفينتك فيها الإيمان، و ليكن حشوها التقوى، و شراعها التوكل، فعسى أن تنجو و ما [١٢٦: الف] أظنك بناج.

و اعلم أنه إذا خيف على المركب الغرق بسبب شحنتها، و رُجى لها السلامة بطرح ما فيها أو بطرح بعضه فى البحر ما يُظن بطرحه السلامة تقديما لحفظ النفوس على حفظ الأموال، و يُوزّع المطروح على ما يُقصد به التجارة خفيفا كان أو ثقيلا، فان الغالب فى الدنانير و الدراهم القلة لا كبير منفعة فى طرحها. و مع ذلك فانه يوزّع عليها كما يُوزّع على الثقيل كالرصاص و النحاس، و كذلك أيضا يوزّع ما لا يحل طرحه كالعبيد و الإماء المقصود بهم التجارة.

(١) فى هامش الأصل: الموج.

(٢) فى هامش الأصل: لغز فى المركب.

ذكر القاضي سحنون[١] المالكي أن جرم المركب يدخل في قيمة ما طرح منه، و إذا [كان - [٢]] حكم المركب عنده فأحرى أن يكون ذلك حكم عبيده و إمائه . و قال محمد بن عبد الحكم: أجمع أصحابنا أن المركب لا يدخل في شيء من حكم الطرح . و قد سئل أبو محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني عن مركب مرسى[٣] بميناء بلد المهدية، فأخذه هول فنقم بقاعه قاع البحر، فخيف عليه أن يهلك، فرمى منه التجار بعض ما فيه من البضائع ليخف و لا يصل إلى قاع البحر، فذهب الهول و خلص المركب، فأراد أصحاب البضائع أن يدخلوا المركب في قيمة ما طُرح منه، و أبى من ذلك صاحب المركب، فقال: إذا رمى من شحنته خوفا عليه من نقرة بقاعه، فانه يدخل في القيمة و يحسب عليه من قيمة ما رمى ما ينوبه من ذلك - انتهى .

فلنذكر[٤] الآن ترجمة ابن أبي زيد هنا إن شاء الله تعالى . هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن بن إسحاق بن سعد بن بلال هو مولى نفزاوة، و نفزاوة قبيلة من قبائل إفريقية، فهو مولاهم بالعتاقة، و قيل مولاهم بالتحالف و التعاهد . و مولد أبي محمد بالقيروان، و فيه

(١) سحنون عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي المتوفى سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م صاحب «المدوّنة» .

(٢) [كان] ساقطة من الأصل .

(٣) في الأصل: مرسيا .

(٤) في هامش الأصل: ترجمة ابن أبي زيد .

انتشأ و فيه مات ، و صلى عليه أبو الحسن القابسى . و وُلِد سنة عشر بعد ثلاثمائة ، و مات سنة ست و ثمانين و ثلاثمائة ، فعمره على هذا ست[1] و سبعون سنة ، و هو معروف بالفقه و الصلاح ، و إليه انتهت الرئاسة فى العلم ، و هو الذى لخّص مذهب مالك . و كان يلقب فى زمنه بخليفة مالك ، و يلقب أيضا بمالك الصغير ، حتى قيل : إنه من حلف أن ابن أبى محمد حفظ مذهب مالك كله لم يحنث ، لأنه كان حافظا بمذهبه ، و كان له مكاشفة و كان يقول فى مجلس أقرانه : حدثتنى نفسى كذا و كذا سؤالا[2] ، أيكم السائل عن مسألة كذيا ؟ ذكر لكل واحد سؤاله . و من فضائله أنه أراد أن يتوضأ [١٢٦ : ب] ذات ليلة ، فأخذ الماء من قُلّة فانهرق له ، ثم أخذه ثانية منها فانهرق له ، ثم أخذه ثالثة منها فانهرق له ، فظن أن ذلك من فعل الشيطان ، فقال : أتتمردون علىّ ؟ فسمع هاتفا و هو يقول : إنما فعلنا ذلك كراهية منا أن تتوضأ بماء نجس لأن القُلّة قد بال فيها صبى . و كان له مال كثير ، و كان ينفقه على طلبة العلم و الفقراء و المهاجرين . و كان له مسجد بناه من خالص ماله ، و كان يُقرئ فيه العلم . و كان أبو الحسن القابسى يُقرئ العلم فى مسجد آخر . و كانت تقع بينهما المخالفة فى المسائل . و كان أبو الحسن القابسى فقيرا ، و كبرت عنده بنت فأراد أن يزوجها ، و لم يجد ما يجهزها به من دخولها . فقالت له زوجته : لو أتيت أبا محمد و تسأله أن يسلفك ما تجهز به عليها لفعل ، فأبى من ذلك لأجل ما كان يقع بينهما من

(١) فى الأصل : ستة . (٢) فى الأصل : سؤال .

المخالفة ، فلم تزل تراوده إلى أن أجابها إلى ذلك ، فأتى إلى دار أبى محمد فصاح عليها فخرجت الجارية ، فرجعت إلى سيدها فقالت له : إن الفقيه أبا الحسن القابسى على الباب . فقال لها : إن كنت صادقة فأنت حرة . فخرج إليه و أدخله منزله و فرح به فقال له : ما سبب قدومك علينا ؟ فقال : حاجة لى عندك . فقال له : اذكرها . فقال له : إنى مستحى من ذكرها . فناوله قرطاسا و دواة ، فقال له : اكتب حاجتك . فكتب له أبو الحسن ما كان من شأن بناته . فقال له أبو محمد : عندى لفلانة ابنتك مال سميته لها حين خلقت ، و ناوله صندوقا[1] فيه مال ، فقال له : و لابنتك الأخرى فلانة مال سميته لها فى صندوق آخر ، ثم للثالثة مثل ذلك . فدعى ثلاثة من الحمالين فحملوا الصناديق مع أبى الحسن إلى داره .

و كان لأبى محمد مال كثير حتى قالوا : ملك ثلثى القيروان . و كان يدخل يده من غلاته ألف دينار فى كل يوم ، و لم يجتمع عنده نصاب قط . و قد خصّه الله بأربعة خصال : صحة البدن ، و سعة الأموال ، و الدين المتين ، و العلم الغزير .

و كان أبو الحسن القابسى من العلماء الفضلاء المكّنين فى العلم و الدين . قيل : إن امرأة من المسرفات على نفسها بالقيروان توفيت فى يوم وفاة أبى الحسن القابسى ، فرئيت فى المنام فى أجمل حال و أحسن هيئة ، فقيل لها : بم نلت هذا ؟ فقالت : ما قدمت حسنة ، لكنى متُّ

(١) فى الأصل : صندوق .

فى

فى اليوم الذى مات فيه أبو الحسن القابسى ، فغفر الله لكل [١٣٧ : الف] من مات فى ذلك اليوم إكراما له – انتهى .

نعود إلى ذكر أسماء مراكب[1] بحر اليمن و الهند و ما قيل فيها ، فأسماؤها الجلّاب و الزوم و السنابك ، واحدها جَلبة و زومة و سنبوك ، و من عادة الجلبة فى سيرها إذا قربت من بر عنده جبل يقف بعض النواتية بقُلّة و يسلّم على الجبل و يقول : أيها الجبل ! هذا مركب الناخودا سافر من البلد الفلانى يريد البلد الفلانى ، خاطرك معه . و ربما طبخ شيئا[2] من أرز و يرمى به فى البحر و يقول له : هذه ضيافتك أيها الجبل ! و هذا فعلهم فى كل جبل يرونه . و كذلك فى بحر عيذاب يجمع من التجار ما يؤكل و يُرمى له فى البحر برسم الهدية . و من عادتهم إذا لم يكن عندهم ريح يذبحون دجاجة سوداء أو جديا أسود و يلطخ بدمه أصول الصوارى و يبخّر بالعود القمارى[3] . قال بعض التجار : و لقد رأيت نوتيا و قد أخذ السكين و هو يحارب[4] فى الهواء[5] وحده بها ، فسألت عن ذلك ، فقيل : لى إنه يقاتل الريح لتخلفه عنا . و قال أيضا : أقمنا جمعة ليس معنا ريح و البحر كأنه جامد و نحن فى اللجة ، فأخذوا قلّة مجوّفة

---

(١) فى هامش الأصل : ذكر أسماء مراكب بحر اليمن و الهند و ما قيل فيها .

(٢) فى الأصل : شيء .

(٣) فى هامش الأصل : نكتة .

(٤) فى الأصل : يحارب .

(٥) فى الأصل : الهوى .

البطن و جعلوا فيها من جميع كل بضاعة [١]شيئا يسيرا[١]، و صوّروها على شبه المركب بالصوارى و القلوع، و عملوا فى الصوارى شميعات، و نزلوا النواتية فى سنبوك، و أخذوا القُـلّة و طافوا بها البحر سبع دورات حول المركب، ثم تركوا القلة فى الماء تعوم و الشمع يَتّقِدُ بها، و قالوا: هذه هدية البحر، فلم تزل القلة على وجه الماء حتى يأتى الهواء[٢] يقوى عليها الموج فيأخذها و يمضى بها. ثم من عادتهم أن يكون فى المركب أربع غطاسين ليس لهم شغل إلا إذا زاد الماء فى المركب يندهنون[٣] بالشيرج[٤] و يسدون مناخرهم بالشمع و ينزلون البحر، و المركب مقلع بالقلوع يجرى، و مع كل واحد منهم مخطافان[٥]، و بينهما حبل رقيق، فيطرح فى خشب المركب فوق الماء، و بالثانى يغطس ليمنعوه جرى المركب ليتهنأ الغاطس[٦]، فيرمى الخاطف فى المركب، و ينتقل به تحت الماء قليلا مثل الحوت حول المركب و يتجسس بأذنه، فحيث ما سمع خرير الماء سدّه بالشمع لأنها تكون ثقب مسدودة بالجريد و هى موضع الخياطة فربما يزرق ذلك الجريد المشدود بحبل ليف النارجيل، فأمره خفيف، فيسد فى نهاره العشرين و الثلاثين ثقبا[٧]، و يطلع الغطاس لا يضعف

(١-١) فى الأصل: شيء يسير.
(٢) فى الأصل: الهوى.
(٣) فى الأصل: يندهنوا.
(٤) كذا فى الأصل، و ربما كانت الكلمة باللغة المصرية «بالسيرج» و هو زيت السمسم، و «الشيرج» أصح فى لغة القدامين.
(٥) فى الأصل: مخطافين.
(٦) فى العبارة غموض، و لم يمكن مقارنتها مع بن لسقوط هذا الجزء منها.
(٧) فى الأصل: ثقب.

عليه شيء من ذلك سواء كان الريح أو السكت، و هذا [١٢٧: ب] من أعجب الأشياء.

و سأذكر فيما يرد من هذا الكتاب صفة الغوص على الصدف الذي يتكوّن فيه اللؤلؤ إن شاء الله تعالى.

و مراكب الهند بأجمعها بسبع قلوع مربعة فى كل مركب، و تلك القلوع من حصر النارجيل و الكتان، و هى مخيطة بخيط النارجيل المعروف بالقنبار.

و مراكب النيل معروفة، منها: حراريق ودرامين و مراكب و شخاتير. فالحراريق واحدها حرّاقة تتخذلنزه الملوك والأمراء لقضاء أشغالهم ومهماتهم. و الدرامين واحدها درمونة تتخذ لحمل غلالهم من إقطاعاتهم فى إبان زيادة [النيل-[١]]. و المراكب برسم حمل بضائع التجار و الركّاب من بلاد مصر إليها و من مصر إلى بلادها. و الشخاتير واحدها شختور و هى برسم تعدية الناس من الشطّ إلى الآخر فى إبان زيادة [النيل -] و اختراقه من مصر إلى الجيزة و من الجيزة إليها. و النيل يركب أراضى مصر فى إبان زيادته، فلا يتوصل إلى قراها إلا فى الشخاتير.

قال ابن القاسم[٢] من أصحاب مالك فيمن اكترى سفينة من أحد

(١) لفظة «النيل» ساقطة من الأصل، و يستقيم المعنى بذكرها. انظر أيضا ١٩١: ب.

(٢) و هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم ١٣٢ - ١٩١هـ/ ٧١٩ - ٨٠٦م، وكان أعظم تلاميذ الإمام مالك و أتباعه. و قد قال ابن الاخوة فى كتابه =

بلاد مصر إلى مصر ، حمل فيها قمحا ، فغرقت فى بعض الطريق ، فاستخرج نصف القمح فحمله فى غيرها ، فلربّ السفينة الأولى من كِرَى ما خرج من القمح بقدر ما انتفع به ببلوغه إلى الموضع الذى غرقت فيه . قال سحنون[١] ، و هو كمسألة مالك فى الجُعْل فى البئر يحفر بعضها و يتركها ، ثم يجعل ربها لآخر قيمتها، فليعط الأول بقدر ما انتفع به رب القمح - انتهى .

و أما مراكب الدجلة فمنها الزبزب و هى السفينة الكبيرة ، و منها الشبّارة دون الزبزب ، و منها الرباعية دون الشبارة ، و منها المالشت دون الرباعية ، و منها الركوة و هى التى تعدّى بالناس من الشط إلى الآخر ، و منها القرقور كذلك ، و سفن جسر بغداد التى تمشى عليها الناس و الدواب من الشط إلى الآخر يقال لها الزبزبيات ، و قد صنع[٢] نجارو[٣] البغاددة فى بضع و ثلاثين و سبعمائة بمصر للسلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون بنيل مصر مركبا متقنة العمل ، مختصرة

= «معالم القربة فى أحكام الحسبة» (طبعة روبين ليفى R. Levy) ص ٢٢٢ : يؤخذ على أصحاب السفن و المراكب ألا يحملوها فوق العادة خوف الغرق ، و كذلك يمنعهم من السير وقت هبوب الرياح و اشتدادها ، و إذا حملوا فيها النسوان مع الرجال حجبوا بينهما بحائل .

(١) أنظر الحاشية السابقة عن سحنون ص٢٤٤ رقم١ .

(٢) فى الأصل : صنعت .

(٣) فى الأصل : نجارين - كذا .

الطول، طرف مجاذيفها و رجلها كهيئة مطرحة الخبازين المدوّرة المبيكَرَة[1]، تدور تلك المركب عند الجذف لها فى جانبها الواحد بسرعة دوران إذا اختير دورانها، و إذا اختير سيرها تسير بالجذف سرعة، و تدعى بالشبارة، فلما ركبها [١٢٨ : الف] السلطان اختار الحراقة عليها و تركها.

و بأرض الهند موضع يقال له البدكور يعمّرون[2] به مراكب[3] كبارا ليسافروا بها إلى عدن موسوقة بالفلفل و البضائع الجليلة، و يعتدّون[4] بالقسى العقّار و السلاح لقتال السارق فى البحر. و السارق أجناس مختلفة من الهنود الكفار، تجهزهم ملوكهم لقطع الطريق على التجار، و لهم على ذلك جامكية، و ربما غَلبوا أو غُلبوا[5]، و لكنهم بعد أخذ الأموال لم يأسروا أحدا، بل يرمونهم فى أى ساحل لجأوا[6] إليه، و ملوك السواحل يحكمون[7] لهم بالتمكن و البيع مما غنموه، و من عرف شيئا لا يأخذه إلا بالشراء منهم، و يقولون: هذا عمارة المدائن - انتهى.

نعود إلى ما اتفق بالدجلة إن شاء الله تعالى. و فى بضع و أربعين و سبعمائة جاء مطر عظيم و سيل كبير، فزادت الدجلة منه حتى غرق[8]

(١) كذا فى الأصل، و لعل المقصود أنها بمعنى البكرة.
(٢) فى الأصل: يعمروا.
(٣) فى الأصل: مراكبا.
(٤) فى الأصل: يعتدوا؛ بمعنى يستعدون.
(٥) فى الأصل: و غلبوا.
(٦) فى الأصل: لجؤا.
(٧) فى الأصل: يحكموا.
(٨) فى الأصل: غرقت.

جانب كبير من بغداد حتى وصل الماء إلى دار الخليفة، فخرجت الجوارى حاسرات حتى صرن إلى الجانب الغربى، و هرب الخليفة من مجلسه، فلم يجد طريقا يسلكه، فحمله بعض الخدام إلى الناحية الأخرى. و كان ذلك يوما عظيما، هلك للناس أموال عظيمة، و مات خلق كثير، و جاء على وجه السيل من الأخشاب و الوحوش و الحيات شيء كثير، و سقطت[1] دور كثيرة من الجانبين، و دخل الماء من شبابيك المارستان، و أتلف السيل فى الموصل [2]شيئا كثيرا[2]، و هدم سور سنجار و أخذ بابه من موضعه و سار به نحو أربعة فراسخ. و زادت الدجلة فى بغداد سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة حتى علا فى السور نحو عشرين ذراعا، و كان نائب السلطان بها إذ ذاك أمير على بن شروين، فضبط البلد و أتقنها بالجسور، و خافت الناس على أنفسها و صاروا مكشوفى[3] الرؤوس، الصغير منهم و الكبير على رؤوسهم الختمات، و اليهود على رؤوسهم التوراة، و النصارى على رؤوسهم الإنجيل، يبتهلون الجميع بالدعاء إلى ربهم فى كشف ذلك عنهم. و فى ليلة الجمعة من تلك السنة انفتح باب فى السماء أنارت به الدنيا، فكبّرت الناس و استعجبوا له، و رأى النبى صلى الله عليه و سلم غير واحد فى المنام و هو يشفع فى أهل بغداد، فلما أصبح الصباح نقص الماء عند طلوع الشمس، و ذلك

(١) فى الأصل: سقط.

(٢-٢) فى الأصل: شيء كثير.

(٣) فى الأصل: مكشوفين.

أن الماء طفّ في البر، و في ذلك اليوم رُدّ الماء من البر إلى الدجلة، فعلموا أن الماء قد نقص، وكان قد بقي ستة أيام لكثرة المياه التي ردت من البر. ثم بعد ذلك كانت الأرزاق [١٢٨ : ب] كثيرة، و الخيرات غزيرة، حتى أن السمك بيع[١] كل قنطار بدرهم، و البطيخ الأصفر كل ستين رطلا[٢] بدرهم، و السمسم أربعة أرطال بدرهم. و في أوائل جمادى الأولى سنة ست و أربعين و سبعمائة نقصت دجلة نقصانا بينا حتى ظهرت فيها جزائر. و فيه تمت عمارة رباط الحريم ببغداد على يد شيخ الشيوخ صدر الدين، وكان حضره أحد أولاد أبي[٣] الفرج بن الجوزي، فلما عاد إلى منزله نفذ إليه أبياتا من نظمه و التمس إيصالها إلى شيخ الشيوخ و هي قوله:

عمرت مولانا رباط الحريم فخاله الناس كجنات[٤] النعيم
أو حرم القدس الشريف الذرى أو حرم البيت و مأوى الحطيم
سنّت به التقوى مستّاته وكرّمت فيه المقام الكريم
كأنّه و الربط عند الحجا واسطة تزهو بعقد عظيم
كذلك الأقطاب في أرض أجـناد و صدر الدين فيهم زعيم
من ظل فيه ثاويا ليتني منهم فقد أمّ الصراط المستقيم
و حاز فضل السبق في رشده و قد أتى الله بقلب سليم

و رباط الحريم مجاور[٥] لدار الخليفة، فلما زادت الدجلة أكل الماء جدار الدار

---

(١) في الأصل: أبيع.

(٢) في الأصل: رطل - كذا.

(٣) في الأصل: ابو.

(٤) في الأصل: جنات، و لا يستقيم به الوزن.

(٥) في الأصل: مجاورا.

و هدم رباط الحريم ؛ و قد مدح بعضهم بغداد فقال :

يا أرض بغداد قد خاب امرؤ أبدا   من الأنام إلى البلدان ساواكِ
لو كان ربعك قفرا كنتِ أنزه من   كل البلاد فلا شُنّى[1] محياكِ - انتهى .

نعود إلى قول ابن أبي حجلة :

و صيّر منها أزرق البحر أسودا   بنو[2] الأصفر الباغون بالبيض والسمر

جمع ابن أبي حجلة في هذا البيت ألوانا مختلفة من الزرقة و السواد و الصفرة و البياض و السمرة ، فزرقة البحر الملح بسبب إهلاك الله به قوم نوح عليه السلام . قال الله تعالى : « و غيض الماء و قضى الامر[3] » فالذى أسرع به و غاض[4] فى البحر كان ماؤه إذا احتفر عذبا ، و ما لم يسرع إلى القبول أعقبه الله بماء ملح . و قيل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نظر إلى البحر الملح و قال : متى تعود نارا ؟ و كان بعض العلماء لا يرى الوضوء من البحر الملح و يقول : لا يتقرب إلى الله بعذابه . و الصحيح جواز الغسل و الوضوء منه لقول النبي صلى الله عليه و سلم [١٢٩ : الف] لما سأله السائل : إنا نركب البحر و نحمل معنا القليل من الماء ، فان توضأنا به عطشنا ، فنتوضأ من ماء البحر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : هو الطهور ماؤه الحل ميتته . فعدل رسول الله

(١) كذا فى الأصل ، و الكلمة مشكولة بالضمة فوق الشين و الشدة على النون ، و لعله يقصد « شين » .
(٢) فى الأصل : بنوا .
(٣) قرآن كريم : ١١ : ٤٤ .
(٤) كذا فى الأصل ، و من الممكن أن تكون « غاص » .

صلى الله عليه و سلم عن أن يقول: توضؤا - إلى قوله: هو الطهور ماؤه، لأنه لو أجاب بالأول لتوهم السامع أن ماء البحر إنما يستعمل عند الضرورة كما ذكر السائل، فلما قال هو الطهور ماؤه، عُلِم أن ذلك وصف لماء البحر فى حالى الاختيار و الضرورة معا، فأتى بالجواب عن السؤال و زيادة. ثم زاد فائدة أخرى فى قوله: الحل ميتته، يعنى السمك الطافى على وجه الماء. و قول ابن أبى حجلة: أسودا، فالأسود الزفت المطلى به الغربان الدافع عنها الماء، أى تغيرت زرقة البحر بسواد تلك المراكب الحربية المسماة بالغربان التى ملأت مكان وقوفها فيه، فصار البحر بها أسود[1] بعد أن كان أزرق[2]، و الأصفر يعنى بهم الروم، و قد تقدم ما قيل فى سبب تسميتهم ببنى الأصفر[3] فأغنى عن إعادته، و البيض: السيوف، و السمر: الرماح. قال الملك الأمجد شاهنشاه صاحب حماة[4] فى ديوانه المشهور يصف الشجعان و السيوف و الرماح:

ليوث وغى يوم الكفاح تراهم أقل عديدا فى اللقاء و أكثرا
معوّدة أن تترك البيض فى الوغى محطّمة و السمهرىّ مكسّرا

(١) فى الأصل: اسودا - كذا.
(٢) فى الأصل: ازرقا - كذا.
(٣) انظر أيضا ٤: ب، ٤١: الف فيما تقدم، و كان هذا الاصطلاح معروفا لبعض الرحالة المحدثين مثل بورخهاردت السويسرى حيث يصف فى سنة ١٨١٠م امبراطور روسيا بالملك الأصفر - انظر فى هذا:
Burchardt, Travels in Syria, P-40
(٤) و هو أبو الفداء إسماعيل صاحب مختصر تاريخ البشر و تقويم البلدان.

- انتهى . نعود إلى مرثية ابن أبى حجلة و قوله فيها :

أقاموا على التثليث فيهـا ثـلاثـة   كمعبودهم فى النهب و القتل و الأسر

يعنى أقامت الفرنج الإسكندرية يقتلون و ينهبون و يأسرون الجمعة و السبت و الأحد كتثليثهم فى عبادتهم بقولهم فى كفرهم : باسم الأب و الابن و روح القدس ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ! فينبغى جهاد الفرنج الكافرين الذين يفعلون كل خبيث، ولا ينتهون عن التثليث . قال الله تعالى: «ولا تقولوا ثلثة انتهوا خيرا لكم انما الله الـه واحدا[1]» . فمن زعم أن المسيح الله فقد كفر ، لأن المسيح عبد من عباد الله ، أراد أن يعلم أنه عبد الله ، و ليس بولد كما زعمت النصارى . قال الله تعالى حكاية عنه : «انى عبد الله اتانى الكتب[2]» . و لما قالت النصارى: المسيح ابن الله، فأخجلهم الله حين قال «انى عبد الله» يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ، و يأبى الله من عارضه فى حكمه ، فقد غلب [١٢٩ : ب] بحكومته[3] إن الحكم إلا لله . و قال تعالى : «ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب[4]» . فمن كان عن أم و أب مثالى أشبه جده لأبيه ، إذ لا أب له مثل عيسى ، فصفته صفة جده آدم عليه السلام فى صدوره عن الأمر ، فالذى وجد عند آدم وجد عند عيسى ، خلقه من تراب و الضمير[5]

---

(١) قرآن كريم ٤ : ١٧١ .

(٢) قرآن كريم ١٩ : ٣٠ .

(٣) فى الأصل : بحكومة .

(٤) قرآن كريم ٣ : ٥٩ .

(٥) فى الأصل : الضمير ، و الواو ساقطة .

يعود إلى آدم ، فعيسى أخ لحواء ، و هذا ابن بنتها ، و من كان عن أب دون أم قصر عن درجة أبيـه كحواء[1] خلقت من القصير فقصرت[2] و عوجها استقامتها . و فى أول سفر من التوراة : إن الله تعالى خلق آدم من أدمة الأرض و نفخ فى وجهه نسمة الحياة و قال إن آدم لا يصلح أن يكون وحده ، و لكن اصنعوا له عوينا مثله ، فألقى الله عليه السبات ، فأخذ إحدى أضلاعه و لأمها و سمى الضلع الذى أخذ امرأة لأنها من المرء أخذت فقرنها إلى آدم ، فقال آدم : عظم من عظامى و لحم من لحمى ، و من أجل ذلك يترك الرجل أباه و أمه و يتبع امرأته و يكونان كلاهما جسما واحدا[3] ، و سمى الله امرأة آدم حواء[1] لأنها أم كل حى ، و حواء يُمد و يُقصر ، فعيسى عليه السلام عبد الله و رسوله لا كما زعمت النصارى – جلّ ربنا عن الصاحبة و الولد ! قال بعضهم :

كريم إذا جاء البشير ممثلا على صورة معهودة فى التبعّل
فألقى إليها الروح روحا مقدسا يسمى بعيسى خير عبد و مرسل

فسبحان من أبرز الصورة الإنسانيـة لا من ذكر و لا أنثى و هو آدم عليه السلام ، و خلق عيسى عليه السلام من أنثى لا من ذكر ، و خلق سائر الخلق من ذكر و أنثى ، ففى ذلك إضافة الموجودات لله تعالى و عجز سائر الخلق عن كيفية إرادته . قال الله تعالى : «الله خالق كل شىء[4] »

(١) فى الأصل : حوى – باستمرار .
(٢) فى الأصل : اقصرت .
(٣) فى الأصل : واحدة – كذا .
(٤) قرآن كريم ٣٩ : ٦٢ .

برهان ذلك أن لا خالق إلا الله وحده لا شريك له – فسبحان البارى جلّت حكمته و عظمت قدرته ! خلق الإنسان من أعضاء متعادلة ، و أشباح متوازنة ، و قوىً ظاهرة و باطنة ، و خص كل واحد منها بما ليس للآخر ، و جعل بعضها محتاجا إلى بعض ، ليتم بكلها كل أفعال الإنسان الذى هو بالحقيقة النفس الناطقة ، و إنما البدن آلات متفرقة كالخدم ، و أقرب هذه الآلات القوى الحيوانية و الطبيعة النفسانية ، ثم الأرواح الحاملة لهذه القوى ، ثم الأخلاط التى تنشأ[1] عنها هذه الأرواح ، و لما كانت هذه الأرواح بخارية لطيفة ، و لا تنحفظ إلا [١٣٠ : الف] بحاوٍ يحوطها ، فخلق الخالق لها بيتا حريزا وثيقا و هو القلب ، و تنبعث عنه العروق الضاربة إلى سائر الأعضاء ليفيدها الحياة ، و تمدها بالحرارة الغريزية و تكون مراكب للقوى . و هذه الأرواح للطافتها يسرع تحللها ، فلا يبقى إلا بمدد تخلفها ، يكون شبيها بما يتحلل منها ، و ذلك بخار الأخلاط الممازج للهواء[2] المستنشق ، فخلق تعالى الكبد و جعلها تطبخ الدم و تؤهل لطيفه إلى القلب ، و خلق الرئة و جعلها تجذب الهواء[2] و تعدله و تخرج فضلاته ، و لما لم يكن ما تطبخه الكبد من الدم حاضرا لديها بل إنما يستخلصه من الأغذية و الأشربة ، فخلق اليد لأخذه و الفم لتناوله و الأسنان لقطعه و الأضراس لطحنه و المرىء لنفوذه[3] و المعدة لهضمه و المجارى إلى الكبد لمره . و لما كان هذا المهضوم لا يستحيل

(١) فى الأصل : ينشأ .

(٢) فى الأصل باستمرار : الهوى .

(٣) فى الأصل : لنفوده – بالدال المهملة .

بجملته

بجملته إلى الدم، بل ينفصل منه فضول قبل طبخ الكبد و بعده، فخلق الأمعاء لدفع فضلة الكثيف، و الكلى و المثانة لدفع ما بينه، و الطحال لفضلة العكر، و المرارة لفضلة المحترق. و لما لم تكن الأغذية و الأشربة حاضرة لذى[1] اليدين[2] خلق الرجلين للسعى فى طلبه، و لما احتيج فى هذه الأفعال إلى الحركات خلق الدماغ و النخاع، و أثبت بينهما الأعضاء المحركة ضروب الحركات بواسطة الرباط و الوتر و العضل، و جعل الأعضاء حاملة لروح حساس ليكسب هذه الأعضاء الاحتساس بما يرد عليها. و لما كانت الأغذية و الأشربة مشوبة بما لا يصلح للاغتذاء خلق لهذه الجملة رئيسا يميز و يبصر و يسمع و يشم و يذوق و يلمس، و جعل مسكنه الدماغ و العين طليعته يدرك بها الألوان و الأشكال، و يتوسطها الأجسام و الأذن للأصوات و الأنف للأرابيح و الفم و الأسنان للطعوم، و لما كثرت هذه الأعضاء احتاجت إلى ما يحفظها على التجاوز، فبنى لها هيكلا عاما يجمعها، و جعل العظام أساسا و اللحم تحصينا و تحسينا، و أجرى بينهما الأوردة - أعنى العروق الساكنة - ناشئة من الكبد، حاملة الدم الغاذى لهذه الجملة، و أودع ذلك جسما لطيفا حاويا لها كالمعتدل بينهما و هو الجلد، و أجرى معه ما خفى من أطراف العروق و الأعصاب ليغذوه و تكسبه الحياة و الحس، و صار القلب يمد الكبد بالحرارة الغريزية و القوى الطبيعية و هى التى تختلف بدل ما تخلل و تولد الميل كما يمد [١٣٠: ب] الكبد القلب بلطيف الدم، و القلب أيضا يمد الدماغ بالحرارة الغريزية،

(١) كذا فى الأصل و هو جائز، و ربما كان الأصح: الذى.

(٢) زيد فى الأصل: «و» و الصواب بغيرها.

و القوى السياسية - أعنى التصور و التفكر و التذكر - و يمد الدماغ القلب بالقوة المحركة للصدر و الرئة قبضا و بسطا لتعديل النسيم بالروح و إخراج فضلاته .

و لما كان هذا الهيكل لا يستمر وجوده لضرورة الموت أعد الخالق تعالى آلة تجذب قسطا من الغذاء مناسبا للتكوين و ينوعه إلى ذكر و أنثى و هى آلة التناسل ، و ركب الشهوة المنازعة [1] إلى هذا التكوين ، فكان ذلك سببا لتعاقب الأشخاص المستحفظة للنوع حيث ما قدّره الله تعالى ، إنه على ما يشاء قدير ، فتبارك الله أحسن الخالقين و أفضل ما رزق الله تعالى عباده و مَنّ عليهم به العقل الذى هو القوة لجميع الأشياء ، و لا يقدر واحد فى الدنيا على إصلاح معيشة و لا اجترار فضل و لا دفع ضر إلا به ، و غريزة العقل مكنونة فى الإنسان ، كامنة ككمون النار فى الحجر ، لا ترى حتى يقدحها قادح من غيرها ، فاذا قدحها ظهرت بضوئها و حريقها ، و كذلك العقل كامن فى الإنسان ، لا يظهر حتى يظهره الأدب و تقويه التجارب ، فمن رزق العقل سعد جده ، و أدرك فى الدنيا أمله ، و فى الآخرة أفضل النصيب و أجزل المنازل . يقول الله تعالى فى بعض كتبه المنزلة : كنت لا أعرف ، فأحببت أن أعرف [2] ، فخلقت خلقا ، أودعتهم عقلا ، فتعرفت لهم ، فبي عرفونى - انتهى .

(١) فى الأصل : المنازعة - و جائز أن تكون «الملازمة» .
(٢) «أعرف» مكررة فى الأصل .

نعود إلى ذكر مولد عيسى[١] عليه السلام و فى أى زمان ولد . قال أبو عبيد القرطبي فى كتابه المسالك و الممالك : ولد عيسى عليه السلام في أيام ملوك الطوائف التى بين الفرس الأُوَل و الفرس الثانية[٢] بمُضى ثلاثمائــة سنة من وقت غلبة الإسكندر على بابل . و يقال إنه لم يبق فى الأرض صنم يُعبد إلا سقط لوجهه ، ففزعت الشياطين و جاءوا إبليس فأخبروه ، فقال : إن لهذا الأمر شأنا . و ذهب يطوف الأرض حتى مرّ بالمكان الذى وُلد فيه عيسى ببيت لحم ، فرأى الملائكة محدقين به ، فمنعته الملائكة ، فرجع إلى أصحابه فأخبرهم . و فرّت بعيسى أمه إلى أرض مصر خوفا[٣] عليه من جبابرة الشام ، فذلك قوله تعالى : و اويتهما[٤] الى ربوة ذات قرار و معين ﴿[٥] . قيل إن الربوة هى البهنسا ، و قيل نزلت مريم بابنها مصر ، و كانت تغزل الكتان بالأجرة[٦] للناس ، و كان معها من ذوى[٦] محارمها يوسف النجار ، فكان يحطب[٧] الحطب المباح و يبيعه [١٣١ : الف] و يقتاتون[٨] بثمنه . ثم إن مريم ردّت عيسى إلى الشام

---

(١) فى هامش الأصل : ذكر مولد عيسى عليه السلام .

(٢) أى الدولة الساسانية ـ انظر ٢٣ : ب .

(٣) هنا يستأنف ناسخ « بن » الكلام بعبارة : خوفا عليه من جبابرة الشام .

(٤) وقع فى بن : آويناها ـ كذا خطأ .

(٥) قرآن كريم ٢٣ : ٤٩ .

(٦ـ٦) العبارة ساقطة من بن .

(٧) فى بن : يحتطب .

(٨) فى الأصل و بن : و يقتاتوا .

بعد [1] اثنتى عشرة [1] سنة من عمره ، و جاءه الوحى بعد ثلاثين سنة ، وكانت نبوته ثلاث سنين . و قال القضاعى فى تاريخه : ولد عيسى عليه السلام بعد قيام الإسكندر . و قيل : إنـــه ولد يوم الأربعاء الخامس و العشرين من كانون الأول . و يقال إن مريم حملت به [2] تسع ساعات و وضعته من يومها . و قال غيره : حملت به تسعة أشهر . و لما تمّت له ثمانية أيام خُتن على سُنّة موسى عليه السلام ، و سموه أيسوع ، و تكلم عيسى فى المهد ثلاث مرات ، ثم لم يتكلم حتى بلغ حـــد الـــكلام . و يقال : إن اليهود طلبت المسيح ، فدلهم [3] عليه أحد الحواريين و أخذ منهم ثلاثين درهما ، فألقى الله تعالى شبهه على الذى دلّ عليه ، فأخذوه فمثّلوا به [4] و قتلوه و صلبوه [4] ، و صلبوا عن يمينه و شماله لصّين ، و قيل : صُلب حيا حتى مات . و يقال : إن عيسى رُفع ليلة القدر من جبل بيت المقدس ، فلما كان بعد أيام ظهر لأمه و قال : لم يصبنى إلا خيراء و أمرها أن تأتيه بالحواريين فوصّاهم و بثّهم فى الأرض . قال وهب بن منبه : توفى الله عز و جل عيسى ثلاث ساعـات [4] من النهار [4] حتى [5] رفعه إليه . و يقال : إن مريم عاشت بعد رفع المسيح ست سنين .

(١ - ١) فى الأصل و بن : اثنى عشر - كذا .
(٢) فى هامش الأصل : مولد عيسى و حمل مريم به .
(٣) فى بن : فدل .
(٤-٤) العبارة ساقطة من بن .
(٥) فى بن : ثم .

و روى

و رُوى عن النبى صلى الله عليه و سلم قال : ليهبطنَ الله عيسى بن مريم حكما عدلا و إماما مقسطا ، يكسر الصليب ، و يقتل الخنزير ، و يضع الجزية ، و يفيض المال حتى لا يجد من يأخذه ، و ليسلكن[1] الروحا حاجا أو معتمرا .

و لما بلغ ملك الروم ما فعل بالمسيح بزعمه وجّه فأنزل المصلوب و أخذ خشبته فأكرمها ، و قتل من اليهود قُتلاء كثيرة ، و أجلاهم عن فلسطين ، و الجلاء هو النفى و الخروج عن الوطن . و قد تقدم فى هذا الكتاب[2] أن هلانى أم الملك قسطنطين البانى[3] للقسطنطينية هى التى استخرجت الخشبة و حلتها بالذهب و الفضة ، و استخرجت الصليب[4] و حملته معها إلى القسطنطينية ، و الله أعلم بمن استخرجها منهما — و بعد عشرين سنة من الوقت الذى رُفع فيه المسيح سُمى المؤمنون به "نصارى" و انتشر ذلك ، و كان أصل هذه التسمية بأنطاكية[5] . و مرّ عيسى عليه السلام ببحيرة طبرية و عليها ناس ، فدعاهم إلى دين الله ، فاتبعه ثلاثة من الصيادين و اثنا[6] عشر من القصارين فهم الحواريون . و سيأتى فيما يرد من هـــذا الكتاب أسماؤهم و جهادهم لعُباد الأصنام إن [١٣١ : ب] شاء الله تعالى . ثم إن النصارى بعد ذلك بمدة طويلة غرّهم بولص اليهودى المتنصّر و أضلهم بتبديلهم دين عيسى حتى ادعوا

---

(١) فى بن : اينزان .

(٢) انظر ٢٥ : الف .

(٣) فى بن : الثانى — كذا .

(٤) فى الأصل : المصلوب .

(٥) انظر أعمال الرسل بالعهد الجديد ١١ : ٢٦ .

(٦) من بن ، و فى الأصل : اثنى — كذا .

فيه الإلهية [1] إلى الآن . و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب [2] ذكر صفة إضلاله لهم إن شاء الله تعالى [3] .

قال محمد بن إسحاق : قدم وفد نجران ستون راكبا فيهم أربعة عشر من أشرافهم و ثلاثة منهم كانوا أكابر القوم ، أحدهم أميرهم و اسمه عبد المسيح ، و الثانى مشيرهم و اسمه الأيهم ، و الثالث حبرهم و صاحب مدارسهم [4] يقال له أبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل ، و ملوك الروم كانوا شرّفوه و موّلوه و أكرموه لما بلغهم عنه من علمه و اجتهاده فى دين النصرانية . فلما قدموا من نجران ركب أبو حارثة بغلته ، و كان إلى جانبه كرز ابن علقمة أخوه ، فبينما بغلة أبى حارثة تسير إذ عثرت ، فقال كرز : تعسا للأبعد ! يريد رسول الله صلى الله عليه و سلم . فقال أبو حارثة : بل تعست أمك ! قال : و لِمَ يا أخى؟ فقال : إنه و الله النبى الذى كنا ننتظره ! فقال له أخوه كرز : فما منعك عنه و أنت تعلم هذا ؟ قال : لأن ملوك الروم أعطونا أموالا كثيرة و أكرمونا [5] ، فلو آمنا بمحمد لأخذوا منا هذه الأشياء . فوقع ذلك فى قلب أخيه كرز ، و كان يخفيه إلى أن أسلم ، فكان يحدث بذلك . ثم تكلم أولئك الثلاثة الأمير و السيد و الحبر مع رسول الله صلى الله عليه و سلم

(١) زيد فى بن : و تمادوا على ضلالتهم .

(٢) راجع ٩٢ : الف .

(٣) انظر أيضا ٩ : الف ، ٢٥ : ب ، ٦١ : ب ، ٩٤ : الف - ب .

(٤) فى بن : مداربهم .

(٥) ساقطة من بن .

على اختلاف من أديانهم ، فتارة يقولون : عيسى هو الله ، و تارة يقولون : هو ابن الله ، و تارة يقولون : ثالث ثلاثة ، و يحتجون بقولهم : هو الله ، بأنه كان يحيي الموتى ، و يبرئ الأكمه و الأبرص و الأسقام ، و يخبر بالغيوب ، و يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير . و يحتجون بقولهم : إنه ابن الله بأنه لم يكن له أب يُعلم . و يحتجون على أنه ثالث ثلاثة بقوله تعالى : فعلنا ، و قلنا ، و لو كان واحدا لقال : فعلتُ ، و قلتُ . فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أسلموا ، فقالوا : قد أسلمنا . فقال[1] عليه السلام : كذبتم كيف يصح إسلامكم و أنتم تثبتون لله ولدا و تعبدون الصليب و تأكلون الخنزير ؟ قالوا : بلى ، فقال : ألستم تعلمون أن ربنا قيّم بكل شيء ، يكلؤه و يحفظه و يرزقه ؟ فهل يملك عيسى شيئا من ذلك ؟ قالوا : بلى[2] . قال : ألستم تعلمون أن ربنا[3] صور عيسى في الرحم كيف شاء ؟ فهل تعلمون ذلك ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ، و لا يشرب الشراب ، و لا يُحدث الحدث ، و تعلمون أن عيسى [١٣٢ : الف] حملته أمه كما تحمل المرأة ، و وضعته

---

(١) زيد في بن : عيسى – كذا .

(٢) في بن : لا .

(٣) في الأصل بعد « ربنا » : لا يأكل الطعام . و الجملة مشطوبة . و في بن الجواب كما يلي و فيه زيادة على بر : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء ؟ فهل يعلم عيسى شيئا من ذلك إلا ما علم ؟ قالوا : لا فان ربنا صور عيسى – الخ .

كما تضع المرأة، ثم كان يأكل الطعام و يشرب الشراب و يحدث الحدث؟ قالوا: بلى، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فكيف يكون هو[1] كما زعمتم؟ فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا، ثم قالوا: يا محمد! ألست تزعم أنه كلمة الله و روح منه؟ فقال: بلى. قالوا: حسبنا، فأنزل الله تعالى «فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تاويله و ما يعلم تاويله الا الله و الرسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا و ما يذكر الا اولوا الالباب ۞[2]». ثم إن الله تعالى أمر محمدا عليه السلام بملاعنتهم إن ردوا عليه، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الملاعنة كما قال الله تعالى: «فنجعل لعنت الله على الكذبين ۞[3]»، و قال: أخرج بأهلى[4] و أولادى و نسائى إلى الوادى و تخرجون أنتم بها كذلك فنتلاعن. ثم قال[5]: إن خرجتم أضرم الله عليكم الوادى نارا. فعجزوا عن ذلك مع حرصهم على تكذيبه و تنفير الناس عنه؛ فعلم أنهم عرفوا صدقه، و صرفت دواعيهم و هممهم عن إجابته إلى ما تحدّاهم[6] به. فكان ذلك معجزا. ثم إنهم قالوا: يا أبا القاسم! دعنا حتى ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن نفعل.

(١) فى بن: هذا.
(٢) قرآن كريم ٣: ٧.
(٣) قرآن كريم ٣: ٦١.
(٤) فى بن: يا على – و هو خطأ واضح.
(٥) ساقطة من بن.
(٦) من بن، و فى الأصل: تحراهم – كذا.

فانصرفوا

فانصرفوا ثم قال بعض أولئك الثلاثة لبعض: ما ترون؟ فقال[1]: و الله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا نبي مرسل، و لقد جاءكم بفصل من خبر صاحبكم - يعنون عيسى عليه السلام - و لقد علمتم ما لاعن قط[2] قوم نبيا إلا و فنى كبيرهم و صغيرهم، و إنه الاستئصال منكم إن فعلتم و إن أبيتم إلا دينكم و الإقامة على ما أنتم عليه؛ فوادعوا الرجل و انصرفوا إلى بلادكم. فأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم [3]فقالوا: يا أبا القاسم[3]! قد رأينا ألا نلاعنك و أن نتركك على دينك و نرجع نحن على ديننا. فقال النبي صلى الله عليه و سلم عند ذلك: [3]و الذي نفسي بيده[3]! لو أقاموا على ذلك لأضرم الله عليهم الوادي نارا. ثم إن الله تعالى لما أجاب عن شبهتهم أعاد كلمة التوحيد زجرا للنصارى عن قولهم بالتثليث. فقال: "لا إله إلا هو العزيز الحكيم"[4]. و العزيز إشارة إلى كمال القدرة، و الحكيم إشارة إلى كمال العلم. و قد تقرر [5]لما قدم[5] أن علم المسيح ببعض الغيوب و قدرته على الإحياء و الإماتة في بعض الصور لا يكفي في كونه إلها، فإن الإله لا بد و أن يكون كامل القدرة و هو العزيز و كامل العلم و هو الحكيم. [١٣٢ : ب] قال الحارث بن أسد المحاسبي

(١) في بن: فقالوا.

(٢) ساقطة من بن.

(٣-٣) ساقطة من بن.

(٤) قرآن كريم ٣: ٦.

(٥-٥) في بن [٩٣ : الف]: بما تقدم.

فى باب التواضع من كتابه و التذلل و الخضوع و عدم العجب فى الصلاة : جاء فى الحديث أن الله تعالى أوحى إلى عيسى بن مريم : إذا قمت فى[1] الصلاة بين يدىّ فقم مقام الحقير الذليل الذامّ لنفسه ، فانك أولى بالذم ، و إذا دعوتنى فادعنى و أعضاؤك تنتفض من خشيتى . فكيف يكون الخاضع الخاشع الذليل بين يدى الله تعالى إلهـا كما زعمت النصارى ؟ " قـٰتلهم الله انى[2] يؤفكون " و قال المحاسبى أيضا : و قد رد الله على إبراهيم عليه السلام عمله بعُجب[3] دخله ، جاء الحديث عنه أنه أحيي ليلة ، فلما أصبح أعجب بقيام ليلته فقال : نعم الرب رب إبراهيم[4] ! فلما جاء وقت غدائه لم يجد أحدا يأكل معه ، [5]و كان يحب أن يأكل معه[5] غيره ، فأخرج معه طعامه إلى الطريق ليمر به مار[6] فيأكل معه . فجاء الحديث أنه نزل به[7] ملكان من السماء فأقبلا نحوه ، فدعاهما إبراهيم عليه السلام إلى الغذاء فأجاباه . فقال لهما : تقدّموا بنا إلى هذه الروضة فان فيها عينا و فيها ماء فنتغذى عندها ، فتقدموا فاذا ماء العين قد غار فلم يجدوا

(١) فى بن : الى .

(٢) فى بن : فانى ، و فى الأصل : وأنى ـ راجع القرآن الكريم ٩ : ٣٠ و ٦٣ : ٤ .

(٣) فى بن : على تعجب .

(٤) زيد فى بن : و نعم العبد إبراهيم .

(٥ـ٥) العبارة ساقطة من بن .

(٦) من بن ، و فى الأصل : مارا .

(٧) فى بن : معه .

فيها ماء، فاشتد ذلك على إبراهيم عليه السلام و استحى[1] مما قال إذ رأى غير ما قال. قال فقالا له: يا إبراهيم! ادع[2] ربك و اسأله أن يعيد الماء[3]، فدعا الله فلم ير شيئا، فاشتد ذلك عليه فقال لهما: ادعوا الله، فدعا أحدهما فرجع نصف الماء فى العين، و دعا الآخر فامتلأت العين. فاخبراه أنهما ملكان، و أن إعجابه بقيام ليلته من أجله رُدّ دعاؤه فلم يستجب له - انتهى.

نعود إلى مرثية ابن أبي حجلة:

لئن نهب[4] الإفرنج جانب بحرها فقد نهب العُربان جانبها البرّ

نهب عرب[5] [6]هوّارة و غيرها من قبائل العُرب نهبا كثيرا من أهل الإسكندرية[6] الشاردين من أبواب البر[7] من الإسكندرية أيضا، كانوا يدخلونها فى الليل بعد خروج الفرنج منها بسبب مبيتهم فى مراكبهم خوفا من طارق يطرقهم من المسلمين فى الليل إذا كانوا بالبلد بسبب أبواب البر المفتوحة بحريق المسلمين لها لتجد النجدة الآتية من مصر

(١) فى بن: و استحيا.

(٢) فى الأصل و بن: ادعو - كذا.

(٣) زيد فى بن: فى العين.

(٤) فى بن: نهبت.

(٥) فى بن: عربان.

(٦-٦) فى بن [٩٣: الف]: هوارة و فزارة و غيرهما من قبائل العرب النازلين بظاهر الإسكندرية من أهلها.

(٧) زيد فى بن: و من أبواب (الإسكندرية).

مواضع[١] تدخل منها البلد، فكانت العرب تنهب، و المسارتة تنهب ما تتركه الفرنج، فان البلد اتسعت على الفرنج، فصار غالب الدور لم تصل إليها[٢] الفرنج[٣]، و بعض الدور تأخذ الفرنج منها ما هو جليل القدر، و تركوا الباقى لتخفّ المراكب الموقورة بالنهب، فتدخل العرب فى الليل [١٣٣ : الف] الدور و تأخذ ما فضل عن الإفرنج، فلو سلمت البلد من العرب و المسارتة[٤] كان قد بقى لغالب أهلها متاعهم و أثاثهم، فاستغنى من العرب من كان فقيرا، و افتقر من أهل البلد من كان غنيا، كما قال ابن أبى حجلة:

فكم من فقير عاش فيها من الغنى ‏ ‏ ‏ و كم من غنى مات فيها من الفقر

ثم قال أيضا:

و كم قتلوا فيها كبيرا و نصّروا ‏ ‏ ‏ صغيرا من الأسرى و لا سيما البكر

أخبرت الأسارى الذين رجعوا من أرض النصرانية إلى بلدهم[٥] الإسكندرية أن الإفرنج فتنوا المسلمين فى دينهم بالضرب الأليم و العذاب المهين ليتنصّروا، فمنهم من افتتن و تنصّر، و منهم من مات تحت العقوبة

(١) من بن، و فى الأصل: مواضعا.

(٢) فى بن: اليه.

(٣) زيد فى بن: لقلتهم قيل ان عددهم كان ستة عشر الف علج كما سيأتى ذكر عددهم إن شاء الله تعالى فكان.

(٤) فى بن: المشارقة.

(٥) فى بن: اوطانهم.

و لا

و لا[1] كفر ، فطوبى لمن مات منهم على الإسلام ! لقد فاز بدار السلام ، و كان مثله كمثل أم عمار[2] بن ياسر ، لأنها ماتت[3] تحت العقوبة و لم تكفر ، و ذلك أن مشركي بني مخزوم كانوا يخرجون بعمار[4] بن ياسر و بأبيه و أمه و كانوا بيت إسلام ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فيقول : صبرا آل ياسر ! موعدكم الجنة . فأما أم ياسر فقتلوها و هي تأبى إلا الإسلام ، و كذلك بلال بن حمامة كان يوضع على صدره صخرة و هو مستلق على قفاه في الحر يعذبونه[5] بها و يضربونه[6] و هو يقول : أحدٌ أحد . فلما صبر على العذاب [7]نال الثواب ، من الملك الوهاب[7] ، فبصبره على أذى الكفار[8] أقامه الله مؤذنا في الليل و النهار ، بمسجد النبي المختار[9] و كان بلال حبشيا يبدل الشين المعجمة بالسين المهملة في الشهادتين . فقال النبي

(١) في بن : و ما .

(٢) في الأصل و بن : عامر - كذا ، و التصحيح من تهذيب التهذيب ٤٠٨/٧ .

(٣) زيد في الأصل : تلك ، و لم تكن الزيادة في بن فحذفناها .

(٤) في الأصل و بن : بعامر - كذا .

(٥) في بن : يعذبوه - كذا .

(٦) في بن : يضربوه .

(٧-٧) في بن [٩٣ : ب] : بتوحيده للملك الوهاب .

(٨) في بن : المشركين .

(٩) زيد في بن : فعاقبة الصبر الحلاوة [و] السكنى بدار المقامة ، و لله در القائل =

صلى الله عليه و سلم : إن سين بلال عند الله شين[1] . و كان ولاء بلال بن حمامة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه . قال عمر رضى الله عنه : أبو بكر الصديق سيدنا و أعتق سيدنا ، و ذلك أن بلالا كان عبـــدا لأمية بن خلف فأسلم بلال فكان أمية يعذبه ، فمرّ به أبو بكر و هو على تلك الحال[2] فاشتراه منه بعبد و أعتقه ، فكان ولاؤه له - انتهى .

و قول ابن أبى حجلة :

فيا لك من هول عظيم و فتنـــة   أضرّ على الإنسان من فتنة القبر

إن فتنة خروج المسلم عن دينه لشدة عقوبة الكفار له أضر عليه بدخوله فى دين الكفر من فتنة القبر و إن كانت فتنـة القبر شديدة .

قال [١٣٣ : ب] أبو حامد الغزالى : عذاب القبر قد ورد به الشرع . قال الله تعالى : " النار يعرضون عليها غدوا و عشيا و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون اشد العذاب[3] " و اشتهر عن رسول الله صلى الله عليه

= حيث يقول :

الصبر مثـل اسمـه مر مذاقـه   لكن عواقبه أحلى [م]ن العسل

[زيد فى بن فى أول المصراع الثانى « و » ولا يستقيم بهـا الوزن فحذفناها]

و كان بلال رضى الله عنه حبشيا - الخ .

(١) فى الأصل و بن : شينا - كذا . وفى هامش الأصل : لم يصح فى إبدال بلال السين شينا خبر ، كما ذكره كثير من الحفاظ - و الجملة بغير خط الناسخ و كاتبها كما هو ظاهر غير ضليع فى اللغة ، والخط غير واضح للجزم بقراءته .

(٢) فى بن : الحالة .

(٣) قرآن كريم ٤٠ : ٤٦ .

و سلم و السلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر و هو ممكن ؛ فيجب[1] التصديق به . و لا يمنع من التصديق تفرق أجزاء الميت فى بطون السباع و حواصل الطيور ، فان المدرك لآلام العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله على إعادة الإدراك إليها . و سؤال منكر و نكير ، و قد وردت الأخبار بذلك ، فيجب التصديق لأنه ممكن إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذى به فهم الخطاب ، و ذلك ممكن فى نفسه ، و لا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون الميت و عدم سؤالنا للسؤال ، فان النائم ساكن بظاهره ، و يدرك من باطنه من الآلام و اللذات ما يحس بأمره عند التنبه . و قد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يسمع كلام جبريل و يشاهده ، و من حوله لا يسمعونه و لا يرونه و لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . فاذا لم يخلق لهم السمع و الرؤية لم يدركوه . و اختلف فى نسبة[2] الغزالى لما ذا ، فقيل إلى الغزل ، و قيل إلى بلدة بخراسان يقال لها غزّالة ، و قيل إلى قوله :

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد لغزلى غزّالا[3] فكسّرت مغزلى

يعنى وضع لهم علما حقيقيا فلم يفهموه ، فأنشد البيت المذكور فسمى الغزالى .

(١) « فيجب » تقع بآخر بن [٩٣ : ب] و يتلوها بالصفحة التالية : قال الشعر فى هذا المعنى :

زكاة رؤوس الناس فى عيد فطرهم

وبناء على ذلك تكون الورقات من ١٣٣ : ب إلى ١٤١ : ب فى بر ساقطة من بن .

(٢) فى هامش الأصل : مطلب نسبة الإمام محمد الغزالى .

(٣) ورد بين السطور فوق الكلمة : نساجا .

و من تصانيفه فى الفقه كتاب المهذب و كتاب البسيط و كتاب الوسيط و كتاب الوجيز و كتاب الخلاصة ، فقال بعضهم فى ذلك :

هذب المذهب حبر   أحسن الله خلاصه
ببسيط و وسيط   و وجيز و خلاصه

و قيل إن بعض الصالحين رأى النبى صلى الله عليه و سلم فى منامه جالسا و عيسى عليه السلام إلى جانبه إذ أقبل الغزالى فنظر النبى عليه السلام إلى عيسى و قال له : أفى حواريك[1] مثل هذا الحبر؟ و لو لم يكن للغزالى من التصانيف إلا إحياء علوم الدين لكفاه نيته فيه ، فان الأعمال بالنيات و لكل امرئ ما نوى ، كما جاء فى الحديث الصحيح ؛ و لما لزم الغزالى رحمه الله الخلوة أربعين يوما رجاء للحكمة عملا بقول النبى صلى الله عليه و سلم : من أخلص لله أربعين صباحا فجر الله [١٣٤ : الف] ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه . و لم ير الغزالى لذلك أثر تعجب ، فرأى فى المنام أنك لم تخلص لله ، إنما أخلصت لطلب الحكمة ، فالأعمال بالنيات ، و إنما لكل امرئ ما نوى ، فكثير من نظر فى علم لغرض فلم يحصل له ذلك العلم و لا ذلك الغرض - انتهى .

نعود إلى قول ابن أبى حجلة فى مرثيته :

و قد أخذوا فى أخذها الطالع الذى   به أخبر الكهّان فى سالف الدهر

يعنى أن الفرنج ظفروا بالإسكندريــة بأخذهم لها الطالع الذى زعموا

(١) فى الأصل : حواريك .

بحدسهم أن الكهنة أخبرت به فيما مضى من الزمان ، و زعم كثير ممن تقدم أن النفس إذا قويت و زادت قهرت الطبيعة ، و غلب القسم النفسى القسم الجسدى ، فأباحت الإنسان كل سر لطيف ، و خبّرته بكل معنى شريف . و لذلك وجد الكهان الجسم و تشويه الخلق على ما يوجدون عليه ، كشق الأنمارى و سطيح الغسانى و سملق و زوبعة و حارثة و جهينة و كاهنة باهلة . و كان سطيح الكاهن يدرج جسده كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه ، و كانت جمجمته إذا لمست باليد أثرت فيها للين عظمها . و شق الأنمارى هو ابن حويل - بالحاء المهملة - [1]ابن أرم بن سبأ بن نوح عليه السلام ، و هو أول كاهن كان فى العرب و يقال له المسيح الدجّال[1] ؛ سمى مسيحا لأنه ممسوح[2] لا عين له و لا حاجب ، و قيل إن الدجال[3] أنظره الله إلى الوقت المعلوم و هو محبوس فى بعض جزائر البحر ، و يقال إن إبليس يأتيه بما يأكله ، و قيل إنه لا يحتاج إلى غذاء ، و قيل إنه امرأة من الجن عشقت [4]أباه حويلا[4] ، فتزوجها و أولدها الدجال ، و اسمه حوص بن حويل ، و هو مشوّه مبذول ، و كان إبليس يعمل له العجائب . فلما كان وقت سليمان عليه السلام دعاه فلم يجبه ، فحبسه فى جزيرة من جزائر البحر ، و كان[5] إبليس ملكا من

(١-١) العبارة ساقطة من النص و مضافة بهامش الأصل .

(٢) فى هامش الأصل : أول كاهن فى العرب .

(٣) فى هامش الأصل : الدجال .

(٤-٤) فى الأصل : أبوه حويل .

(٥) فى هامش الأصل مناقضة للنص بخط آخر غير خط الناسخ فى العبارة =

الملائكة ، و كان يُظهر من طاعته لله ما كانت الملائكة ترى له فضلا ، و كان الله قد علم غشه و خبثه ما خفى عن الملائكة . فلما أراد فضيحته ابتلاه بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه فلعنوه - انتهى .

و سمى عيسى بن مريم مسيحا لكثرة سياحته فى الأرض ، و المسيح أيضا الدرهم الأطلس بلا نقش ، و المسح مسح الشيء بالسيف و قطعه به . و المسح مسح الرأس فى الوضوء . و المسحاة التى يشق بها الأرض للحرث . و المسائح الذوائب . و المسحاء المرأة التى لا عجز لها . و لفلانة مسحة من جمال . قيل إن ذا[1] الرمّة كان يهوى امرأة جميلة من العرب تسمى مىّ ، فأنشدها يقول : [١٣٤ : ب]

على وجه مىّ مسحة من ملاحة   و تحت الثياب القار لو كان باديا

فلما سمعت منه ذلك حنقت و اغتاظت ، و حملها الغيظ إلى أن كشفت له من جسمها ، فرأى ما حيّر عقله من رطوبته و صفائه و بياضه و لينه ، و رأى منها هناها الجاثم ، و بياضه الناعم ، فأنشدها يقول :

ألم تر أنّ المـاء يخبث طعمـه   و لو كان لون الماء أبيض صافيا

فقالت له : كأنك تريد بعد نظرك إليه أن تذوقه . قال : نعم . قالت : تذوق الموت قبل أن تذوقه - انتهى .

= التالية : لم يكن إبليس ملكا بل كان كما قال الله « كان من الجن » و الاستثناء فى الآية منقطع أو باعتبار خلطتهم و انغماسه فيهم . و قد قال الله تعالى « كان من الجن » (قرآن كريم ١٨ : ٥٠) - و العبارة فيها خلط و بعض غموض .

(١) فى الأصل : ذو .

نعود إلى ما قيل فى الكهان و الكهانة[1] . ادعى قوم أن الأرواح المخودة من الجن تخبر الكهان بالأشياء قبل كونها ، و أن أرواحهم لما صفت صار لتلك الأرواح من الجن موافقة . و قيل إن الشياطين تسترق السمع و تلقيه على ألسنة الكهان . و ذهبت طائفة إلى أن سبب الكهانة الوحى الفلكى ، و ذلك فى المولد عند ثبوت عطارد على شرفه و كون سبب الدرارى فى عقد متساوية الرباع متكافئة و مناظر متوازية ، فيجب أيضا لصاحب المولد التكهن . و بالهند كهنة و سحرة ، قال موسى ابن إسحاق : كنت عند صاحب مدينة صندابور يوما و نحن نتحدث إذ ضحك ثم قال لى : أتدرى لم ضحكت ؟ فقلت : لا . فقال : على الحائط وزغتان[2] قالت الواحدة للأخرى : الساعة يأتينا ضيف غريب قال : فعجبت من حماقته و أردت الانصراف بعد ساعة ، فقال لى : لا تبرح حتى ترى ما تتحدث به ، فما كان بأسرع من أن وصل مركب من عمان تلك الساعة ، و حمل منه أعدال و قماش إلى بين يدينا ، ففتح بعضه و أنا أنظر ، و إذا بوزغة خرجت من المتاع فصعدت عند الوزغتين ، فتعجبت من ذلك .

و الكهانة كانت فى زمن الجاهلية ، و كانت الجاهلية إذا مات فيهم الرجل حبست ناقته عند قبره ، فلا تعلف و لا تسقى حتى تموت جوعا و عطشا ، و يزعمون أن صاحبها يحشر عليها .

---

(١) فى هامش الأصل : مطلب الكهانة و أصلها .

(٢) فى الأصل : وزغتين .

والكهانة فى اليمن خصوصا والقيافة[1] فى نزار عموما ورثوها عن آبائهم ، وقد قفت القافة أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضى الله عنه الحجر الصلد والجبال الجرد ، وحيث لا تتبين الأقدام فى رمل ولا تراب حتى انتهوا إلى باب الغار ، فحجبهما الله تعالى عنهما بما كان من نسج العنكبوت وبيض الحمام وبما سفت عليه الرياح . قال بعضهم من قصيدة [١٣٥ : الف] يمدح بها النبى صلى الله عليه وسلم :

والعنكبوت غدا فى الغار منتشرا   لما أتت نحوه خيل وفرسان
باض الحمام به والقوم قد ذهلوا   ردوا حيارى فلا حيّوا ولا كانوا

ولبعضهم من قصيدة :

وفى الغار لما قال لابن قحافة   أبا بكر لا تحزن فرب العلا معنا
وصدّ أبا سفيان بيض حمامة   فرد جميع الكافرين ولا استثنى

ولبعضهم من قصيدة :

والغار لما حل فيه واختفى   وعُداه تقفو إثره وتجول
نسجت عليه العنكبوت لوقتها   سترا جميلا ما إليه وصول

والغار[2] فى جبل أبي ثور بينه وبين مكة ستة أميال ، وهو الذى ذكره الله فى كتابه فقال : « ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه

(١) انظر رحلة ابن بطوطه ج ١ ص ١١٢ - ١١٣ ، والمسعودى (مروج الذهب) ج ٣ ص ٢٢٨ ، ٣٤٢ .
(٢) فى هامش الأصل : الغار .

لا تحزن إن الله معنا[١] ». وصاحبه هو أبو بكر رضى الله عنه، وأبو بكر هو عبد الله[٢] بن أبى قحافـــة عثمان، وكان اسم أبى بكر فى الجاهلية عبد الكعبة، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عتيقا[٣] لجماله، ويقال إنه سمى عتيقا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنت عتيق من النار. وسمى صديقـا بتصديقه خبر الإسراء، ووصفته عائشة فقالت: كان أبيض نحيفـا خفيف العارضين معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة، يصبغ لحيته بالحنّاء والكتم. وتوفى فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وقيل توفى فى جمادى الآخرة وله ثلاث وستون سنة - انتهى.

نعود، وكانت الكهان تتحدث بالعجائب لقوة نفوسهم، وما يدريك بأن المنجمين ذكروا للقبرسى شيئا من أخبار الكهان بحدسهم وحسابهم وتكهنهم لأخذهم الطوالع بالأسطرلابات، فركن إلى مقالتهم فى وقت ذكروه له بأنه يظفر فيه بالإسكندرية، فنهض عليها فى ذلك الوقت فظفر بها لمصادفتهم لذلك، وإلا فالمنجمون لا يعلمون الغيب ولا غيرهم من سائر المخلوقات. قال الله تعالى: « قل لا يعلم من فى السمٰوٰت والارض الغيب الا الله[٤] ».

(١) قرآن كريم ٩ : ٤٠.

(٢) فى هامش الأصل: أبو بكر.

(٣) فى الأصل: عتيق.

(٤) قرآن كريم ٢٧ : ٦٥.

و سمى الأسطرلاب[1] أسطرلابا لأن بعض الحكماء كان له ولد يسمى لاب ، و كان الحكيم عنده خشبة كالأكرة يأخذ بها الطالع و يعرف بها الأوقات ، فأخذ ولده لاب خشبة بسطها و سطرها و جعل لها زوايا [١٣٥ : ب] و خطها خطوطا كما هو صفتها الآن ، فلما رآها الحكيم قال : من بسط هذه و سطرها و جعل لها زوايا و خطوطا ؟ قيل له : ولدك لاب . فأعجبه ذلك و قال : سموها أسطرلاب . فصار ذلك اسما علما عليها إلى الآن . ثم إنهم صنعوا أيضا صفة دائرة مبيكرة[2] من نحاس بحدائد نحاس ملولبة من الجهتين و رسموا فيها رسومات يعرف بها أوقات ساعات النهار و الجهات ، و صنفوا فيها كتابا استعانوا به على معرفتها ، من أراد الوقوف عليه فليطالعه ، و سماه مؤلفه بكتاب بغية الطلاب فى العمل بالأسطرلاب[3] .

و المنجمون يصيبون و يخطئون ، و الدليل على ذلك أن السلطان محمد بن تكش[4] الخوارزمى لما أراد قتال الترك الخطاى ، و كان قد دخل بجيشه أطراف بلاد الإسلام مما وراء النهر لطلب المنجمين ، فدخلوا عليه و معهم الأسطرلابات و الكتب ليختاروا وقتا للخروج لمقابلة العدو ،

---

(١) فى هامش الأصل : الاسطرلاب

(٢) كذا فى الأصل ، وقد مر التعليق عليه فى ص ٢٥١ .

(٣) لم نعثر على هذا الكتاب فى الفهارس المعروفة .

(٤) فى الأصل : يشكر ، و صحته علاء الدين محمد بن تُكُش خوارزم شاه ٥٩٦ – ٦١٧هـ/١٢٠٠ – ١٢٢٠م الذى هزم الخطاى فى سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م – راجع فى ذلك . W. Barthold, Turkestan down to the Mongol Invasion (London 1928) pp. 355 ff., 363 ff.

فدخل عليهم الإمام فخر الدين الرازى و قال: أيها الملك! الاختيار لا يحسن وقت الاضطرار، و هذا وقت اضطرار، فان الخطاى الكافر بعد ما دخل دار الإسلام لا يمكن التوقف عنه. فأنكر عليه المنجمون و قالوا: يخاطر بملكه و جنده و تأمره بالخروج فى هذا الوقت الذى لا يخرج فيه جيش إلا و يكسر، و لا تاجر إلا و يخسر. فغضب الإمام فخر الدين و قال: من أين علمتم ذلك؟ و هب أنكم عرفتم طالع هذا الملك و تعرفون صاحب الحرب و طالع البلد فلا شك فى أنكم لا تعلمون طالع موضع الحرب لعل طالع هذا الموضع يقتضى أن تكون الغلبة لحربه دون حرب. فقال[1] المنجمون: نحن إذا اخترنا وقتا حسنا يقع الحرب و لا يتفق إلا فى موضع يكون للسلطان أوفق. قال: فمن ههنا قلت إن الاختيار لا يكون فى وقت الاضطرار، و ذلك لأن الخطاى لما خرج خرج قبل هذا الملك، فربما يكون قد خرج فى وقت لا يقع حربه إلا فى أرض أوفق به فى وقت أليق به. قالوا: فاذا اخترنا وقتا جيدا للسلطان يتغير ذلك و تنكسر شوكة ما اقتضاه اختياركم، فالحاصل أن الخروج بطالع إن اقتضى شيئا لا يتغير، فهم خرجوا فى وقت لا يعلمونه و معهم من الأمراء من لا تعرفونهم، و لعل واحدا فيهم له طالع يغلب، و إن اقتضى شيئا يتغير فلا فائدة لاختياركم. فقال السلطان محمد للامام فخر الدين: فما طريقة ذلك؟ قال: صلّ ركعتين و اقرأ فى إحداهما «قل يايها الكٰفرون[2]»

(١) فى الأصل: فقالت.

(٢) قرآن كريم ١٠٩ (سورة الكافرون).

[١٣٦ : الف] و فى الأخرى « قل هو الله احد ١ » و قل عقيبهما : اللهم ! إنى أستخيرك و إنك بكل شىء عليم و على كل شىء قدير ، تعلم و لا أعلم و تقدر و لا أقدر ، اللهم! إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى و دنياى و عاقبة أمرى فاصرفه عنى و اصرفنى عنه و اقدر لى الخير حيث كان . ففعل ما قال و خرج و قاتل الترك الخطاى فكسرهم و هزمهم و غنمهم .

و سأذكر هنا ترجمة الإمام ٢ فخر الدين الرازى إن شاء الله تعالى .

كان الإمام فخر الدين المذكور من الأئمة الأعلام ، شافعى المذهب ، أحد المشاهير بالتصانيف نحوا من مائتى مصنّف . و صنّف ترجمة الإمام الشافعى فى مجلد مفيد ، و قد كان معظما عند الملوك الخوارزمية و غيرهم ، و بُنيت له مدارس كثيرة فى بلدان شتى ، و ملك من الذهب ثمانين ألف دينار و غير ذلك من الأمتعة و المركوب و الأثاث و الملابس ، و كان له خمسون مملوكا من الترك ، و كان يقعد فى مجلس الوعظ فيحضر عنده الملوك و الوزراء و العلماء و الأمراء و الفقراء و العامة و الغوغاء . و كان يبغض الطائفة الكرامية من الرفضة و يبغضونه ، فدسّوا عليه من سقاه السم فمات ففرحوا بموته . و كانت وفاته فى ذى الحجة سنة ست و ستمائة رحمه الله تعالى . و حضر مرة مجلسه بخراسان و هو يعظ الناس على المنبر ، فجاءت حمامة يتبعها جارح ، فألقت نفسها على الفخر الرازى

---

(١) قرآن كريم ١١٢ (سورة الإخلاص) .

(٢) فى هامش الأصل : ترجمة الفخر الرازى . و له تراجم من أهمها ما يلى :
P. Kraus, Les controverses de Fakhr addīn Rāzī, in Bull. Inst. d'Egypte, XVIII, pp. 187–214.

كالمستجيرة به ، فأنشأ محمد بن عُنين[1] الشاعر يقول :

جاءت سليمانَ الزمانِ حمامةٌ والموت يلمع من جناحى طائر
من علّم الورقاء أنّ محلّكم حرَم وأنّك ملجأ للحائر

وكان الإمام فخر الدين مع غزارة علمه وتبحّره فى فن الكلام يقول : من التزم بمذهب العجائز ، كان هو الفائز . يعنى بقوله الماء والمحراب .

وسأذكر أخبار المنجمين[2] وعدم إصابتهم إلا قليلا ، فانهم قد يصيبون[3] وخطأهم أكثر من إصابتهم ، وذلك أنهم قالوا لأمير المؤمنين أقوالا تقتضى[4] عدم قتاله لعدوه فى وقت ذكروه له خالفهم فيه وقاتل فانتصر ، وذلك أن أمير المؤمنين المعتصم لما قصد فتح مدينة عمورية[5] نهاه[6] المنجمون عن الخروج فى وقت رأوه غير صالح للخروج ، فخالفهم وخرج ففتحها ، ورجع منها بغنائم لا تحصى كثرة ، واستصحب معه بابها الذى لم يُعمل مثله فى الدنيا وكان [١٣٦ : ب] من الحديد الصينى المخرّم بأنواع التخريم المنقوش بأحسن النقوشات - انتهى .

---

(١) وهو أبو المحاسن محمد بن نصر الله شرف الدين الأنصارى ٥٤٩ - ٦٣٠ هـ / ١١٥٤ - ١٢٣٣ م . انظر أيضا ١٤٥ : ب ، ١٤٦ : الف .

(٢) فى هامش الأصل : أخبار المنجمين .

(٣) فى الأصل : يصيبوا .

(٤) فى الأصل : يقتضى .

(٥) انظر ٣٧ : الف وكذلك فيما بعد ٢٣١ : الف .

(٦) فى الأصل : نهته .

فالاتكال على الله تعالى و التفويض إليه أولى ، فبذلك يقع النصر لا كما يقوله[1] المنجمون . قال الشاعر :

و إذا استقام الدهر يوما لامرئ   أغنت سعادته عن التنجيم

قال الشيخ شهاب الدين القرافي في كتاب القواعد له : وكيف يحل لمسلم يؤمن بالله و اليوم الآخر تصديق المنجمين مع قوله تعالى : « قل لا يعلم من في السمٰوٰت و الارض الغيب إلا الله[2] » . قال ابن العربي: و حال هؤلاء المنجمين دائر بين الكفر و الفسوق . و في سنن أبي داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر . و لله در القائل حيث يقول:

لا ترقب النجم في حال تخاف به   الله يفعل لا جَدىٌ و لا حَمَل

مع السعادة ما للنجم من أثر   فلا يضرك مرّيخ و لا زحل

خطب الحجاج يوما بأهل العراق فقال في خطبته : أنتم تزعمون أني أعلم الغيب ، و قد قال الله عز و جل « فلا يُظهر على غيبه احدا[3] » و تزعمون أني ساحر ، فبئس الدين دين ظهر فيه السحر ، و الله يقول « و لا يفلح السحر حيث اتى[4] » و تزعمون أني من بقية قوم ثمود ،

(١) في الأصل : تقوله .

(٢) قرآن كريم ٢٧ : ٦٥ .

(٣) قرآن كريم ٧٢ : ٢٦ .

(٤) قرآن كريم ٢٠ : ٦٩ .

فو الله ما نجا مع صالح إلا خيارهم و هلك الآخرون ، قال الله تعالى «و ثمودا فما أبقى[1]» انتهى .

و سأذكر الآن ما قيل فى حجاج الشام[2] إذا اجتازوا بأرض ثمود إن شاء الله تعالى . قال ابن معلى فى مناسكه : من سار إلى الحج من الشام ، أو نزل مع الركب الشامى فينبغى إذا وصل إلى الحِجْر ديار ثمود أن لا يدخلها ، و أن ينهى العامة عن دخولها ، و أن يكون خائفا باكيا ، مستغفرا داعيا ، ناهيا من رآه لاهيا ، لقوله صلى الله عليه و سلم : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم - خرّجه مسلم ، و فى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لأصحابه لما وصل الحِجْر ديار ثمود : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لئلا[3] يصيبكم مثل ما أصابهم . قال القرطبى فى كتاب المفهم على صحيح مسلم : فحق المارّ بموضع المعاقبين أن يحدد النظر و الاعتبار ، و يكثر [١٣٧ : الف] من الاستغفار ، و يخاف من نقمة العزيز القهار ، و أن لا يطيل اللبث فى تلك الديار . و من أراد الوقوف على أخبار

(١) قرآن كريم ٥٣ : ٥١ .

(٢) فى هامش الأصل : أرض ثمود بالشام .

(٣) فى الأصل : لا .

ثمود مع نبيهم صالح فليطالع قصص الأنبيا للحُجري[١] أو للثعلبي[٢] أو للكسائي[٣] أو التفسير للبغوي[٤] - انتهى .

نعود إلى ذكر ضلال المنجمين ، اعلم أن المنجمين ضالون مضلون لتعويلهم على الأباطيل و الترّهات ، قال الشاعر :

أطلّاب النجوم أحلتمونا   على علم أرقّ من الهباء
علوم الأرض لا تصلوا إليها   فكيف بكم إلى علم السماء

و قال الآخر :

يقولون لي ما اسم برجك في السما   فقلت و في قلبي لذاك وهيج
فتى ما له في الأرض بيت يكنّه   يكون له فوق السماء بروج

و قد يقع لبعض المنجمين إصابات في إخراج الخبايا كأبي معشر المنجم[٥] ، و ذلك أنه كان متصلا بخدمة بعض الملوك ، و أن ذلك الملك طلب رجلا من أتباعه و أكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة وقعت منه ، فلم يقدر عليه ، فاغتم لذلك لعدم تحصيله ، و كان الرجل قد استخفى ، و علم

(١) غير معروف بالتأكيد ، و لعله البهلول بن راشد الحجري الرعيني المتوفى سنة ١٨٣ ﻫ / ٧٩٩ م .

(٢) أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ ﻫ / ١٠٣٥ م .

(٣) علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي المتوفى سنة ١٨٠ ﻫ / ٧٩٦ م .

(٤) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء المتوفى سنة ٥١٠ أو ٥١٦ ﻫ / ١١١٧ أو ١١٢٢ م .

(٥) في هامش الأصل : نكتة .

أن أبا[١] معشر[٢] يدل عليه بالطرائق التى يستخرج بها الخبايا و الأشياء الكامنة لما علم أنه إمام وقته فى فنّه، فأراد أن يعمل شيئا لا يهتدى أبو[٣] معشر إليه، و يبعد عنه حدسه، فأخذ طشتا من نحاس و جعل فيه دما، و جعل فى الدم هاوون ذهب، و قعد على الهاوون أياما، و تطلّب الملك ذلك الرجل، و بالغ فى التطلّب، فلما عجز عنه الملك أحضر أبا معشر المنجم و قال له: تعرّفنى موضعه بما جرت عادتك. فعمل المسألة التى تستخرج الخبايا، و سكت زمانا حائرا. فقال له الملك: ما سبب سكوتك و حيرتك؟ فقال: أرى عجبا. فقال: و ما هو؟ قال: أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب، و الجبل فى بحر من دم، و البحر محيط به سور من نحاس، و لا أعلم فى العالم موضعا على هذه [الصفة-[٤]]. فقال له: أعد نظرك، و غيّر المسألة، و جدّد الطالع. ففعل ثم قال: ما أراه إلا كما ذكرتُ، و هذا شىء ما وقع لى مثله قط. فلما أيس الملك من القدرة عليه بهذه الطرائق نادى فى البلد بالأمان للرجل و لمن أخفاه، و أظهر من ذلك ما وثق به الرجل، فلما اطمأن الرجل و حضر بين يدى الملك، فسأله عن [١٣٧: ب] الموضع الذى كان فيه، فأخبره بما اعتمده، فأعجبه حسن احتياله فى إخفاء نفسه، و لطافة أبى معشر فى

(١) فى الأصل: أبى.

(٢) جعفر بن عمر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ هـ / ٨٨٦ م.

(٣) فى الأصل: أبا.

(٤) الكلمة ساقطة من الأصل.

استخراجه ، فزال عن الملك غمه و حزنه و عفى عنه •

و اعلم أن أكثر المنجمين يخطئون[1] و لا يصيبون • قال ابن المعتز[2] : لا يصلح لذى عقل و دين تعاطى علم النجوم ، لأنه لا سبيل إلى اتصال الصواب فيها ، و الذى يشبه الصواب فيها إنما يتهيأ بالاتفاق ، و كيف يرضى العاقل لنفسه أن يكذب مرة و يصدق أخرى ، و لو أمكن أن لا يخطئ الناظر فى علم النجوم لكان فى ذلك تنغيص العيش و تكدير لصفوه و تضييق لمنفسح الآمال التى[3] بها قرت الأنفس و عمرت الدنيا ، و لم يف بما ترجى من الخير لما يتوقع من الشر ، لأن بعض الناس لو علم أنه يموت إلى سنة لم ينتفع بشيء من دنياه ، و هذا لا يشبه من تفضل الله و إحسانه و رأفته بخلقه ، و لو علم الناظر فيها أنه يعيش مائة سنة فى صحة و غنى لبطر و ما انتهى عن فاحشة و لا تورّع عن محرم و لا اتقى زوال نعمة • و لفسدت الدنيا باهمال الناس بعضهم بعضا ، و لعل أحدهم كان يؤخر التوبة إلى يوم أو ساعة أو سنة قبل موته ، فيتحاذق على ربه و يدخل الجنة بتوبته ، و ليس هذا فى حكمة و صواب تدبيره ، فلا شك أن الخير فيما اختار لنا من طىّ ذلك عنا ؛ فله الحمد على جميل صنعه و لطف إحسانه و فضله - انتهى •

---

(١) فى الأصل : يخطون •

(٢) الغالب أن المقصود هنا هو الخليفة أبو العباس بن المعتز ٢٤٧ - ٢٩٦ هـ / ٨٦١ - ٩٠٩ م •

(٣) فى الأصل : الذى •

و قد فصّل العلماء النظر فى علم النجوم[1] إلى واجب و مندوب و مباح و مكروه و محظور . فالواجب النظر للاستدلال على أوقات العبادة ، و المندوب النظر للاستدلال على وجود الصانع و علمه و كمال قدرته ، و المباح[2] النظر من حيث أنها مؤثرة باجراء العادة لا بالطبع ، و المكروه اعتقاد أنها تؤثر بالطبع ، و المحظور اعتقاد أنها مدبرات على سبيل الاستقلال مستحقة للعبادة ، و هذا كفر صريح نعوذ بالله منه .

و أما العلوم المتفرعة[3] منه فهى خمسة : علم الزيجات و التقاويم ، و علم المواقيت ، و علم كيفية الأرصاد ، و علم تسطيح الكرة و الآلات الحادثة عنه ، و علم الآلات الظلية - انتهى . و اعلم أن الملوك يزول [4]عنهم حزنهم[4] بالظرائف ، كفعل أبي معشر المنجم المتقدم ذكره ، و بالحكايات و النوادر و الأخبار و الأشعار و الجد و الهزل . فمن ذلك ما حكاه الكلبي عن الأخطل ، قال : دخلت على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان[5] ، فوجدته [١٣٨ : الف] مغموما مهموما لعارض عرض له ، و عنده رجل يحسدنى و يعارضنى فى كلامى . قال الأخطل فقلت :

---

(١) فى هامش الأصل : تفصيل علم النجوم .

(٢) فى هامش الأصل عبارة طويلة بخط غير خط ناسخ المخطوط ردىء لا يقرأ ، و الواضح أن الكاتب لهذه الملاحظة يعترض على النص .

(٣) فى هامش الأصل : العلوم المتفرعة .

(٤ - ٤) فى الأصل : عنها حزنها .

(٥) الخليفة الأموى و حكمه سنة ٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م .

يا أمير المؤمنين ! عهدى بأب [1] هذا الفتى و هو سيد بنى جشم و شيخنا الذى نصدر عن رأيه ، فاهتز الفتى لكلامى طربا و قال : يا أمير المؤمنين ! هذا الأخطل أعلم بنا قديما و حديثا . ثم قال الأخطل : و إن أباه أمرنا ذات يوم و قد نوّرت الأرض أن نخرج إلى روضة فى ظهر بيوت الشّعر فنتحدث فيها ، فخرجنا فابتسطنا العبا و خرج كل رجل منا البكرة و الكوما و بالخروف و الجدى ، و قام الفتيان فنحروا و ذبحوا و اشتووا اللحم ، و دارت السقاة علينا بالكأسات ، فبينما نحن كذلك إذ رعف أبوه فما تركنا فى الحى روثة حمار إلا سقيناه إياها ، فلم يرق دمه ، فقال لنا أحد الجماعة : شدوا خصى الشيخ بعصب فان دمه ينقطع ، ففعلنا ذلك فانقطع الدم ؛ فو الله ما دارت الكأسات بيننا إلا دورا حتى جاء الصياح بأن أمه رعفت ! فو الله ما درينا ما نعصب منها حتى خرجت نفسها و هلكت ! و أمير المؤمنين عبد الملك يفحص برجليه ضحكا ، و الفتى قد خجل من كلام الأخطل و هو يقول : كذب و الله يا أمير المؤمنين ! فقال عبد الملك : ألم تزعم أنه أعلم الناس بقديمكم و حديثكم ؟ فسكت الفتى خجلا ، و انتصر عليه الأخطل بين الملأ ، فكف الفتى عن معارضته ، و لم يعد يعارضه بعد ذلك بكلام ينكيه .

و سأذكر ما قيل فى علاج الرعاف [2] إن شاء الله تعالى . قيل علاج

(١) فى الأصل : بأبى .

(٢) فى هامش الأصل : علاج الرعاف .

الرعاف أن ينفخ فى الأذن شبّ يمانى[1] ، و توضع[2] محجمة على الجانب الذى يرعف منه ، فانه يسكن باذن الله تعالى . و قيل إن شم الكافور يقطع الرعاف . قال الشاعر :

صنم من الكافور بات معانقى فى بردتىّ تعفّف و تكرّم
فطفقت أمسح ناظرىّ بجيده من عادة الكافور إمساك الدّم

و منها فى الكرم و السخاء و المروءة . قيل كان معن بن زائدة الشيبانى جوادا شجاعا جَزِل العطاء كثير المعروف ممدوحا مقصودا ، و كان فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ؛ فلما انقلبت الدولة إلى بنى العباس خاف من أبى جعفر المنصور[3] ، فاستتر عنه مدة ، و جرى له فى مدة استتاره غرائب ، فمن ذلك ما حكاه مروان بن أبى حفصة الشاعر ، قال : أخبرنى معن بن زائدة و هو يومئذ متولى اليمن أن المنصور جدّ فى طلبى ، و جعل لمن يحملنى إليه مالا ، [١٣٨ : ب] قال[4] : فاضطررت لشدة الطلب إلى أن قعدت فى الشمس ، و وجّهت إليها وجهى حتى أثرت الشمس فيه ، و خفّفت عارضىّ ، و لبست جبة صوف ، و ركبت جملا ، و خرجت متوجها إلى البادية لأقيم بها . قال : فلما خرجت من باب بغداد تبعنى أسود متقلد بسيف حتى إذا غاب عن

(١) فى هامش الأصل : فائدة للرعاف .
(٢) فى الأصل : و يوضع .
(٣) ثانى الخلفاء العباسيين و حكمه ١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م .
(٤) فى هامش الأصل : نكتة .

الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه و قبّل يدى . فقلت : ما لك ؟ قال : أنت طلبة أمير المؤمنين المنصور . فقلت : و من أنا حتى أطلب ؟ قال : أنت معن بن زائدة . فقلت له : يا هذا اتق الله ! و أين أنا من معن ؟ فقال : دع هذا فو الله إنى لأعرف منك بك . فلما رأيت منه الجدّ قلت له : هذه جواهر قد حملتها معى بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بى ، فخذه و لا تكن سببا فى سفك دمى . فقال : هاته ، فأخرجته إليه ، فنظر إليه ساعة و قال : صدقت فى قيمته و لست قابله حتى أسألك عن شىء فان صدقتنى أطلقتك ، فقلت له : قل . قال : إن الناس قد وصفوك بالكرم و الجود فأخبرنى هل وهبت مالك كله ؟ قلت : لا . قال : فنصفه ؟ قلت : لا . قال : فثُلثه . قلت : لا - حتى بلغ العُشر فاستحييت فقلت : أظن أنى قد فعلت هذا . قال : و ما ذاك بعظيم ، إنى والله رجل و رزقى من أبى جعفر المنصور كل شهر عشرون درهما ، و هذا الجوهر قيمته ألف دينار ، و قد وهبته لك و وهبتك لنفسك و جودك المشهور بين الناس ، و لتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك ، فلا تعجبك نفسك . ثم رمى لى تلك الجواهر فى حجرى ، و ترك خطام الجمل ، و ولى منصرفا . فقلت له : يا هذا قد - و الله - فضحتنى ! و لسفك دمى أهون على مما فعلت ، فخذ ما دفعته لك فانى غنى عنه . فضحك و قال : أردت أن تكذبنى فى مقالتى هذه ، و الله لا أخذت لمعروف ثمنا أبدا - و مضى لسبيله ، فو الله لقد طلبته بعد أن أمنتُ ، و بذلت لمن يجىء به ما شاء فما وقفت له على خبر . و لله در القائل حيث يقول فى الكرم

و الجود على الأصدقاء و الأعداء :

و من جوده يرمى العداة بأسهم من الذهب الإبريز صيغت نصولها
لينفقها المجروح عنـد دوائـه و يشترىَ الأكفان منها قتيلها

و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب خبر معن المذكور مع أبى جعفر المنصور إن شاء الله تعالى[1] . و منها فى الذل بعد العز ، و الفقر بعد الغنى ، و الضيق بعد السعة ، و السجن بعد الملك . و هو ما حكى أن المعتمد على الله أبا[2] القاسم محمد بن [١٣٩ : الف] عباد اللخمى من بنى النعمان بن المنذر ، و هو الذى قال فيه الشاعر :

من بنى المنذرين و هو انتساب شرف فخـره بنو عبّاد
فتيـة لم تلد سواها المعالى و المعالى قليـلة الأولاد

و كان المعتمد ملك الأندلس حضرته محط الرجال ، و قبلة الآمال ، و موسم الشعراء ، و مألف الفضلاء ، و كان ذا كلف بالنساء ، فاستوسع من اتخاذهن ، و خاط فى جنوسهن ، فكثر نسله لتوسعه فى النكاح و قوته عليه ، فذكر أنه كان له من الولد نحو العشرين ذكورا و من الإناث مثلهم ، و كان بعض الملوك[3] قد حسده على مملكته لما هى عليه

(١) فى هامش الأصل : حكاية لطيفة لا بأس بالنظر إليها .

(٢) فى الأصل : أبو . و المعتمد من ملوك بنى عبّاد باشبيلية فى الأندلس و حكمه ٤٦١ - ٤٨٤ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٩١ م .

(٣) فى هامشه ملاحظة غير واضحة تماما بخط شبه مغربى ردىء لكاتب آخر يناقض بها المؤلف و يذكر اسم الملك الغازى : «هو يوسف بن تاشفين ملك =

من الحرث و النسل و البنيان ، و الأنهار و البساتين و الجنان ، و الحصون و الملك العظيم ، فتحرك عليه ذلك الملك و أرسل إليه يتهدده و يقول له : تنزل عن الحصون التي بيدك ، و يكون لك الحظ الأوفر ، و إلا خربت ديارك ، و قلعت آثارك . فلما بلغ المعتمد ذلك ضرب الرسول و من معه ، فبلغ ذلك الذى أرسل يتوعده ما فعل برسله ، فجهز العساكر التي لا تعد و سار إليه و نازله و انتصر على المعتمد و شتت عساكره ، و ملك دياره ، و قبض عليه و اعتقله بمدينة اغمات ، و ثقل أغلاله و قيوده ، و نكس من الملك أعلامه و بنوده ، فتصاعدت من طول الاعتقال زفراته ، و تزايدت من ثقل الحديد حسراته ، و جرت من هتك حريمه و أولاده عبراته ، فكان ينشد[1] :

لكل شيء من الأشياء ميقات و للمنى من مناياهن غايات
و الدهر في صبغة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات
و نحن من لعب الشطرنج في يده و ربما قمرت بالبيدق الشات

و دخل عليه يوما بناته السجن و كان يوم عيد ، و كن يغزلن للناس بالأجرة حتى أن إحداهن غزلت لبنت صاحب الشرطة الذى كان في

= مرا [كش] و كان رجلا صالحا قصده الإمام الو . . . . للزيارة فبلغه تعبه و هو بسكندرية . . . . . . و إخراجه إياه ليس للحسد كما ذكر المؤلف فحصل انتصار المذكور للدين و إشفا [قه] على المسلمين و منع المعتمد و أمثاله من الأمر فيما لا يعنيه و انتهاب خليفة الله » .

(١) في هامش الأصل : شعر .

خدمة أبيها و هو فى سلطانه و عزه ، فرآهن و الدهن فى أطمار رثة و حالة سيئة ، فأنشد[1] :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا   فساءنى العيد فى ذا السجن مأسورا
أرى بناتى فى الأطمار جائعة   يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوى للتسليم خاشعة   أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين و الأقدام حافية   كأنها لم تطأ مسكا و كافورا

[١٣٩ : ب] ثم[2] توفى فى السجن ، و نودى فى جنازته : الصلاة على الذليل بعد عظم سلطانه ، و جلالة شأنه ؛ فتبارك من له العزة و البقاء ، و العظمة و الكبرياء .

و كان يعقوب بن الليث الصفّار[3] المستغلب على خراسان و أعمالها لما توجّه جيش أمير المؤمنين المعتصم[4] إليه و أسره كتب مقدم عسكره إلى المعتصم : « أما بعد ، فان يعقوب بن الليث عاد فريسة ، و كان كالليث أمسى أميرا ، و أصبح أسيرا » . فسُرّ المعتصم بذلك ، و أتى له

(١) فى هامش الأصل : شعر و موعظة .
(٢) هذه الصفحة آخر صفحات المجلد الأول من ب .
(٣) و هو مؤسس الدولة الصفوية بفارس (٢٥٤ – ٢٩٠ هـ / ٨٦٧ – ٩٠٣ م) و حكمه ٢٥٤ – ٢٦٥ هـ / ٨٦٨ – ٨٧٨ م .
(٤) الخليفة العباسى و حكمه ٢١٨ – ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ – ٨٤٢ م ، و الغالب أن فى القصة خلطا و الدليل أن حكم يعقوب حدث بعد خلافة المعتصم بمدة غير قصيرة ، و ربما كان المقصود الخليفة المعتضد ٢٧٩ – ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ – ٩٠٢ م أو الخليفة المقتفى ٢٨٩ – ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ – ٩٠٨ م .

به، فانتقم منه، و لله در[1] القائل حيث يقول:

هى المقادير تجرى فى أعنّتها فاصبر فليس لها صبر على حال
يوما تريش خسيس القدر ترفعه دون السماء و يوما تخفض العالى

و منها[2] فى العدل و الإحسان و الكرم و الإنصاف ما حُكى أنه لما مات عمرو بن مسعدة وزير المأمون رُفعت إلى المأمون قصة أن عمرو بن مسعدة خلف ثمانين ألف ألف درهم، فوقع المأمون فى ظهرها: «هذا قليل لمن اتصل بنا، و طالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيما خلف، و أحسن لهم النظر فيما ترك».

و قدم رجل للمأمون رقعة فيها مظلمة، و كان المأمون راكبا بغلة فنفرت، فألقته عن ظهرها إلى الأرض فأوهنته، فقال: و الله لأقتلنّك — قالها ثلاث مرات. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! إن الملهوف يركب الخطر و هو عالم بركوبه، و ينسى الأدب و هو غير جاهل به، فلو أحسنت الأيام إنصافا لأحسنت التقاضى، و لأن تلق الله يا أمير المؤمنين حانثا فى يمينك خير من أن تلقاه قاتلا لى. فأعجب المأمون كلامه و قال: و الله لا وقّعت على رقعتك إلا و أنا قائم على قدمىّ! و دعا بدواة فكتب له بازالة مظلمته. و لله درّ القائل حيث يقول:

لا تكره المكروه عند نزوله إن الحوادث لم تزل متباينه
كم من يد لا تستقل بشكرها لله فى ظلّ المكاره كامنه

(١) فى هامش الأصل: شعر و موعظة.
(٢) فى هامش الأصل: فى العدل و الإحسان.

وكتب[1] بعض عمال الحاكم بأمر الله[2] العُبيدى يقول فيها : إن الوافدين قد كثروا ، و إن عطاء أمير المؤمنين وافر ، فوقّع على الرقعة يقول : المال مال الله ، و الخلق عيال الله ، و نحن أمناء الله فى الأرض ، فأطلق أرزاق العباد و احذر من قطعها .

و منها[3] فى ترك الدنيا و الزهد فيها و الرغبة فى الآخرة ما حكى أن عبد الله بن مسروق وزير الخليفة الراشد[4] جلس يوما بين [١٤٠ : الف] يديه[5] فقال : يا أمير المؤمنين ! لو استغاث بك رجل فى رد عبد له هرب ما كنت ترده إليه ؟ قال : بلى ، قال : فأنا عبد الله فررت إلى خدمتك ، فاتركنى فقد أردت الرجوع إليه ، فبكى الراشد و قال : هذا رجل نجا من بيننا و نحن جلوس فخلّ سبيله ، فخرج محرما و هو يقول : لبيك اللهم لبيك ! و انقطع للعبادة و ترك الدنيا لأهلها . و لله در القائل حيث يقول :

قد ترك الدنيا لكل أهلها و اعتاض من حرامها بحلّها
قنّع منها نفسه بقلّها بخبزها و بَقلِها و خَلّها

---

(١) فى هامش الأصل : نكتة .

(٢) الخليفة الفاطمى و حكمه ٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م .

(٣) فى هامش الأصل : حكاية فى الزهد .

(٤) الخليفة العباسى الراشد و حكمه ٥٢٩ - ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ - ١١٣٦ م .

(٥) هنا يبدأ المجلد الثانى من « بر » . غير أن ترقيم الورقات به استمرار لترقيم ورقات المجلد الأول .

قال بعض الصالحين[1] : إن نفسا من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ، يمكن أن يشترى بها العاقل كنزا من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبد الآباد ، فانقضاؤها ضائعة أو مُصرَّفة إلى ما يوجب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل أبدا ، فالسعيد من ترك الدنيا و رفضها و عمل لآخرته ، لأن طالب الدنيا فى بلاء طويل ، فهى كالبحر المالح الذى ما ازداد شاربه منه شربا إلا ازداد عطشا ؛ و هى كالعظم الذى يصيبه الكلب فيه ريح اللحم ، فيطلب ذلك اللحم حتى يدمى فاه ، ثم لا يزداد له طلبا إلا ازداد لفيه جرحا ؛ و كالحدأة تظفر ببضعة من اللحم ، فيجتمع عليها الطير ، فلا تزال فى تعب و نصب و هرب حتى تلفظ ما معها و قد أعيت عن التطارد لها ؛ و كالآنية من العسل فى أسفلها سم ، فللذائق منها حلاوة عاجلة ، و له فى أسفلها سم ذعاف ، و كأحلام النائم التى تفرحه ما دام نائما ، فاذا استيقظ زال عنه الفرح ؛ و كالبرق الذى أضاء قليلا ثم ذهب ، و يبقى راجيه فى الظلام ؛ و كدودة القزّ التى لا يزداد الإبريسم[2] على نفسها لفا إلا ازدادت من الخروج بعدا . قال الشاعر فى رجل مكبّ على الدنيا :

كدود كدود الخزّ ينسج دائما و يهلك غمّا وسط ما هو ناسجه

(١) فى هامش الأصل : حكمة بليغة و موعظة نفيسة ينبغى الوقوف عليها و التأمل فيها .

(٢) كلمة « إبريسم » يقصد بها خيط الحرير ، و هى مذكورة فى دوزى و تعريفها : fil de Soie

فالإنسان هو أشرف الخلق و أفضله فى الدنيا ، ثم هو على منزلته لا يتقلب إلا فى شر و لا يوصف إلا به ، فليس من أحد له أدنى عقل إلا و هو يعقل ذلك و يعرفه ، ثم لا يحتال لنفسه و لا يعمل لنجاتها و الخلاص منها ، و ذلك من أكبر العجب ، فانه لا يمنعه من ذلك إلا لذة يسيرة حقيرة من الطعم و الشم و النظر و السمع و اللمس ، لعله أن يصيب منها طفيفا ؛ فصار مثله كمثل رجل ألجأه الخوف [١٤٠ : ب] من القتل إلى بئر ، فتدلى فيها و تعلق بغصنين نابتين على شفير البئر ، و وقعت رجلاه على شيء ، فاذا هى على حيات أربع قد أطلعن رؤوسهن من أجحرتهن ، و نظر إلى أسفل البئر ، فاذا هو بتنين عظيم فاغر فاه ، و رفع بصره إلى الغصنين ، فاذا فى أسفلهما فأران أحدهما أبيض و الآخر أسود يقرضان أصولها دائمان لا يفتران ، فبينما هو فى النظر فى ذلك و الاهتمام لنفسه و ابتغاء الحيلة إذ نظر فاذا قريب منه عش نحل قد صنعن فيه شيئا من عسل ، فتطعم منه بشيء شغل قلبه عن أن يتفكر فى شيء من أمر نفسه أو يلتمس حيلة ، و نسى أن رجليه على أربع حيات لا يدرى متى يهيج به إحداهن ، و لم يدر أن الفأرين دائبان فى قرض أصول الغصنين ، و أنهما إذا قطعاهما وقع فى لهوات التنين ، فلم يزل لاهيا غافلا حتى هلك . فشبهت التنين بالدنيا المملوءة آفات و شرور و مهالك و مخاوف ؛ و شبهت الحيات الأربع بالأخلاط الأربعة متى هاج خلط واحدا أهلك صاحبه ؛ و شبهت الغصنين بالحياة ، و الفأر الأسود الليل و الفأر الأبيض النهار اللذان هما دائبان فى فناء الأيام

و الآجال؛ و شبهت العسل القليل بهذه الحلاوة القليلة التى يرى الإنسان و يسمع و يشم و يلمس فيشغله ذلك عن نفسه ، و ينسيه أمره ، و يلهيه عن شأنه ، و يصده عن نجاته ؛ و شبّه التنين بفتح فيه المصير الذى يصير الإنسان إليه فى قبره - انتهى .

و اعلم أن فُسّاق هذه الأمة المحمدية خير من اليهود و النصارى و المجوس ردا على الطائفة الجعفرية ، خلق الله خلقه فى أحسن فطرة و أعادهم بالفناء فى ظلمة حفرة ، و سيعيدهم كما بدأهم أول مرة ردا على الطائفة الدهرية ، فاذا جمعهم يوم حسابهم تجلّى لأحبابه فيشاهدونه بالنظر كما يُرى القمر فلا يحتجب إلا على من ينكر الرؤية من الطائفة المعتزلة .

كيف يحتجب عن أحبابه ، أو يوقفهم دون حجابه ، و قد تقدمت مواعيده القديمة الأزليـة ، « يايتها النفس المطمئنة ه ارجعى الى ربك راضية مرضيّة ه[1] » . أتراها تقنع فى الجنان بحوريّة ، أو تقنع من البستان بالحلل السندسية ؟ كيف يرضى قيس المجنون بدون ليلى العامرية ؟ أم كيف يرتاح المحبوب لغير النفحات المحبوبية ؟ أجساد أذيبت فى تحقيق العبودية ، كيف لا تتنعم فى المقاعد العندية ؟ و أبصار سهرت فى الليالى الحندسية ، كيف لا تلتذ بالمشاهد [١٤١ : الف] الأنسية ، و اسرار أودعت الزجاجات القلبية ، كيف لا تسرح فى المناجاة القربيـة ؟ و ألباب غذيت[2] باللبابات الحسّية ، كيف لا تشرب من المدامات الربانية ؟ و أرواح جلست فى الأشباح الحسّية ، كيف لا ترتع فى الرياض القدسية ؟ انتهى .

---

(١) قرآن كريم سورة ٨٩ آية ٢٧ و ٢٨ .

(٢) فى الأصل : غديت - بالدال .

نعود ، و منها فى مدح[1] الدنيا . قال الأصبغ بن نباتة : كنا عند على بن أبي طالب رضى الله عنه ذات يوم ، فجعل رجل يذم الدنيا و على مطرق ينكث بقضيب معه . ثم رفع رأسه فقال : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، و دار غنى لمن تزوّد منها ، و دار عافية لمن فهم[2] عنها ، مهبط وحى الله ، و مسجد أوليائه ، و مصلى أنبيائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، و ربحوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها و قد أذنت ببينها ، و نادت بفراقها ، تخويفا و ترغيبا مثّلت ببلائها البلاء ، و شوقت بسرورها إلى السرور ؟ فأيها الذام للدنيا المغتر بغرورها ! متى استذمّت إليك الدنيا بل متى غرتك ؟ أبمصارع آبائك من الثرى ، أم بمضاجع أمهاتك من البلاء ؟ كم علّلت بيدك ؟ و مرّضت بكفك ، تبتغى له الشفاء ، و تستوصف له الأطباء ، لم تنفعه شفقتك ، و لم تشفع به طلبتك ، و لم يغن دواؤك و لا أطباؤك . مثّلت لك الدنيا بنفسه نفسك ، و بمضجعه مضجعك ، غداة لا يغنى بكاؤك ، و لا ينفعك أحباؤك . ثم أشرف على المقابر فقال : يا أهل التربة ! و يا أهل الغربة ! أما المنازل فقد سكنت ، و أما الأموال فقد قسمت ، و أما الأزواج فقد نكحت ، هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ فقال : أما و الذى نفسى بيده ! لو أذن لهم فى الجواب لأخبروا ان[3] خير الزاد التقوى - انتهى .

(١) فى هامش الأصل : فى مدح الدنيا .

(٢) جائز أن تكون الكلمة «نهم» بالنون، و فى كلتا الحالتين يعتبر التعبير غريبا.

(٣) فى القرآن الكريم سورة ٢ آية ١٩٧ : فان .

و منهـا الجواب المسكت كما قيل إن أمير المؤمنين المعتصم طلب جارية كانت لبعض الشعراء ، و كان شديد الغرام بها ، و بذل فى ثمنها سبعة آلاف دينار ، فامتنع الشاعر من بيعها ، و كان المعتصم رآها فأحبها ، و كان لا يغتصب مال أحد و لا يأخذه إلا برضى صاحبه بثمنه ، فلما مات الشاعر اشتريت له من تركته بسبعمائة دينار ، فلما دخلت عليه قال لها : كيف رأيتِ تركتك حتى اشتريتك من سبعة آلاف دينار إلى سبعمائة ؟ قالت : أجل ، إذا كان الخليفة ينتظر لشهواته المواريث فان سبعين دينارا فى ثمنى لكثيرة فضلا عن سبعمائة دينار . فأطرق المعتصم رأسه خجلا من كلامها ، و ندم على كلامه ذلك لها لما سمع من جوابها المسكت المفحم .

و رأى بعضهم جارية حسناء على خدها [١٤١ : ب] خُال أسود ؛ فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : مكة . قال : الله أكبر قد قرب الله الطريق ، دعينى أقبّل الحجر الأسود – يعنى به الخال الذى على خدها . فقالت : هيهات ! لن تنالوه إلا بشق الأنفس . فسكت و لم يرد جوابا . قال الشاعر فى معنى قولها[١] :

زكاة رؤوس الناس فى يوم[٢] فطرهم بقول رسول الله صاع من البُر
و رأسك أغلى منهمُ فتصدّقى بفيك علينا فهو صاع من الدر

و منها فى الباغى و مصرعه و سوء عاقبته كما[٣] رثا أبو بكر بن العلاف[٤]

(١) هنا يستأنف ناسخ بن الكلام [٩٤ : الف] .
(٢) فى بن : عيد .
(٣) فى بن : ما .
(٤) أبو بكر الحسن بن على بن احمد بن بشار بن زياد المعروف بابن العلاف =

الشاعر هرًّا[1] له لما بغى على أبراج الحمام التى لجيرانه و أكلها بترداده إليها ، فقتلوه أهلها لأذيته ، فرثاه و ورى به عن الظلمة و سوء عاقبتهم ، فقال :

يا هــــرّ فارقتنا و لم تعــــد و كنتِ عندى بمنزل[2] الولد
فـكيف ننفكّ عن هواك و قد كنت لـنـا عـدة من العدد
تطرد عنا الأذى و تحرسنـا بالغيب من حية و من جُرَد
و تخرج الفأر من مكامنهـا[3] ما بين مفتوحهـا إلى السدد
يلقاك فى البيت منهم عـدد و أنت تلقـاهم بلا مــدد[4]
لا عـدد كان منك منفلتـا منهم و لا واحد[5] من العدد
حتى اعتقدت الأذى بجيرتنا و لم تـكن للأذى بمعتقــد

= الضرير النهروانى (انظر ابن خلكان ج ١ ص ١٩٣) توفى سنة ٣١٨ أو ٣١٩ هـ / ٩٣٠ - ٩٣١ م و عمره مائة عام . و يقال إنه أنشد تلك القصيدة أصلا فى رثاء عبد الله بن المعتز ، و لكنه خشى من الإمام المقتدر الذى قتله ، فنسب القصيدة إلى الهر . و قيل أيضا إنه قصد بها المحسن بن الفرات ولد الوزير أبى الحسن على بن محمد بن الفرات أيام محنته .

(١) فى بن : هرة . و بالعبارة اختلاف لفظى حيث يقول ناسخ بن : هرة المقتول بسبب أكله حمام الأبراج التى لجيرانه فقتلوه (كذا) لإيذائه لها .

(٢) فى بن : بمنزلة .

(٣) فى بن : مكانها .

(٤) هذا البيت ساقط من بن .

(٥) فى بن : واحدا .

و حمت حول الحمى تظلمهم[1] … و من يحم حول حوضه يرد
و كان قلبي عليك [2]مرتعدا … و أنت تنساب[2] غير مرتعد
تدخل برج[3] الحمام متئدا … و تبلع الفرخ[4] بلع مزدرد
[5]أطعمك الغي لحمها فرأى[5] … قتلك أربابها من الرشد
كادوك دهرا فما وقعت و كم … أفلت من كيدهم و لم تكد
صادوك غيظا عليك و انتقموا … منك و زادوا [و[6]] من يصد يصد
ثم شفوا بالحديد أنفسهم … منك و لم يفكروا على أحد
فلم تزل للحمام مرتصدا … حتى سقوك الحمام بالرصد
لم يرحموا صوتك الضعيف كما … لم ترث منها لصوتها الغرد
فما سمعنا بمثل موتك إذ … مت و لا مثل عيشك النكد
عشت حريصا يقوده طمع … و مت ذا قاتل بلا قود

[١٤٢ : الف] سمى القود قودا لأن العرب كانت تقود[7] القاتل بحبل فى عنقه إلى باب المقتول، فأولياؤه مخيرون بين العفو و القصاص و الدية - انتهى.

---

(١) كذا فى الأصول، و من الجائز أن صحة اللفظ «بظلمهم».
(٢-٢) بهذا البيت فى «بن» خبل ظاهر حيث يقول: «مرتبة أو أنت حساب».
(٣) كذلك فى بن، و هى فى الأصل: بروج.
(٤) زيد فى الأصل: ومنهم. و الصواب بغيرها فى «بن».
(٥-٥) فى بن: أطعمك النجى لحملها فرأوا.
(٦) فى الأصول بدون واو العطف، و بها يستقيم المعنى و الوزن.
(٧) فى بن: تقودهم.

نعود إلى ذكر بقية المرثية :

يا من لذيذ الفراخ أوقعه — ويحك هل لا قنعت بالغُدد

ألم تخف وثبة الزمان كما — وثبت فى البرج وثبة الأسد

لا بارك الله فى الطعام إذا — كان هلاك النفوس فى المعَد

كم دخلت لقمة حشا شره[1] — فأخرجت روحه[2] من الجسد

ما كان أغناك عن تسورك البرج — ولو كان جنة الخلد

قد كنت فى نعمة وفى دعة — من العزيز المهيمن الصمد

تأكل من [3]فأر بيتنا[3] رغدا — وأين للشاكرين للرغد

وكنت بددت شملها زمنا — فاجتمعوا بعد ذلك البدد

فلم يبقوا لنا على سبد — فى جوف أبياتنا ولا لبد

[4] وفرّغوا قعرها وما تركوا — ما علّقته يد على وتد[4]

وفتّتوا الخبز فى السلال فكم — تفتت[5] للعيال من كبد[6]

---

(١) فى بن : أخا سرة .

(٢) فى بن : زوجه .

(٣-٣) فى بن : فيراننا .

(٤-٤) جائز أن يكون هذا البيت واردا فى الأصل بعد الذى يليه و هو كذلك فى بن .

(٥) من بن ، و فى الأصل : تفتتت .

(٦) جائز أن يكون هذا البيت قبل الذى سبقه فى الأصل لتوارد المعانى . و هو كذلك فى بن .

و قرّضوا من ثيابنا جـددا   فكلنا فى المصائب الجـدد

و سأذكر ما قاله الفقهاء فى أبراج الحمام[1] إن شاء الله تعالى. قالوا: إذا أراد الجار إحداث برج للحمام بقرب برج لجاره و فيه حمام فالأصل جوازه، فان دخل حمام من البرج الثانى إلى البرج الأول لا يمكنه رده فهو كصيد ندّ، فان أمكنه ردّه إلى صاحبه ردّه. و إن إيواء الحمام إلى البرج الأول لا يوجب ملكه له، إذ[2] لم يزل على حال التوحش، إنما ندّ قبل وضع اليد عليه، فان عجز عن رده يوجب إلحاقه بالمتوحش، إذا ندّ من صاحبه و عجز عن أخذه فهو للثانى على المشهور، و قيل إن أفراخه تدفع للأول، و لا يزول ملكه عنه بالعجز عن رده إليه - انتهى[3].

(١) فى هامش الأصل: قول الفقهاء فى أبراج الحمام. و فى الأصل و بن «قالت» بدلا من «قاله» و فى بن «العلماء» بدلا من «الفقهاء».

(٢) فى بن: اذا.

(٣) زيد هنا فى بن [٩٤: الف - ٩٥: الف] فصل طويل عن الظلم و الظالمين و عاقبتهم و هو من نوع الوعظ البحت كما أنه مملوء بالفجوات و الأخطاء و النساخة التى تجعل القول صعب الفهم، و لذلك رأينا أن نكتفى فى هذه الحاشية بانتقاء الأحاديث المقتبسة التى تعزى إلى شخصيات تاريخية أو أدب رفيع أو مقبول، من ذلك ما يلى:

قال بعضهم: مررت على قبر قريب العهد بالبناء مكتوب عليه «هـذا قبر مفتون الدنيا، باع الباقى بالفانى، و أرضى السلطان، و أسخط الرحمن، و حصل بعد ذلك على الخسران، فلا الدنيا و لا العقبى». قال بعضهم:

يا غاديا فى غيّه و رائحا   إلى متى تستحسن القبائحا =

و كم

=وكم إلى كم لا تخاف موقفا   يستنطق الله به الجوارحا
وكيف ترضى أن تكون خاسرا   يوم يكون من سواك رابحا
كيف يكون حين تقرا فى غد   صحيفة قد حوت الفضائحا

ثم انتقل إلى موضوع النكاح و شرعيته فى أمور الدين فقال مما قال عن الأنبياء و بينهم يحيى فقد قال بعضهم: إنه كان هيوبا و لا ذكر له ، بل قد أنكر ذلك حذّاق المفسرين و نقّاد العلماء و قالوا: هذه نقيصة و عيب فلا يليق بالأنبياء عليهم السلام، و إنما معناه أنه معصوم من الذنوب لا يأتيها ، فكأنه حصر عنها و قيل مانعا نفسه من الشهوات ، و قيل : ليس له شهوة فى النساء؛ فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، و إنما الفضل فى كونها موجودة ثم قمعها إما بمجاهدة كعيسى عليه السلام أو بكفاية من الله تعالى كيحيى عليه السلام ، فضيلة زائدة لكونها مشغلة فى كثير من الأوقات حاطة إلى الدنيا ، ثم هى فى حق من أقدر عليها و ملكها و لم تشغله عن ربه درجة عليا و هى درجة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم الذي لم تشغل كثرتهن عن عبادة ربه بل زاده ذلك عبادة لتحصينهن و قيامه بحقوقهن و اكتسابه لهن و هدايته إياهن بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو و إن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال: حبب إلىّ من دنياكم ثلاث : الطيب و النساء و قرة عينى فى الصلاة .... إن النكاح متفق عليه شرعا و عادة فانه دليل الكمال و صحة الذكورة ، و لم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة و التمادح به سيرة ماضية ، و أما فى الشرع فبينة مأثورة ، و قد قال ابن عباس : أفضل هذه الأمة أكثرها نساء ، و قال صلى الله عليه و سلم : من كان ذا طول فليتزوج فانه أغض للبصر و أحصن للفرج ، حتى لم تره العلماء مما يقدح فى الزهد . قال سهل ابن عبد الله: قد حُببن إلى سيد المرسلين فكيف نزهد فيهن ؟ و قد كان زُهاد الصحابة كثيرى الزوجات ...... عن أنس أنه صلى الله عليه و سلم كان يدور على نسائه فى الساعة من الليل و النهار و هن إحدى عشر امرأة ، و قال أنس : وكنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين رجلا ... و عن ابى رافع عن طاوس : =

و منها ما قيل فى سرعة الفهم و قوة الحفظ و الشعر و الشعراء . سُئل بعض الأذكياء عن حفظه للشيء فى سَمعتين أو ثلاث، فقال : هذا ممتنع بل من سمعة واحدة ، و لذلك سمى «حماد الراوية» بالراوية لسرعة حفظه[1] . قال حماد المذكور : صليت الجمعة فى الرصافة و إذا بشرطيين وقفا علىّ و قالا : يا حماد ! أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفى . و كان [١٤٢ : ب] واليا على العراق ، فسرت إليه و سلّمت عليه ، فردّ علىّ السلام و رمى إلىّ كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر . أما بعد ، إذا وقفت على كتابى هذا فابعث إلىّ حماد الراوية من غير ترويع ، و ادفع إليه خمسمائة دينار و جملا مهريا يسير به إلى دمشق » . قال : فأخذت الدنانير و نظرت

= أعطى عليه السلام قوة أربعين رجلا فى الجماع ، وقالت سلمى مولاته : طاف النبي صلى الله عليه وسلم على نسائه التسع و تطهر من كل واحدة قبل أن يأتى الأخرى ، و قال : أطهر وأطيب . و قال سليمان عليه السلام : لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع و تسعين ، و إنه فعل ذلك . قال ابن عباس : كان فى ظهر سليمان ماء مائة رجل . و حكى النقاش أن كان لسليمان عليه السلام تسعمائة امرأة و ثلاثمائة سرية . و فى حديث عائشة : فضلت على النساء بأربع : بالسخاء و كثر (ة) الجماع و قوة البطش و كانت عين المصطفى صلى الله عليه و سلم ، قيل : « لا تمدن عينيك » تزايد فى بصر بصيرة ، اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا .

و منها فى سرعة الفهم و قوة الحفظ ـ الخ .

(١) زيد فى بن : و قوة فهمه كما .

فاذا جمل مرحول ، فركبته و سرت حتى وافيت دمشق ، فنزلت على باب هشام ، و استأذنت فأذن لى ، فدخلت عليه فاذا هو فى دار نوراء مفروشة بالرخام ، و بين كل رخامتين قضيب من ذهب ، و هشام جالس على طنفسة حمراء من الخز ، و قد تضمّخ بالمسك و العنبر ، فسلّمت عليه فردّ علىّ السلام و استدنانى ، فدنوت منه حتى قبّلت رجله ، فاذا جاريتان لم أر مثلهما قط ، فى أذن كل جارية حلقتان من ذهب فيهما لؤلؤتان تتّقدان ، فقال لى : كيف أنت يا حماد و كيف حالك ؟ قلت : بخير . فقال : أ تدرى فيمَ بعثت إليك ؟ قلت : لا . قال : بعثت بسبب بيت خطر ببالى لا أعرف قائله . قلت : ما هو ؟ قال :

و دعوا بالصبوح يوما فجاءت قينـة فى يمينها إبريـق

قلت : يقوله عدى بن أرطاة ، و أنشدته القصيدة إلى قوله :

و دعوا بالصباح[1] يوما فجاءت قينة[2] فى يمينها إبريـق
قدمته عـلى عقـار كعين الـديك صفّى سلافها الراووق
مرة قبـل مزجها فاذا ما مزجت لذّ طعمها من يذوق
و طفـا فوقها فقاقيع كاليـا قوت حمر يزينها التصفيق
ثم كان المزاج ماء سحـاب لا صرىّ أجن و لا مطروق

قال : فطرب هشام ثم قال : أحسنت يا حماد ! سل حاجتك ، فقلت : كائنة ما كانت . قال : نعم ، قلت : إحدى الجاريتين . قال : هما جميعا

(١) كذا فى الأصل ، و لعله « الصبوح » كما ورد فى البيت السابق .
(٢) فى بن : فتية ـ كذا .

الك بما عليهما و ما لهما . و أنزله فى داره ، ثم نقله من غد إلى منزل أعدّه له، فوجد فيه الجاريتين و ما لهما و كل ما يحتاج إليه، فأقام عنده مدة . و وصله بمائة ألف درهم و انصرف .

و كان حماد هذا من أعلم الناس بأيام العرب و أخبارها و أشعارها و أنسابها و لغاتها، و كانت ملوك بنى أمية تقدمه و تؤثره و تستزيده، فيفد عليهم و ينال منهم و يسألونه عن أيام العرب و علومها . [١٤٣ : الف] و قال له الوليد بن يزيد الأموى يوما و قد حضر مجلسه: بمَ استحققت هذا، فقيل لك الراوية ؟ قال : بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به . فقال له : فكم تحفظ من الشعر ؟ فقال : كثير و لكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من أشعار الجاهلية دون شعراء الإسلام . قال : سأمتحنك فى هذا و أمره بالإنشاد، فأنشد حتى ضجر الوليد ، ثم وكّل منه من يستوفى عليه ما قاله ، فأنشده جميع ما ذكره ، و أخبر الوليد بذلك، فأمر له بمائة ألف درهم[١] .

و سيأتى خبر بديع الزمان صاحب المقامات و سرعة فهمه و حفظه

---

(١) زيد فى بن [٩٥ : ب - ٩٦ : الف] قال الأصمعى : كان أبو السائب يوما عند الحسن بن زياد فأنشد الحسن :

و ا . . . . ى   لنا فيه ناس للحيا و رموق
صرفت سوام الملك عنك وماله   إلى أحد إلا إليك طريق =

إن شاء الله تعالى . واعلم أن الشعر سلك ينتظم فيه درر[١] الصفات ، ويتجلى فى مرآته محاسن الهيئات ، ويهزّ الطباع الزكية للمعانى العلية ، ويشجع جبان الفهوم ، ويهيئ الطبع الإنسانى لقبول ما اندرج فى الوزن المنظوم . والمهلهل[٢] بن الربيعة أخو كليب بن ربيعة هو أول من هلهل

= فقال أبو السائب : بأبى انت وأمى ! ما سمعت هذين البيتين قط ، ثم لم يزل يرددهما حتى حفظها ، فلما انصرف أمر الحسن فاسرجت له دابته فركبها إلى منزله ، فما راع الحسن بعد هدء من الليل إلا وبابه يدق ، فاذا أبو السائب قد جاء ماشيا يدق ويصيح : يا حسن ! يا حسن ! فقال الحسن : هذا أبو السائب ، والله قد أنسى البيتين أو أحدهما ! فناداه : ما حاجتك ؟ فقال : أخبرنى ما حاجتك ؟ فقال : أخبرنى بالبيت الأخير فقد أنسيته . فقال : أعتق ما أملك إن أخبرتك به حتى تصبح ، فلما أصبح أخبره بالبيت الثانى ، فأخذه وانصرف . قال : ومر السائب ذات يوم بغلام من آل أبى لهب يردد بيتا من شعر فاستمع له ، ففطن له الغلام فأمسك ، فقال له : فديتك ! أعد علىّ هذا البيت . فقال : قد ذهب عنى . قال : فانى لا أفارقك أبدا حتى تذكره ، فأخذه واتبع الغلام حتى عرف منزله ، فمضى أبو السائب فجاء بفراشه ودثاره فبسط بباب الغلام واستلقى عليه ألح الغلام فلم يخبره ثلاثة أيام وهو بمكانه حتى سأله فيه أقاربه وجيرانه ، وجعل الناس يجيؤن أفواجا ينظرون إلى السائب ويعجبون منه ، حتى إذا كان بعد ثلاثة أيام أخبره الغلام بالبيت ، فجعل يردده حتى حفظه ثم انصرف . اعلم أن الشعر سلك – الخ .

(١) فى هامش الأصل : قف على هذا السياق ، وما حواه مما صفا وراق ، وهاج الأشواق .

(٢) فى هامش الأصل بخط ناسخ آخر : المهلهل اسمه ربيعة أو عدى ، لقب به =

الشعر و رقّقه ، و أول من قصّد القصائد ، و فيه يقول الفرزدق الشاعر :

و مهلهل الشعراء ذاك الأول

و لما قتل جسّاس بن مرّة كليبا ، فاستعد المهلهل لحرب بنى تغلب ، و ترك النساء و الغزل ، و حرّم على نفسه القمار و الخمر ، و قصد أخذ ثأر أخيه كليب[1] ، فدام الحرب بين بنى تغلب و بكر أربعين سنة . و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب سبب قتل جسّاس بن مرّة لابن عمه كليب[1] ـ إن شاء الله تعالى . ثم إن مهلهل بن ربيعة اشترى عبدين يغزوان معه ، فغزا بهما حتى طال عليهما ، و أحبا الراحة منه فأجمعا على قتله بموضع قفر ، فلما علم بما همّا به من قتله و لم ير لنفسه منجى ؛ قال لهما : إذ قد عوّلتما على قتلى فأبلغا عنى هذه الرسالة ، فقالا له : هات رسالتك . و أنشدهما :

من مُبلّغ عنّى بأنّ مهلهلا لله درّكما و درّ أبيكما[2]

فلمّا قتلاه و انصرفا نحو ابنتيه قالتا[3] لهما : ما فعل سيدكما ؟ قالا : مات بأرض سمّياها ، فقالتا[3] لهما : فما أوصى بشيء ؟ قالا : أوصانا بكيت و كيت .

ـــــــــــــــ

= لأنه أول من هلهل الشعر كما ذكره هذا المؤلف ، أى أنه أول من أرّقه و قيل بقوله :

لما توغل فى الكراع هجينه هلهلت أثأر مالكا أو منبلا

(١) فى الأصل و بن : كليبا .

(٢) فى الأصل : أباكما . و صحته فى بن .

(٣) فى الأصل : فقالا . و صحته فى بن .

و أنشدا البيت ، فقالا : ما هذا بشعر [مهلهل - [1]] ، و الله ما كان أبانا ردىء الشعر و لا سفساف الكلام ، و إنما أراد أن يخبر قومه أن العبدين قتلاه . و إنما معنى هذا البيت الذى ذكره لهما :

من مبلغ عنّى بأنّ مهلهلا   أضحى قتيلا بالفلاة مجندلا [2]

لله دركما و در أبيـكما [3]   لا يبرح العبدان حتى يقتلا

[١٤٣ : ب] فقتل [4] العبدان بعد أن أقرّا بقتلهما له [5] - انتهى .

نعود ، قال أبو على بن رشيق لبعض الحذّاق بصناعة الشعر : لقد

(١) « مهلهل » ساقطة من بر و واردة فى بن .

(٢) فى الأصل : مجدلا . و الصواب فى بن .

(٣) فى الأصل : أباكما ، صحته فى بن .

(٤) من بن ، و فى الأصل : فقتلا .

(٥) زيد فى بن [٩٦ : الف - ب] : لقى مالك بن عبد الله الخزاعى أبا وائل فقال له : يا أبا وائل ! بلغنى أنك تسرق شعر الناس . فقال : أعوذ بالله ! ما فعلت هذا قط . فقال : قل أبياتا تذكر فيها الكواكب و العنقاء و الريح و قد أجلتك يوما و ليلة . قال : فانى أعجالها (كذا) لك الـ . . . . .

عرضت عليها ما تمنّتْ من المنى   لترضى فقالت قم فجئنا بكوكب

(و فى بن : تمنته - مكان : تمنت)

فقلـت لهـا مـاذا التعنت كلـه   كمن يتمنى لحم عنقـاء مغرب

و والله إن لو كنت فى عز مالك   و فى جوده أعيا على الناس مطلبى

فتى سقيت أموالـه بسماحـة   كما سقيت قيس بأرماح تغلب

قال أبو على بن رشيق - الخ .

طار اسمك بالشعر و انتشر ، قال : إنما ذلك لأنى طبقت المفاصل[١] ، و أصبت المقاتل ، و قرطست نكت الأعراض بتحسين الأواخر و الأوائل ، فان حسن الافتتاح ، داعية الانشراح ، و مطية النجاح ، و خاتمة الكلام هى آخر ما يعلق بسمع السامع ، و الأعمال بخواتيمها . و بالجملة[٢] فالشعر قفل ، و أوله مفتاحه ، و لذلك[٣] عُدّ من أحسن الابتداءات قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرىٰ حبيب و منزل

فانه وقف و استوقف ، و بكى و استبكى ، و ذكر الحبيب و المنزل فى نصف بيت . و قول أبى الطيب المتنبى :

أ ريقك أم ماء الغمام أم الخمر[٤]

و قوله :

أتراها لكثرة العشّاق تحسب الدمع خلقة فى المآق

و ينبغى أن يتجنب الشاعر فى المديح ما يتطير به و غير ذلك من الألفاظ المشتركة ، فقد حُكى عن [٥]ذى الرمة الشاعر [أنه] دخل[٥] على

(١) فى بن : المقاصل .

(٢) فى بن : هو بالجملة .

(٣) فى بن : و كذلك .

(٤) فى الأصل : خمر . و صححته فى بن .

(٥-٥) فى بن : أن ذا الرمة الشاعر دخل . و لفظة «أنه» ساقطة من بر و يستقيم الكلام بذكرها .

أمير

أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فاستنشده شيئا من الشعر[1]، فأنشده

ما بال عينيك منها الدمع ينسكب

وكان بعين عبد الملك بن مروان ريشة، فكانت تدمع أبدا، فتوهم أنه خاطبه أو عرّض به، فقال: وما سؤالك عن هذا يا جاهل؟ وأمر باخراجه. وكذلك فعل هشام بأبي النجم حين استنشده من أرجوزة له:

والشمس قد كادت ولما تفعل ... كأنها في الأفق عين الأحول

وكان هشام أحول[2]، فأمر به فحجب عنه زمانا. [3]وحكى أن المعتصم بنى قصرا بالميدان وجلس فيه، فأنشده الموصلي:

يا دار غيّرك البلا ومحاكى ... يا ليت شعري ما الذي أبكاكى

فتطير المعتصم وأمر بهدم القصر فهدم.

وحكى أن أبا مقاتل الضرير دخل على الحسن بن زيد[4] الداعي العلوي يوما وقد صنع مهرجانا فأنشده:

لا تقل بشرى وقل لى بشريان ... غرّة الداعي ويوم المهرجان

فتطيّر به وقال: أعمى يبتدئ بهذا المهرجان ويقول «لا تقل بشرى» فهذه بداية غير مرضية. فبطحه[5] وضربه خمسين عصا وقال: إصلاح

(١) في بن: شعره.

(٢) في الأصل وبن: أحولا.

(٣) العبارة من هنا إلى «فهدم» سقطت من بن.

(٤) في بن: زياد.

(٥) في بن: فطرحه.

أدبه أبلغ من[١] ثوابه .

و ذكر الصولى فى ترجمة الحسن الداعى أنـه الحسن بن زيد بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ولى نقابة [١٤٤ : الف] للطالبيين و العباسيين ، و سمى بنقيب النقباء ، و قصدت أهل بغداد مبايعته بالخلافة ، فتكلم الصاحب إسماعيل بن عباد وزير أبى الحسن بن بويه الديلمى فى أمره و قال[٢] له : إن الديالم تطيعه ، فلو أمرهم بقتلك قتلوك . فخاف ابن بويه [٣]منه وكان[٣] ملكا و الشرق تحت طاعته ، و لم يكن للخليفة المطيع لله سوى الخطبة و اسم الخلافـة ، و كان المطيع مقيما بمدينة سُرّ من رأى ، فحبس السلطان أبو الحسن بن بويه الحسن[٤] الداعى ابن زيد[٥] المذكور ببغداد ، و تحيل الحسن الداعى[٦] أن هرب إلى الديلم ، فدعا لنفسه بالخلافة ، فأطاعته[٧] الديالم و الجبال ، و استقرت مملكته بها

(١) من بن ، و فى الأصل : فى .

(٢) فى هامش الأصل ملاحظة بخط آخر يقول فيهـا كاتبها : فى هذه الحكاية نظر يعلم من كتب التاريخ .

(٣-٣) الكلمتان ساقطتان من الأصل ، و تكتمل الجملة بذكرهما ، وهما واردتان فى بن .

(٤) سقط من بن .

(٥) فى الأصل : يزيد . و قد وردت الكلمة « زيد » فيما بعد .

(٦) زيد فى بن : الى .

(٧) فى بن : فأطاعه .

عشرين سنة . وسيأتي فيما يرد من هذا الكتاب [ذكر -[1]] بويه و بنيه الحطابين كيف صاروا[2] بعد بيعهم الحطب[3] سلاطين إن شاء الله تعالى .

وكان الحسن بن زيد الداعي ملك الديالم ضخما سمينا لم يحمله البغل الشديد غير فرسخ واحد و يعيي منه . و ذكر أنه كان يشق بطنه و يستخرج منه الشحم[4]، ثم يخيطه تخفيفا لبدنه[5]. و ذكر أنه عطس عطسة، فسمع عطسته مؤذّن يؤذن على مئذنة الجامع، فارتجف المؤذن منها لقوتها، فسقط من أعلى المئذنة إلى أسفلها فمات . و أما والده زيد بن زين العابدين فكان إمام الزيدية، و حكايته مشهورة مع يوسف بن عمر الثقفي عامل أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك على العراقين . و ذلك أن زيدا دعا لنفسه بالخلافة، فحاربه يوسف بن عمر فأصاب زيدا سهم[6]، فأتى بحجام من ضيعة استخرج منه السهم فمات من وقته، [7]و دفن[7] و أجرى على قبره الماء[8]، و استكتموا الحجام أمره، فمضى الحجام و دل يوسف بن عمر عليه[9]، فاستخرجه

(١) الكلمة ساقطة من الأصل، و تكتمل الجملة بذكرها . وفي بن : خير .

(٢) زيد في بن : ملوكا .

(٣) زيد في بن : الذي يحتطبونه و يبيعونه .

(٤) في بن : الدهن .

(٥) في بن : لبطنه .

(٦) في الأصل و بن : سهما .

(٧-٧) ساقطة من بن .

(٨) زيد في بن : من ساقية كانت هناك .

(٩) ساقطة من بن .

و صلبه عريانا ، و أنشأ يقول :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم أر مهديّا على الجذع يُصلب

فأقام[1] مصلوبا عريانا لم تر له عورة سترا من الله تعالى[2] – انتهى .

نعود ، و الدليل على عظم قدر الشعر عند العرب و جليل خَطْبه فى قلوبهم أنه لما بُعث النبى صلى الله عليه و سلم بالقرآن المعجز نظمه ، المحكم تأليفه ، أعجب قريشا ما سمعوا منه ، قالوا : ما هذا إلا سحر ! فقالوا فى النبى صلى الله عليه و سلم « شاعر نتربص به ريب المنون ﴿٣﴾ » . و كذلك قال النبى صلى الله عليه و سلم : إن من الشعر لحكمة[4] . و قال كعب الأحبار : إنا لنجد قوما[5] فى التوراة أناجيلهم فى صدورهم تنطق بها ألسنتهم و أظنهم الشعراء . و قال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان [١٤٤ : ب] لمؤدب ولده : روّهم الشعر [6]يمجدون و ينجدون[6] . و قالت عائشة رضى الله عنها : روّوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم . و لو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه من أعظم جند تجنّده رسول الله صلى الله عليه و سلم على المشركين [لكفى[7]] . يدل على ذلك قوله لحسان بن ثابت الأنصارى :

---

(١) زيد فى بن : سنة .

(٢) زيد فى بن : له . نعود الى ما قيل فى الشعر .

(٣) سورة ٥٢ آية ٣٠ .

(٤) من بن ، و فى الأصل : لحكما .

(٥) ساقطة من بن .

(٦–٦) فى الأصل و بن : يمجدوا و ينجدوا .

(٧) الكلمة ساقطة من الأصل و من بن أيضا و هى تكمل الحديث .

فو الله

فو الله لشعرك عليهم أشد من وقع النبل فى غَلَس الظلام . و قال ابن سيرين : بلغنى أن دوسا إنما أسلموا فرقا من قول كعب بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم :

قضينا من تهامة كل نحب   و خيبر ثم أغمدنا السيوفا
نخيّرها و لو نطقت لقالت   قواضبهن دوسا أو ثقيفا

قال ابن إسحاق : لما نزل رسول الله صلى الله عليـــه و سلم وادى الصفراء أمر على بن أبى طالب فضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة ابن عبد مناف جد النبى صلى الله عليه و سلم صبرا بين يدى النبى صلى الله عليه و سلم . قالت أخته قبيلة بنت الحارث ترثيه ، فمن ذلك قولها :

أ محمد و لأنت صنو كريمـة   فى قومها و الفحل فحـل معرق
ما كان ضرك لو مننت و ربما   منّ الفتى و هو المغيظ المحنق
فالنضر[١] أقرب من أخذت بزلة   و أحقهم إن كان عتق يعتق
ظلّت سيوف بنى أبيه تنوشه   لله أرحـام هنـاك تشقق
صبرا يقـاد إلى المنية متعبا   رسف المقيّد و هو عان موثق

قال النبى صلى الله عليـــه و سلم لما بلغه هذا الشعر : لو بلغنى قبل قتله ما قتلته [أراد –[٢]] قول قبيلة فى مرثيتها « لله أرحام هناك تشقق » .

(١) فى بن : فالنظر – كذا .
(٢) ساقطة من بر و وواردة فى بن .

الأرحام[1] جمع رحم مأخوذ من الانعطاف و الحنو . يقول الله تعالى : أنا الرحمن و هي الرحم ، اشتققت لها اسما من أسمائي ، فمن وصلها وصلته ، و من قطعها قطعته . و الرحم عبارة عن موضع وقوع نطفة الذكر في فرج المرأة . و قيل الرحم عبارة عن جليدة مستديرة في البطن ، و هي متعلقة بعرق و فمها إلى أسفل ، و هي منقبضة لا تنفتح إلا عند شهوة الجماع ، فاذا حصلت فيها نطفة الذكر انقبضت ، و يتكوّن منها الولد إن أراد الله بتكوينه ، و يتغذى من العرق المتعلق به الرحم ، و يتنفس بنفس أمه . و الولد لا يبول و لا يغوط ما دام في البطن ، فاذا وُلد و قُطعت سُرّته و رجع النفس إلى موضعه صار[2] يتنفس من أنفه . و من رفق الله به أن جعل له[3] لبن [١٤٥ : الف] أمه حارا في الشتاء و باردا في الصيف ، و جعله بين الملوحة و العذوبة ، و من رفق الله تعالى بالمولود[4] أن جعل له في أحد[5] الثديين طعاما و الآخر شرابا يخرج له من منافذ ضيقة ، و لو جعل مخرج اللبن واسعا لأدى ذلك إلى أن يأخذ أكثر من الحاجة فيختنق و يغتصّ به ، و من رفق الله تعالى

(١) ساقطة من بر و واردة في بن . زيد في بن : فلنذكر الآن ما قيل في الأرحام .

(٢) في الأصل و بن : فصار . و الفاء زائدة .

(٣) ساقطة من بن .

(٤) في بن : على المولود .

(٥) في بن : إحدى ، و الثدي يذكر و يؤنث .

أن جعل ثدى أمه معلقة لكى يسهل عليه مناولتهما - انتهى .

نعود ، قال معاوية بن أبى سفيان لعبد الرحمن بن الحكم : يا ابن أخى! إنك قد شُهرت بالشعر ، فاياك و التشبيب بالنساء ! فانك تعير الشريفة فى قومها ، و العفيفة فى نفسها ! و إياك و الهجاء ! فانك لا تعدو[1] أن تعادى به كريما ، أو تستثير به لئيما ، و لكن افخر بمناقب قومك ؛ و قل فى الأمثال ما تزين به نفسك ، و تؤدب به غيرك[2] ؛ و الحذر الحذر من معاداة الشعراء ! فعداوتهم غير محمودة . و قال المتنبى :

و عداوة الشعراء بئس المقتنى

حكى أن رجلا كان بمدينة فاس من أرض المغرب يعرف بالسكاك ، وكان وكيلا لأم العُلى أخت السلطان ، و كان فى السكاك كِبْر و عظمة ، فأتاه بعض الشعراء بقصيدة مدحه بها لينال بره ، فانتهره السكاك و طرده ، فانكسر خاطر الشاعر ، و سهى[3] عن البيتين المشهورين و هما :

عليك بتبجيل و إكرام ستة ... من الناس و احذر شرهم و توقّه

طبيبا وكحالا و شيخا و شاعرا ... و من كان ذا[4] حكم و من يتفقه

فمضى الشاعر و اصطحب لخولى [بستان -[5]] السلطان ، و جعل يترقب

(١) فى الأصل و بن : تعدوا .

(٢) زيد فى بن : فالشعراء يورثون الأعقاب بهجائهم عارا باقيا على ممر السنين و الأعقاب .

(٣) زيد فى بن : السكاك .

(٤) ساقطة من بن .

(٥) ساقطة من الأصل و واردة فى بن .

متى يأتى السلطان يتنزه فيه ، فلما حضر السلطان كتب الشاعر بيتين فى ورقة و دمجها و جعلها فى قصبة و سدها بالشمع و أطلقها فى مجرى الماء الذى يصب فى الفسقية التى يجلس عليها السلطان للتنزه ، فبينما السلطان ينظر إلى جرى الماء إليها إذ دخلت تلك القصبة ، فأمر جواريه أن يأتوه بها فوجدها[1] مشمعة المنافذ ففكّ الشمع منها[2] ، و نظر فاذا داخلها [ورقة ـ ٣] ، [4]فأخرج الورقة[4] و فتحها ، فاذا فيها بيتان[5] من الشعر و هما :

أم العُلى على جلالة قدرها يمسى و يصبح عندها[6] السكاك
و لقد يقال بأنه ذو بهجة و لقد يقال بأنه . . . . .[7] .

و سكت الشاعر عن كتابة بقية البيت لأنه مفهوم و لأن فى ذكر بقيته قبح لبنت سلطان و أخت سلطان و مواجهة سلطان [8]بهُجر الكلام[8] ، ففهم

---

(١) فى الأصل : وجدها ـ بدون حرف العطف و هو لازم .

(٢) العبارة من « فوجدها » إلى هنا ساقطة من بن .

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل و واردة فى الجملة التالية و هى واردة بمكانها فى بن .

(٤ – ٤) فى بن : فخذها .

(٥) فى الأصل و بن : بيتين .

(٦) فى الأصل : عند . و إضافة الضمير ضرورة لاكتمال المعنى و انتظام وزن الشعر ، و هو واردة كذلك فى بن .

(٧) كذا فى الأصل و بن ، واللفظة المحذوفة طبعا على قافية الكاف وقبحها واضح و هى فى نفس الوزن .

(٨–٨) فى بن : بقبيح كلام .

السلطان بقية البيت و طلب السكاك فأُحضر، فأمر بأن يركل بالأرجل إلى أن يموت، فرُكل إلى أن [١٤٥ : ب] مات، فجُر برجله و ألقي على مزبلة، فأقام بها ثلاثة أيام إلى أن شفع فيه حتى دفن. فصح كلام المتنبي من قوله:

و عـــداوة الشعراء بئس المقتنى

و كان النعمان بن المنذر ملك العرب يؤاكل نديما له، و كان النديم المذكور يكره بعض الشعراء و يمقته و يهينه، فنظم الشاعر أبياتا، و حضر عند النعمان على جاري عادته فبينما هو جالس بمجلسه إذ قُدّم للنعمان طعامه، فتقدم النديم يأكل معه على جاري عادته، و ليس معهما ثالث، فقال الشاعر مخاطبا للنعمان:

احـــذر أبيت اللعن أن تأكل معه

قال النعمان: لِمَ ذا؟ فقال الشاعر:

إن استه من برص مُبقّعه

قال النعمان: دعه يكون كذلك. فقال الشاعر:

و إنه يدخل فيها إصبعه

فتغير النعمان[1] من ذلك و قال للنديم: لا تعد أبدا تأكل على مائدتي أصلا! فقال النديم: كذب و الله عليّ أيها الملك! و[2] ليس فيّ سوء، دع من يكشفني و ينظر إلي. فقال النعمان:

قد قيل ما قيل إن زورا و إن كذبا فما احتيالك في قول إذا قيلا

---

(١) زيد في بن: له.

(٢) الواو ساقطة من بن.

[1] و ترك مؤاكلته بعد ذلك . فصح كلام المتنبي فى قوله :

و عداوة الشعراء بئس المقتنى[2]

و كان قاض بدمشق فرفعت إليه زوجة محمد بن عُنين الشاعر زوجها ليفرض لها عليه فرض عصمة ، ففرض[3] عليه فرضا ثقيلا ، فاستغاث زوجها من كثرته ، فلم يغثه القاضي و لا خفف عنه منه ، و كان ذلك القاضي نائبا لقاضي القضاة بها[4] ، فكتب بيتين من الشعر و قدمها لقاضي القضاة ، و هما :

أقل[5] لها لو بلغت ما عسى الطبل لا يضرب تحت الكسا
قاضيك إن لم[6] تقضه فاخصه أولا فـــلا يحكم بين النسا

فعزله قاضي القضاة لوقته . فقال القاضي : أعن موجدة يا مولانا قاضي القضاة ؟ فأوقفه على البيتين فقال : إني فرضت على قائلهما[7] فرضا ليس هو عاجزا[8] عنه ، و لقد كذب عليّ فيما قاله . فقال قاضي القضاة :

(١) زيد فى بن : فاشمأزه النعمان - كذا .
(٢) زيد فى بن [٩٨ : الف] : قوله : أبيت اللعن ، أى أبيت شيئا يلتعن به ، و كانت هذه الكلمة تحية ملوك العرب الجاهلية .
(٣) زيد فى بن : لها .
(٤) سقط من بن .
(٥) ربما كانت الكلمة «فقل» بدلا من «أقل» و الشاعر و شعره غير معروفين .
(٦) «لم» ساقطة من بن .
(٧) فى بن : قايلها - كذا .
(٨) فى بن : عاجز .

قد قيل ما قيل إن زورا و إن كذبا   فما احتيالك في قول إذا قيلا

فصح كلام المتنبي في قوله:

و عداوة الشعراء بئس المقتنى

ووقف الحسن بن هانئ بباب أحمد بن أبي داود[1] الوزير، فاستأذن عليه فحجب، فمرّ الحسن و هو يقول:

ما أحمد لأبيه   ولا له[2] من شبيه[2]
لكنه من رجال   فكلهم يدّعيه
هذا يقول بُنيّ[3]   وذا ينازع فيه
والأم تضحك منهم   لعلمها بأبيه [١٤٦ : الف]

فدخل الغلام على أحمد الوزير و قال: سمعت الحسن بن هانئ يقول شيئا. قال: اذكره لي. فذكره له [فقال -[4]]: ائذنوا لأبي علي[5] الحسن، فلما دخل عليه الحسن قال: يا أبا علي! ما حملك على ما قلت؟ قال: قد كان [6]ما كان[6]. قال: فإن اشتريته منك على أن لا تسمعه لأحد بثلاثة آلاف درهم أتفعل؟ قال: نعم. قال أحمد: اللهم اشهد! و دفعها إليه، فصح

(١) من بن، و في الأصل: دواد.

(٢ - ٢) في بن: بشبيه.

(٣) في الأصل: بنيتي. و هو خطأ واضح، والصواب في بن.

(٤) ساقطة من بر و واردة في بن.

(٥) الكلمة ساقطة من بن.

(٦ - ٦) الجملة ساقطة من بن.

كلام المتنبي فى قوله :

و عداوة الشعراء بئس المقتنى

و كان محمد بن عُنين الشاعر المتقدم ذكره هجّاء صنف كتابا سماه مقراض الأعراض ، قلّ ما سلمت منه الدماشقة . و مما هجا به السلطان صلاح الدين الناصر و الوزير و الخطيب و المحتسب و غيرهم قوله فيهم :

سلطاننا أعرج[1] وكاتبه[2] ذو عمش و الوزير منحدب
و الدولعى الخطيب منعلف[3] و هو على قشر بيضة يثب
و لابن تاتا وعظ يغُرّ به الناس و عبد اللطيف محتسب
وصاحب الأمر خلقه شرس[4] و عارض الجيش داؤه عجب

و من هجوه فى الملك العادل سيف الدين :

هو سيف[5] كما يقال و لكن قاطع للرسوم و الأرزاق

و كان الأسعد هبة الله بن صاعد نصرانيا فأسلم ، و استوزره المعز وكان مَحْضيّا عنده لا يفعل شيئا إلا بعد مشاورته و مراجعته ، فهجاه بعضهم فقال[6] :

---

(١) فى الأصل : اعوج . ويذكر السيوطى (حسن المحاضرة) ج ٢ ص ٢٧ أن صلاح الدين « كان به عرج فى رجله » والصواب فى بن [٩٨ : الف] .
(٢) فى الأصل : وكليتيه ، و الصواب فى بن .
(٣) كذا ، و لعله : معتلف .
(٤) فى الأصل : شرش ـ بالشين بدل السين فى آخر الكلمة ، و الصواب فى بن .
(٥) زيد فى بن : الدين .
(٦) فى هامش الأصل : مطلب بيتين هجو لا بأس بحفظهم .

لعن الله صاعدا　　فأباه فصاعدا
و بنيـــه فنازلا　　واحدا[١] واحدا

و قال عبد الله بن حجاج يهجو القاضي أبا[٢] على الحسن التنوخى [٣]فمن ذلك قوله[٣] :

إذا[٤] ذكر القضاة و هم شيوخ　　تخيرت الشباب على الشيوخ
و من لم يرض لم أصفعه إلا　　بحضرة سيدى القاضى التنوخى

ذكروا أن المتلمس الشاعر كان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة هو و طرفة فهجواه ، فكتب لهما إلى عامله بالبحرين كتابين أوهمهما أنه أمر لهما بجوائز ، و فى طى الكتابين [٥]أنه يأمره[٥] بقتلهما . فخرجا حتى مرّا فى بعض الطريق بشيخ و هو يأكل خبزا و يتناول القمل بيده من ثيابه يقتله . فقال المتلمس : ما رأيت شيخا كاليوم أحمق من هذا . فقال له الشيخ : و ما رأيت من حمق ؟ أدخل طيبا و أخرج خبيثا و أقتل عدوا ، أحمق و الله منى من يحمل حتفه فى يده . فاستراب[٦] المتلمس ، و طلع عليهما غلام من أهل الحيرة من كتّاب العرب و كان[٧] الشاعران [١٤٦ : ب]

(١) فى بن : بعده .
(٢) فى بن : ابو - كذا .
(٣-٣) الجملة ساقطة من بر ، و واردة فى بن .
(٤) كذا فى بن ، و فى الأصل : و اذا .
(٥-٥) فى بن : الامر .
(٦) فى الأصل : فاسترات . و الصواب فى بن .
(٧) فى الأصل : كانا : و الصواب فى بن .

لا يقرءان . فقال له المتلمس : [١] أتقرأ يا غلام ؟ فقال له : نعم . ففكّ صحيفته [١] و دفعها إليه ، فاذا فيها : [٢] أما بعد ، فاذا أتاك المتلمس فاقطع يديه و رجليه ، و ادفنه حيا . فقذف [٢] المتلمس صحيفته فى نهر العراق ، و أخذ نحو الشام ، و خفف رحله ، و ألقى زاده ، و بالغ فى التخفيف حتى رمى ما لا يثقل عليه و ما لا غنى له عنه من زاد و نعل ، و قال :

ألقى الصحيفة كى يخفف رحله   و الزاد حتى نعله ألقاها

و مضى يظن بريد [٣] عمرو خلفه   خوفا و فارق أرضه و قلاها

و أما طرفة فقال : أما أنا فلا أفكّ صحيفتى . و ذهب بها ، فلما قرأها العامل و ذكر له خبر المتلمس عفا [٤] عنه لصدقه و قصده إليه - انتهى .

نعود إلى ما قيل فى الشعر ، و لم سُمى قريضا . [٥] قيل : القريض [٥] الشعر و هو فعيل بمعنى مفعول . يقال قرضت الشعر أقرضه قرضا [٦] ، و منه سُمى المقراض لأنه يقرض به أى يقطع . و القريض يخصّ القصيد دون الرجز [٧] . و قال الرّقى :

(١-١) فى بن : اقرأ ما فى هذه الصحيفة ففكها .

(٢-٢) فى بن : تقتل حاملها فرمى .

(٣) فى بن : يزيد بن عمرو .

(٤) فى بن : فعفى .

(٥-٥) العبارة ساقطة من بن .

(٦) فى بن زيد : أى قطعة من الكلام .

(٧) فى بن : رجز .

أرجزا[1] تريد أم قريضا أم هكذا بينهما تعريضا
كلاهما أجيد[2] مستريضا

و قيل: الشعر جزل من كلام العرب يسكن[3] به الغيظ، و تُطفأ به[4] الثائرة، و يتبلغ به القوم فى ناديهم، و يعطى به السائل. و قال الحجاج بن يوسف الثقفى للساور بن هند: ما لك تقول الشعر و قد بلغت من السن ما بلغت؟ فقال: أرعى به الكلأ[4]، و أشرب به الماء، و يُقضى لى به الحاجة، فإن كفيتنى تركته.

و قيل أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها صدر حاجته يستعطف بها قلب الكريم، و يستميل بها قلب اللئيم، كما استعطف أبو الفضل[5] قاسم بن محمد القصار قلب شمس الدين بن أبى عُذيبة ناظر الإسكندرية بأبيات يستمهله[6] فى دين له[7] عليه عند ما طولب به[7]، وكان إذ ذاك به معسرا فكتب له هذه الأبيات[8]:

يا ناظرا[9] فى وجهه نور السعادة يشرق

(١) فى بن: رجز.
(٢) فى الأصل و بن: أجد. و واضح أنه خطأ قلمى.
(٣) فى بن: فيكون.
(٤) ساقطة من بن.
(٥) ساقطة من بر، و واردة فى بن.
(٦) كذا فى بن، وفى الأصل: يستميله.
(٧ - ٧) فى بن: عليه.
(٨) زيد فى بن: وهى.
(٩) فى بن: ناظر

و ثناؤه بين الورى مسك يفوح و يُعبق
و مؤملا[1] فى كفه بحر الندا يتدفّق
يروى الفقير فيغتذى يروى الجميل و ينطق
و بكل ما يرويه من حسن الحديث يُصدّق
يا سيدا من سيد و القول فيه محقّق
[١٤٧ : الف] إنى سمعت بأنك الـ ـشهم الهمام المشفق
المحسن الحسن الفعا ل الفاضل المتصدّق
أطمعنى فى مدحكم وجه جميل مشرق
لم لا و فى أرجائه نور الطلاقة مطلق
ها قد أتيت و مهجتى من حرّ ما بى تحرق
العقل منى طائر و القلب خوفا يخفق
من نبأة أدت إلى سمعى كلاما يقلق
دَين تدانى وزنه لا عذر عنه يعوّق
الفكر فيه واسع و الصدر منه ضيق
لا أبتغى ورقا به غصن التقاضى يورق
لكن[2] أرجو مهلة فعساكمو أن تشفقوا
فالأمر فيه إليكمُ فتعطفوا و ترفقوا

(١) فى بن: مومل .
(٢) كذا فى الأصل ، و المقصود « لكننى » .

حتى

حتى أدبّــر حيــلة من قيد دينى تُطلق[١]

لم أدر ما ذا فى غــد رب الـــبرية يرزق

فالعسر يأتى بـــعده يسر يفيض و يغدق

لا زلت فى عيش الرضى تحيي و أنت مـــوفّق

تعلو على درج الـعُلى و لـكل خـــير تسبق

ما[٢] صوّت الرعـد و ما بَــــرق بدا يتألـــق

و اهـــتز غصن مـائس و شدا عليـــه مطوّق

فلما قرأ الناظر المذكور الأبيات المذكورة رقّ له و سامحـــه بما كان له عنده – انتهى .

نعود ، و دواوين الشعراء[٣] العربية كثيرة جدا ، و قد وقع الاختيار على مجامع من محاسنها ، فمنهـا : نهاية الأدب فى أشعار العرب ، و الحماسة لأبى تمام الطائى ، و كتـاب [٤]المحب و المحبوب[٤] و المشموم و المشروب للسرى الموصلى ، و كتاب نتائج القرائح فى مختار المراثى و المدائح لأبى سعيد ، و كتاب الطرديات لـكشاجم ، و كتاب التمثيل و المحاضرة للثعالبى ، و كتاب التذكرة للأمين المحلى ، و كتاب الذخيرة لابن بسّام ، و كتاب العقد لابن عبـد[٣] ربه ، و كتاب زهر الرياض لابن دِرباس ، و كتـاب

(١) فى الأصل : يطلقوا . و هى كذلك فى بن .

(٢) فى بن : بنا ، و هو خطأ قلمى واضح .

(٣) ساقطة من بن .

(٤ – ٤) فى بن : الحب و المجنون .

الحدائق لابن فرج[١]، وكتاب [١٤٧ : ب] ريحانة الأدب لأبى الحسن[٢] الأندلسى العَبْسى[٣] من ذرية عمار بن ياسر فجعل الريحانة شجرة و فرّعها اثنى عشر فرعا فى كل فرع ثلاثون غصنا فى كل غصن أربع[٤] و عشرون زهرة فى كل زهرة يأتى [٥]بحكاية أو طريفة أو نادرة أو مضحكة أو تاريخ[٥] أو غير ذلك . وكتب التواريخ يُنتفع بها فى الاطلاع على أخبار الملوك و العلماء و الأعيان و حوادث الحدثان فى الزمان . و فى ذلك ترويح للخاطر و عبر لأولى البصائر . و قد ألف الخطيرى كتابا[٦] فى الأحاجى و الألغاز و هى[٧] الكلام المعمّى، و سأذكر منها[٨] لغزين قلّ من يعرفهما، فالأول منها قول بعضهم :

يا فاضلا[٩] قد حل اقليـــدسا لم يُحظ[١٠] فى شكل من أشكاله

(١) زيد فى بن : وكتاب العقد لابن [عبد] ربه، وكتاب نثر الدرر .
(٢) زيد فى بن : ابن سعيد .
(٣) فى بن : العنسى .
(٤) فى الأصل و بن : أربعة ـ كذا .
(٥-٥) كذا فى الأصل و بن، وجائز ان تكون صحة الجملة كما يلى : بحكاية طريفة أو نادرة مضحكة أو تاريخ ـ الخ . وفى الأصل وبن : طريقة ـ مكان : طريفة .
(٦) فى الأصل : كتاب .
(٧) فى بن : هو .
(٨) فى بن : منهما .
(٩) فى الأصل : يا فاضل . و هى مصححة فى بن .
(١٠) فى بن : يحفظ . وهى مصحفة .

اسمع مقالا حارّ ذو اللب فى   إيضاح معناه و إشعاله[1]
فأى شىء عشره نصفه   و نصفه تسعة أمثاله
و ليس يخفى ذاك عن فاضل   يشهد لله بأفعاله

و اللغز الثانى قول بعضهم:

ما بلدة أحرفها عشرة   ثلاثة منها أشر الدواب
و أربع نعت لذى نجدة   مستصحب العز[2] شديد الإهاب
و ذو ثلاث[3] و هو اسم لمن   أنفاسه مذكية الالتهاب
إن كنت ذا فهم غزير[4] الحجى   فسّر لنا اللغز و رُدّ الجواب

و سأذكر [تفسيرهما - [5]] ترويحا لقارئهما . فالأول منهما فى عدد سور القرآن و أحزابه[6]، و ذلك أن عدد سوره مائة و أربع عشرة سورة، نصفها من «الفاتحة» إلى «الحديد» سبع[7] و خمسون سورة، عدد أحزابها أربعة و خمسون حزبا . و من «الحديد» إلى آخر عدد سور القرآن

---

(١) كذا فى الأصل، و لعل الكلمة : و استعماله، و هى فى بن : و اشغاله .
(٢) فى بن : العزم .
(٣) فى الأصل و بن : ثلاثا .
(٤) فى بن : شديد .
(٥) الكلمة ساقطة من الأصل، وهى لازمة لاستكمال المعنى . و فى بن : فلنذكر تفسيرهما .
(٦) فى بن : اجزايه .
(٧) فى الأصل و بن : سبعة .

سبع[1] و خمسون سورة . فجاءت هذه ستة أحزاب و ستة فى عشرة بستين حزبا - انتهى .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : جملة آيات القرآن ستة آلاف آية و ست[2] و ستون آية ، منها ألف آية[3] أمر و ألف آية نهى و ألف آية وعد و ألف آية وعيد و ألف آية قصاص [4]و أحكام و أخبار و خمسمائة حلال و حرام[4] و خمسمائة دعاء و تسبيح و ستة و ستون ناسخ و منسوخ .

قال صاحب كتاب الفردوس عن سُليل عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال : حامل كتاب الله عز و جل له فى بيت مال المسلمين فى كل سنة مائتا دينار ، فان مات و عليه دَين قضى الله عز و جل عنه ذلك الدّين - انتهى .

نعود إلى ذكر تفسير اللغز [١٤٨ : الف] الثانى . [4]أما اللغز الثانى فهو البلد المسمّى[4] فارسكور ، و ذلك أن الثلاثة أحرُف «فار» و الأربعة أحرف «فارس» و الثلاثة أحرف «كور» الحدّاد .

[4]و الألغاز كثيرة ، منها فى المقص[4] :

و أسمر اللون شديد القوى ... يُعرف بالقوة و البأس
يأكل ما قد جاء فى علمه[5] ... من غير أنياب و أضراس

(١) فى الأصل و بن : سبعة .
(٢) فى الأصل و بن : ستة .
(٣) ساقطة من بن .
(٤-٤) العبارة ساقطة من بن .
(٥) فى بن : بطنه .

له عيون تحت أقدامه   تعجبوا يا معشر الناس[1]

[2] و منها :

مطية فارسها راجل   تحمله و هو لها حامل
واقفة بالباب مطروحة   يدركها كل فتى عاقل[2]

و منها :

وما ميّت فى الأرض مطروح[3] بعضه   يدب دبيب الماء فى الزرجون
إذا ما مشى يمشى بعشرة أرجل   و عشرة آذان و ست عيون

و قد تغلغل بنا الكلام و تشعّب و تسلسل إلى أن خرجنا عن مرثية ابن أبى حجلة التى رثا بها الإسكندرية عند ظفر الفرنج بها . فلنرجع إلى ما قاله فيها :

فما فاز منها غيرهم بدخولها   و لا فتحت من بعد فاتحها عمرو

---

(١) زيد فى بن [٩٩ : ب] و مما قيل فيه أيضا :

و معتنقين ما اتهما بعشق   و إن وصفا بضم و اعتناق
لعمر و أبيك ما اجتمعا لشيء   سوى لكل قطيعة و فراق (كذا)

و مما قيل فيه أيضا :

نحن خليلين ما دعا   للوصل و لا اختيار
ففصل ما كان ذو اتصال   كأننا الليل و النهار

(ملاحظة : الأخطاء فى النحو و ميزان الشعر واضحة أوردناها على ما هى عليه)

و منها فى كرسى الناسخ :

حامل للعلوم و غير فقيه   ليس يخشى ضرا ولا يتقيه
يحمل العلم فاتحا قدميه   فاذا انضمتا فلا علم فيه

(٢-٢) ساقطة من بن . (٣) فى بن : مدفون .

و لا نبحت منها القنا من دمائهم   إلى أن أسالوا الدّم فى البحر كالنهر

أى ما دخلت الإفرنج الإسكندرية لحرب من حين فتحها عمرو بن العاص ابن وائل السهمى فى سنة تسع عشرة من الهجرة إلا القبرسى، فانه دخلها فى [1]العشرة الأخيرة[1] من المحرم سنة سبع و ستين و سبعمائة بجنده النصارى الكفار، الضالين الفجار، قتل و نهب و سبي، و هرب خوفا من أن تدركه جيوش الديار المصرية، يبلونه بكل بلية[2].

و كان إسلام عمرو بن العاص سنة ثمان من الهجرة مع خالد بن الوليد، و ولى عمرو مصر عشر سنين، و توفى بمصر و هو ابن ثلاث و تسعين سنة، فدفن فى يوم عيد الفطر، و صلى عليه ولده عبد الله، و خلّف عمرو من الذهب ثلاثمائة ألف دينار و خمسة و عشرين[3] ألف دينار، و من الفضة ألفى ألف درهم.

و قالوا: الدهاة أربعة: معاوية بن أبى سفيان للرويّة، و عمرو بن العاص للبديهة، و المغيرة بن شعبة للمعضلات، و زياد بن أبيه لكل صغيرة و كبيرة. و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب [4]لمع من أخبار المغيرة و زياد[4] إن شاء الله تعالى. و قيل دهاة العرب ستة: معاوية بن

(١-١) فى الأصل: العشر الآخر.

(٢) فى البيتين السابقين من المرثاة و العبارات التالية خلط فى بن تغاضينا عن رصده هنا لقلة الأهمية.

(٣) فى الأصل و بن: عشرون.

(٤-٤) فى بن: لمعا من أخبارهم.

أبي سفيان و زياد بن أبيه و المغيرة بن شعبة و عمرو بن العاص و قيس ابن سعد بن عبادة و عبد الله بن زيد الخزاعي، و أنشدوا :

دهاة العرب ست إذ يُعدّوا وقاك الله من عار المسبّة
[١٤٨ : ب] معاوية و ابن العاص منهم و يتلوه المغيرة نجل شعبة
و رابعهم زياد و ابن قيس و عبد الله نجل يزيد شيبة

و حكوا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عزل زيادا عن عمله فقال : لِمَ عزلتني يا أمير المؤمنين عن غير موجدة و العزل فيه منقصة ؟ قال : كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك . وكان عمر رضي الله عنه إذا استضعف عقل رجل قال له : سبحان من خلقك و خلق عمرو ابن العاص[1] ! و في عمرو بن العاص يقول ابن الزبير الأسدي[2] :

ألم تر أن الدهر أخنت[3] صروفه على عمرو السهمي تجبى له مصر
فلم يغن عنه حزمه و احتياله و لا جمعه لما أتيح له الدهر
فأمسى مقيما في العراء و ضُللت[4] مكائده عنه و أمواله الدثر

و لما نزل الموت بعمرو بن العاص تململ و تلهّف على ما فرط، و ندم

(١) زيد في بن : قال بعضهم : سبحان من قضى على العقل الكامل بمداراة الطبع الجاهل بنظر العقاب إلى الآخر، و الطبع لا يرى إلا الحاضر، كم يتعب الشيخ في تقويم الطفل .

(٢) في بن : الأسعدي .

(٣) في بن : أفنت .

(٤) في بن : و ضلت .

على ما فعل ، فقال له ابنه عبد الله : يا أبتاه كنتُ كثيرا ما أسمعك تقول: إني لأعجب من الرجل ينزل به الموت و معه عقله و لسانه كيف لا يصفه . قال: يا بني ! الموت أعظم من أن يوصف ، و سأصف لك منه شيئا ، و الله لكأن على كتفي جبال رضوى ، وكأن روحي تخرج من ثقب إبرة ، و لكأن[1] في جوفي الهراس – يعني الشوك – و كأن السماء انطبقت على الأرض و أنا بينهما . ثم قال: اللهم ! إنك أمرتني فعصيت ، و نهيتني فارتكبت ، و لم يسعني إلا غفرانك[2] ، فمهما يكون من ذلك فاني أمسك نفسي بلا إله إلا الله . ثم قال لولده: إذا أنا متُّ فلا تبكين عليّ ، و لا تغالِ في أكفاني ، و شدّوا عليّ الإزار فاني مخاصم ، و لا تستر بدني بطوبة و لا خشبة و لا حجارة ، [3]فما جنبي[3] الأيمن بأحق[4] بالتراب من جنبي الأيسر ، فاذا واريتني فاجلس على قبري حتى آنس بك ، و أكثر من زيارة قبري و الاستغفار لي[5]. فلما مات[6] فعل عبد الله بوالده ما كان أمره به .

و كان عمرو بن العاص قد عمل على مصر أربع سنين في خلافة

(١) في بن: و لكن .

(٢) في بن: مغفرتك .

(٣-٣) في بن: بجنبي .

(٤) في بن: احق .

(٥) ساقطة من بن .

(٦) زيد في بن: عمرو .

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، و فى خلافة عثمان مثلها إلا شهرين ، و فى خلافة معاوية سنتين رحمة الله عليه [١] .

فلنرجع إلى مرثية ابن أبى حجلة :

(١) زيد فى بن [١٠٠ : الف - ب] : و اعلم أن الموت نازل بجميع خلق الله تعالى حتى لا يدع منهم كبير و لا صغير و لا حر و لا عبد و لا ملك (كذا) و لا سوقة إلا صيره مندرج (كذا) فى الأكفان . قال الله تعالى « كل من عليها فان » (قرآن كريم ٥٥ : ٢٦) و الحياة و الموت المراد بها الحركة و السكون ، قال الراجز :

قد كنت أرجو أن تموت الريح فأرقد الليل و أستريح

فجعل هبوب الريح حياة و سكونها موتا . وكان ذوالكلاع ملك حمير قبل دخوله فى الإسلام يركب فى اثنى عشر ألف مملوك من السودان شراء ماله . قال أبو هريرة الدوسى : و لقد رأيته بعد تلك الحش... يمشى فى سوق المدينة وجلد شاة على كتفه حين قدم من اليمن للجهاد فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فلما مات مع خالد بن الوليد فى مضيه معه إلى فتح الإسكندرية توفى على مدينة مريوط ، و سميت مريوط لأنه كان بها كاهن من كهان القبط اسمه يوط ، وكانوا إليه يشيرون ، وبكهانته يتمسكون ، وكان يحدث قومه أنه لا بد أن يظهر نبي من الحجاز حتى يختم الله تعالى به الرسل و ينشر دعوته فى المشرق و المغرب ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم عمد يوط إلى ثلاثة أفراخ حمام فألقاها فى منزله ثم ارتحل على حين غفلة من قومه ، و سار يطلب أقصى المغرب ، فلما كان يوم الدخول عليه لم يجدوه و رأوا الأفراخ الحمام ، و إذا أحدهم كما نسل و الآخر كما ريّش و الثالث كما طار ، فقال العلماء منهم إنه قد ضرب لكم مثلا وقال بلسان إشارته من قدر منكم أن يرتحل عن هذه المدينة أن يفعل فإنه يغنم سلامة نفسه ، و من كان منكم ثقيل العيال فليحتل على نفسه حتى يرتحل منها شبيها بهذا الطائر الذى كما [نسل] ، و أما هذا الذى كما زغب فهو مثل =

[١] فلو كان فيها مثل ما كان عسكر   يصول بذات الحرب فيها مع الصقر

ـــــــــــــــــــ

= الفقير المحتاج الذى لا يقدر و لا قدرة له إن أقام هلك ، ثم خرجوا من داره يقولون : مر يوط ! فتحولت المدينة من اسمها إلى مريوط ـ انتهى .

نعود ، و لما مات ذو الكلاع الحميرى بمريوط رثاه والده تنوخ بما رثا به حمير لأبيه سبأ بن يشجب ، قال :

عجبت ليومك مـا ذا فعل   و سلطان عزك كيف انتقل

فأسلمت ملكك لا طائعـا   و سلمت الأمر لمـا نزل

فيومك يوم رفيـع القـذال   و رزقك فى الدهر رزق حلل

(فى كتاب التيجان ص ٥٠ : و رزؤك فى الدهر رزء جلل ـ و فى الأبيات كلها اختلاف كثير بين « بن » و كتاب التيجان فراجعه) .

فلا تبعدن فكل امرئ   سيدركه بالسنين الأجل

لئن صحبتك بنـات الزمـان   و سر بذا الدهر وجه الأمل

لقد كنت بالملك ذا قوة   لك الدهر بالعز عار وجل

بلغت من الملك أقصى المنى   نقلت و عزك لم ينتقـل

حويت من الدهر اطلاقه   و نلت من الملك ما لم ينـل

و حملت عزك ثقل الأمور   فقام بها حـازما و استقل

صحبت الدهو [ر] فأفنيتها   و ما شـاء سعيك فيما فعل

بنيت القصور كمثل الجبال   و لم يك حزمك فيها هبل

قال : و لمـا مات ذو الكلاع الحميرى بمريوط حمله ابن عمه عجلان بن مضاض الحميرى إلى مصر بعد أن صبره و عوّل أن يسير به إلى اليمن فصار حتى (كذا ولا محل للكلمة) فصار به حتى دفنـه فى مقابر حمير و الله تعالى أعلم ـ فلنرجع إلى ذكر مرثية ابن أبى حجلة ـ الخ .

(١) الكلام من « فلو كان فيها مثل ما كان عسكر » بر (١٤٨ : ب) إلى قوله =

لما ظفر الغربان فيها بنقرة و لا نابها خطب بناب و لا ظفر

أى لو كان فيها عسكر مقيم كما كان فى زمن عمرو بن العاص من قبائل العرب [١٤٩ : الف] المتقدم ذكرها، وهم [1] لخم و جذام و كندة و الأزد و حضرموت و [2]خزاعة و المزائنة [2]، و ما كان بها أيضا من جنود الملوك السالفة لما ظفر القبرسى منها بحبة واحدة، و لا نابها مكروه من أنياب الكفار، و لا بظفر من أظفارهم . و هذا فيه تورية، و التورية إظهار شىء يكون المراد به غيره بخفية، لأن غربان الطير من شأنها النقير بمناقيرها فى أكلها و شربها، وكذلك غربان النصارى و هى المراكب الحربية لا تذوق قطرة دم إذا شاهدت عساكر حين تأتى من مصر نجدة للإسكندرية، لأن النجدة القوة و المنجدين المعينون [3]، فاذا شاهدت تلك الغربان للفرسان صارت مبرزة فى البحر عن البر لما ترى من سيل العساكر التى رؤيتها تفتت المرائر، فترجع تلك الغربان من حيث أتت خاسرة، و إن ثبتت و أبت إلا النقر من دم سُفك فى المعمعة، دارت عليها الدائرة، بعون رب الدنيا و الآخرة، لتنهل سيوف المسلمين الباترة، من دماء الملة الكافرة . فالمناقير للغربان، و الأنياب و الأظفار للوحوش القاطنة بالقفار كالأسود و الفيلة و النمورة و الفهودة و غيرها . و المخلاب لكواسر الجوارح كالنسور و الصقور و البزاة

= « و كسره للجام الزجاج عن فراخه إن شاء الله تعالى » بر [١٤٩ : الف] ساقط من بن [١٠٠ : ب] .

(١) انظر أيضا بر [١٠١ : ب] فيما سبق .

(٢-٢) فى الأصل : الخزاعلة و المراغنة ؛ و قد مر التصحيح فى ص ١٣٥ .

(٣) فى الأصل و بن : المعينين - كذا .

و الشواهين و العقبان و الصيافى و الكواهى و الجز و القاتول و الزغزغى و السقاوة و الزراق و الجلمة و القطامية و النميلية . كل هؤلاء [1] أصحاب ثاب و مخلاب يصاد بها ، فمنها من يصيد الكراكى ، و منها من يصيد العصافير ، و قيل [1] [إن - ٢] الطير جميعه فيه الذكر و الأنثى إلا العقاب فانه لا يوجد فيه ذكر أصلا بل جميعه أنثى ، و الذى يسفده طائر من غير جنسه ، و قيل إن الثعلب يسفده ، و هذا من العجائب [3] .

قال بعضهم يهجو رجلا :

ما أنت إلا كالعقاب فأمه   معروفة و له أب مجهول

و يقال لوكر الغراب فراش عزيرة لأنها تعشش فى موضع لا يقدر عليها فيه أحد . قال الشاعر :

حتى انتهيت إلى فراش عزيرة   سوداء روثة أنفها كالفحمة

و سيأتى فيما يرد من هذا الكتاب خبر العقاب و كسره للجام الزجاج عن فراخه إن شاء الله تعالى .

فلنرجع إلى قول ابن أبى حجلة :

و قد أسرت قلبى الأسارى بأسرهم   فوا عجبا من أسر [4] من هو [4] فى الأسر

أى و قد أسرت قلبى أسارى الإسكندرية بأسرهم له ، إذ صار فى قيد محبتهم ،

(١-١) الجملة مضافة بهامش الصفحة .

(٢) غير واضحة بهامش الأصل ، و لا بد أن تكون «إن» .

(٣) فى هامش الأصل : مطلب عجب فى الطيور .

(٤-٤) فى الأصل و بن : و هو . و لفظة «من» ساقطة و لا بد منها لاستقامة المعنى و الوزن .

[١٤٩ : ب] فوا عجبا من أسر قلبي و هو مأسور فى قبضة الكفار، قد تغرب عن أوطانه و الديار، فصارت الأحرار، كالعبيد و الجوار، و لم تدر أهاليهم لهم مكانا[1]، ألفوا لفقدهم و بعدهم البكاء بطول الزمان، و حالفوا الأشجان و الأحزان، فيا طول[2] بكائى على من كان أنيسى [3]و عرسى و عروسى[3]، و لله در القائل حيث يقول :

أين ساروا تُرى حداة العيس[4] بحبيبى و واحدى و أنيسى
حين ساروا حثوا المطايا و لم يلووا على راحة و لا تعريس
جرّعونى يوم الفراق كؤوسا مُرّة ما أمرّها من كؤوس
فتبدلت بعد عزى بذلّى و تعوّضت من نعيمى ببوسى
فشرابى دمعى و زادى حزنى و سقامى من بعدهم ملبوسى
أنا فى أسر[5] حزن من هو فى الـأسر حبيس أبكى لفقد حبيسى
يا غصونا غرستها فى فؤادى و بماء المنى سقيت غروسى
عند ما رمت[6] أن أنال جناها رميت بالذبول و التيبيس[7]
يا ديار الأحباب ما فعل الدهر المعادى لربعك المأنوس

(١) فى الأصل و بن : مكان، و زاد بعده فى بن : بل.
(٢) زيد فى بن : حزنى و .
(٣-٣) ساقطة من بن .
(٤) كذا فى بن، و فى الأصل : العيسى .
(٥) فى بن : باس .
(٦) فى بن : نلت .
(٧) فى بن : و البلبيس .

أين تلك الوجوه فيك المنيرا   ت حسانا مضيئة كالشموس
قد وقفنا[1] الديار سكرى و لكن   سكر حزن لا سكرة[2] الخندريس
و ديار معطّلات من القوم   ليس فيها أنس لكل أنيس
ربنا ارجع أحبابنا عن قريب   لا تدعهم إماءً كلّ[3] خسيس
و احمهم من جميع كفر النصارى   لا تدعهم يصغوا إلى قسيس

و لمّا صارت الأسارى مع النصارى فى مراكبهم بميناء[4] بحر الإسكندرية، و المسلمون ينظرون إليهم من الساحل و لا يستطيعون خلاصهم منهم، أنشد لسان حالهم شعرا للبغاددة [5]يعرف بقوما و هو ملحون[5]:

يهنّ عليّ أن يمر ما لى و شيى   ولا أرى أحبابى مع أعدائى حدى
يا مقلتي بالبكا بلّى رُدنى   و يا حمامات اللوا نوحوا[6] عليّى
نوحوا عليّى قد بدا نشرى وطيّى   وذبت[7] حتى لم يُرى فى الشمس فيّى
كانوا حدي و النظر فيهم غذي   أحسنت ليهم فارقوا هذا جُزَّ ئى
[8]ترى أراهم[8] يرجعوا نحوى إليّى   أذكر لهم حالى الذى جرى عليّى

---

(١) زيد فى الأصل و بن: فى.
(٢) فى بن: سكر.
(٣) فى الأصل وبن: لكل.
(٤) فى الأصل وبن: بمينة.
(٥-٥) فى بن: يسمى قوما وهو. وفى الأصل: ملحونا - مكان: ملحون. والقصيدة بلا شك. من الشعر العراقى الشعبى.
(٦) فى بن: نوحى.
(٧) الكلمة ساقطة من بن.
(٨-٨) فى بن: تراهم.

ليت النصارى قطّعوا بالمشرفي ... و لا كووا بفعلهم قلبي بكي

[١٥٠ : الف] - انتهى .

ثم ان النصارى سافروا بالأسارى ، فصارت قلوب أهاليهم[1] لفقدهم حيارى ، و كل منهم بحنينه يبدى ، و يودّ لأسراه بالمال يفدى ، و لسان حاله ينشدى :

أحبّتنا بنتم فلم يبق بعدكم ... معين سوى دمعي تخدّد في خدى
و جُرّعت مرّ العيش بعد فراقكم ... و ما كان هذا من مرادي و لا قصدى
و أطمعت نفسي بالخيال يزورني ... و كيف يزور الطيف ذا أعين رمدى
حُرِمت الرضى إن كنت أرضى بغيركم ... حبيبا و إني لا أحول عن العهد
و لا بلغت روحي المنى من وصالكم ... إذا لم يكن دهري مقيما على ودى
و بي عطش و الماء مني وروده ... قريب و لكن لا سبيل إلى الورد
و لى مقلة أجفانها جفت الكرى ... و قد ألفت فيض الدموع على الخد
و لى مسمع لم يستمع قول عاذل ... و هل نافع قول المتيّم أو يجدى
و في كبدى نار تأجج في الحشى ... و تزداد بالتذكار وقدا على وقد
ألم تعلموا أني أذوب صبابة ... و أنّ اشتياقى زائد الوصف و الحد
و إني بهم مُضنى الفؤاد معلل ... و كم عذبوني بالقطيعة و الصد

و سيأتي فيما يرد من هذا الكتاب خبر أسارى الإسكندرية ، و رجوع بعضهم إليها[2] من أرض الرومانية ، و أخبارهم بما جرى لهم في بلاد

(١) في بن : اهليهم .
(٢) ساقطة من بن .

النصرانية ، إن شاء الله تعالى .

و أرض الرومانية تحتوى على أجناس كثيرة ، منها الجنوية و البندقية و الكيتلانية و اللنبردية و البرصالية[١] و البرشلونية و الفرنسيسية و الهركل و الأرمن و الخرائطة و غيرهم من الكفرة الفجرة عُباد الصلبان ، السالكين طرق الطغيان[٢] ، أعداء الله و رسوله ، قاتلهم الله أنى يؤفكون - انتهى .

نعود إلى قول ابن أبي حجلة فى مرثيته :

وصارت ذوات الحُلى بالأسر عندهم و ليس لها حلى سوى المدمع الدر

أى صارت المسلمات المؤمنات فى أيدى الكفار إماء و جوارى[٣] ليس لهن حلىّ عوض حليهن المنهوب من درهن سوى دمعهن المنحدر على صحن الخد كالطلّ على الورد .

ذكرت الأسارى[٤] القادمون[٥] من جنوة و قبرس إلى الإسكندرية كما سيأتى ذكرهم[٦] و تاريخ قدومهم إن شاء الله تعالى أن الفرنج صاروا يلبسون[٧] قلائد الذهب و العنبر المفصّلة بأنواع الجوهر المنهوبة من الإسكندرية و هم

(١) فى بن : و البرصانية . و هم تجار مدينة بروسة على الجانب الاسيوى من بحر مرمرة فى الاناضول .

(٢) من بن ، و هى فى الأصل : الصلبان .

(٣) فى الأصل و بن : جوارا .

(٤) فى بن : اسارى .

(٥) فى الأصل و بن : القادمين .

(٦) فى بن : ذكر رجوعهم .

(٧) فى الأصل و بن : يلبسوا .

بمراكبهم عقيب نهبهم و يتضاحكون و يرقصون و يقولون: سلبناها [١٥٠ : ب] من أعناق نسائهم و لبسناها فى أعناقنا ، و صارت رجالهم عبيدنا و نسوانهم[1] جوارينا[2] ، فتنحدر دموع[3] الرجال لسماع[4] كلام [5]عُباد الصلبان[5] و يقولون[6] : يا ويلنا بعد أن كنا أحرارا صرنا [7]عبيدا و نساؤنا[7] جوارى[8] للنصارى الكفار[9]، لا شكوى إلا للواحد العزيز[10] القهار ، فبدل الله تعالى بمنّه و كرمه تلك القلائد[11] بأعناق الفرنج سلاسل و أغلالا ، و خشبا بأيديهم و حبالا . و ذلك حين رسم السلطان بحمل من كان منهم بالإسكندرية مقيما[12] من تجارهم و خدامهم إلى القاهرة ، فخرج[13] المسلمون بهم من الإسكندرية مشاة حفاة إلى القاهرة فى قهر و ذلة ، و نكال و خزية ،

---

(١) زيد فى بن : امائنا و .

(٢) فى الأصل و بن : جوارنا .

(٣) زيد فى بن : الاسارى المسلمين النساء و .

(٤) فى بن : لسماعهم .

(٥-٥) فى بن : اهل الضلال .

(٦) فى بن : يقلون - كذا .

(٧-٧) فى بن : نحن و نساؤنا عبيدا .

(٨) فى الأصل و بن : جوارا .

(٩) زيد فى بن : المشركين الفجار .

(١٠) ساقطة من بر ، و واردة فى بن .

(١١) زيد فى بن : التى كانت .

(١٢) فى الأصل : متقفا . و فى بن : متقفا .

(١٣) فى الأصل و بن : نخرجت .

و ذلك فى أواخر سنة تسع و ستين و سبعمائة بعد الحوطة على جميع أموالهم، [1]أقام الختم عليها[2] مدة، ثم بعد ذلك [3]رسم لهم بأخذها[3].

و كما أتى إبراهيم التازى[4] رئيس دار صناعة الإسكندرية بأسارى الفرنج و راهبهم أسيرا من جزر الرومانية إلى ثغر الإسكندرية، و ذلك فى شعبان من السنة المذكورة، فى أعناقهم الحبال المظفورة، و بأيديهم الخشب المسمورة، يقدمهم راهبهم شيخ الكفار، مجرّسا[5] على ظهر حمار، و المسلمون حواليه[6] يسخرون منه و يضحكون عليه. و سيأتى ذكره و ذكر من أتى معه من الفرنج الأسارى[7] فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

و قول ابن أبى حجلة أيضا فى مرثيته:

خلا ربعهم من أنسهم و تفرقوا   أيادى سبايا السبى فى آخر الشهر

يعنى[8] أسرت أسارى الإسكندرية فى أواخر المحرم سنة سبع و ستين و سبعمائة، فتمزقوا[9] فى البلاد كتمزق أهل سبأ من بلدهم بعد اجتماعهم به،

(١) زيد فى بن: و.

(٢) فى بن [١٠١: الف]: على ابواب مخازنهم.

(٣-٣) فى بن: رسم السلطان بردها إليهم لأسباب اتفقت.

(٤) ساقطة من بن.

(٥) فى بن: مجرس.

(٦) فى بن: حوله.

(٧) زيد فى بن: و كيفية أسرهم و خبرهم مفصلا.

(٨) زيد فى بن: ان الفرنج.

(٩) فى بن: تفرقوا فى البلاد و تمزقوا.

و ذلك حين أرسل الله عليهم سيل العَرِم ، فلحقت خزاعة ببطن مرّ و الأوس و الخزرج بيثرب و غسان بأرض الشام[1] . قال الشاعر :

و مُزّقت سبأ فى كل قاصية فما التقى رائح منهم بمبتكر

سبأ[2] الذى ذكره[3] هو سبأ بن يشجب[4] بن يعرب بن قحطان ، و سمى سبأ لأنه أول من دخل بلاد اليمن بالسبى ، و اسمه عبد شمس و كان له عشرة من الولد ، سكن الشام منهم أربعة و هم لخم و جذام و غسان و عاملة[5] ، و سكن اليمن منهم ستة و هم كندة و مذحج و الأزد و أنمار و غيرهم . و قد ذكر الله عز و جل فى كتابه تمزيقهم فقال « لقد كان لسبا فى مسكنهم اٰية جنتٰن عن يمين و شمال كلوا من رزق ربكم و اشكروا له بلدة طيبة و رب غفور ۞ فاعرضوا فارسلنا عليهم [١٥١ : الف] سيل العرم[6] » إلى قوله : « و مزقنٰهم كل ممزق[7] » . و كانت أرضهم مأرب[8] من بلاد اليمن ، و كانت العمارة فيها أزيد من شهر ، و كانت المرأة إذا أرادت أن

(١) زيد فى بن : و تفرقت بقيتهم بأرض العراق و غيرها .

(٢) فى هامش الأصل : سبأ المذكور فى القرآن .

(٣) فى بن : ذكره الشاعر فى البيت .

(٤) فى بن : يشخب .

(٥) فى بن : و عامكة .

(٦) قرآن كريم ٣٤ : ١٥ - ١٦ . و يلاحظ أن الكاتب استعمل لفظة « مساكنهم » فى كل من بر و بن بدلا من « مسكنهم » ــ خطأ .

(٧) قرآن كريم ٣٤ : ١٩ .

(٨) ساقطة من بر ، و واردة فى بن .

تجتنى من ثمارها[1] وضعت مكتلها على رأسها و خرجت تمشى تحت الثمار و هى تغزل، فلا ترجع حتى يمتلىء[2] مكتلها مما[3] شاءت من الثمر الذى يتساقط طيبا، و قد قيل إن مأرب اسم ملكها، فسميت تلك الأرض به، و فيه يقول الشاعر:

من سبى الحاضرين من[4] مأرب إذ يبنون[5] دون سيله العرما

و قيل إن مأرب اسم لقصر ذلك الملك، و فى ذلك يقول الشاعر:

ألم تروا مأربا ما كان أحصنه[6] و ما حواليه من سور و بنيان

و كانت أرض سبأ فى بدء الزمان عامرة تركبها السيول، و تعمها الوحول، فجمع ملك من ملوك حمير الحكماء، و أحضر البُصَراء، و شاورهم فى دفع ذلك السيل و حَصره و إزاحة ما كان من أمره، فأجمعوا على حفر مصارف له إلى جدار، يؤديه إلى البحار[7]. فحشد الملك لذلك أهل مملكته، و اتخذ سدا فى الموضع الذى كان فيه بدء جريان الماء من الجبل إلى الجبل و ذلك نحو فرسخ، رصفه بالحجر و الحديد، و جعل فيه ثلاثين مخراقا للماء فى استدارة الذراع على أصح هندسة و أكمل

(١) فى بن: ثمرها.
(٢) من بن، و فى الأصل: تمتلى.
(٣) فى بن: بما.
(٤) «من» ساقطة من بن.
(٥) زيد فى الأصل و بن: من، و لا يستقيم به الوزن.
(٦) فى بن: احسنه.
(٧) فى بن: البحر.

تقدير

تقدير ، يجتذبون منها مقدارا من الماء معلوما يسقون منه أراضيهم ، فلم تزل أرض سبأ من أخصب أرض ، و أهلها فى رغد[1] ، و كانت مسيرة شهر للراكب المجدّ فى مثل ذلك . و كان الماء يسير فى جداول جنان بساتينها من أولها إلى آخرها ، و كان المسافر لا تواجهه الشمس و لا يفارقه الظل مع تدفق الماء ، و اتساع الفضاء . فمكثوا كذلك ما شاء الله ، لا يعاندهم ملك إلا قهروه و قصموه ، و لا يعارضهم جبّار إلا كسروه . و كانوا يعبدون الشمس من دون الله تعالى ، فأنكروا نعمة الله و قالوا للأنبياء الذين أرسلوا إليهم يأمرونهم بعبادة الله و ينهونهم عن عبادة الشمس : إن كنتم صادقين فادعوا الله أن يسلبنا ما نحن فيه من النعمة ، حتى قالت امرأة منهم : إن كان ما نصبح[2] فى ظلاله من ربكم فلينطلق بما له إليه عنا و إلى عياله . فدعت عليهم الرسل ، فأرسل الله عليهم بفأرة خرقت ذلك السد المحكم ، و الصخر المضرم ، ليكون أثبت فى العبرة ، و أوكد فى الحجة . و أباد الله غضراءهم ، و أذهب أموالهم ، و مزقهم كل ممزق ، و باعد بين أسفارهم ، و فى ذلك يقول الأعشى :

[١٥١ : ب] فى ذاك[3] للمؤتسى أسوة ومأرب عفّى[4] عليها العرم
رخام بنته له حمير إذا [5]جاء ماؤهم[5] لم يرم

(١) زيد فى بن : عيش .
(٢) فى بن : نسبح .
(٣) فى بن : ذلك .
(٤) فى بن : عف ، و فى ديوان الأعشى ص ٢٠١ : ففى .
(٥-٥) فى بن : جاءوهم ، و فى ديوان الأعشى ص ٢٠١ : جاءه ماؤهم .

[1]فأروى الحروث وأعنابها   على ساعة ماؤها قد قسم[1]
فأصبح ماؤهم[2] قد غدا   على سدهم فاض حتى هدم
فأغرق دورهم و الزروع   و ساروا فما منهم لم يُقم

هذا ما ذكر بعضه أبو عبيد القرطبي في كتاب المسالك و الممالك ، و ذكر بعضه أبو مروان الحضرمي في كتابه الموسوم بزهر [3]الكمامة و قطر الغمامة[3] .

و[4] قال الكسائي في كتابه المشتمل على قصص المرسلين صلى الله عليهم و سلم أجمعين[4] عن كعب الأحبار أن أول مَلِك مَلَكَ اليمن عبد شمس بن يعرب بن قحطان ، و كان أول من سبى العرب فسمى سبأ ، وكان جبارا عاتيا ذا[5] قوة و بطش ، وسميت مدينته أيضا سبأ ، و كان قد أحكم بناءها ، و حصّنها بسور منيع و أبواب محكمة ، و غرس في جوانبها الغرس الكثير من أنواع الفواكه حتى صارت مأوى الوحوش و الطير من كثرة أشجارها و مياهها . فذلك قوله تعالى : « لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين و شمال كلوا من رزق ربكم و اشكروا له بلدة طيبة و رب غفور[6] » . وكان سبأ قد بنى له في المدينة لنفسه مائة

(١-١) في ديوانه : فأروى الزروع و أعنابها   على سعة ماؤهم إذ قسم .
(٢) في بن : و هم .
(٣-٣) في بن : الكمام و قطر الغمام .
(٤-٤) العبارة ساقطة من بن .
(٥) في بن : ذو .
(٦) انظر الحاشية السابقة عن الآية ص ٣٤٩ .

قصر بالرخام و الجزع اليماني مسقّف[1] بالعاج و الأبنوس المنقوش و التماثيل المشبكة بقضبان الذهب . و كان له سبعة[2] بنين منهم عمرو و كهلان و بجيلة وكانوا كفرة فبعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا يدعونهم إلى عبادة الله تعالى و ينهونهم عن معصيته ، فكذبوا الرسل و همّوا بقتلهم ، و الرسل يصبرون على أذاهم و يذكّرونهم نعم الله تعالى عليهم ، و يحذرونهم زوالها[3] عنهم وهم لا يرجعون عن غيهم حتى ملكهم عمرو بن عامر ، فكان سيل العرم فى أيامه ، و كان عمرو بن عامر[4] يدعى مُزَيقيا ، و قيل له مزيقيا لأنه كان يمزق كل يوم حلّتين ، و كان تمزيقه [5]إياهما [5]أنه كان يلبسهما أول النهار ، ثم يأمر بتمزيقهما[6] آخر النهار لئلا يلبسهما أحد بعده – انتهى .

[7]نعود إلى ما ذكره القرطبي فى كتاب المسالك و الممالك ، قال رحمه الله : و كانت طريفة الكاهنة تنذر[7] عمرو بن عامر بهدم سد مأرب ، فقال عمرو لطريفة و ما آية هدمه ؟ فتقول[8] : إذا رأيت فأرا يكثر بيديه

(١) فى بن : مسقفة .

(٢) فى الأصل و بن : سبع .

(٣) زيد فى الأصل : عنها .

(٤) فى بن : عمرو .

(٥-٥) فى بن : اياها لأنه .

(٦) فى بن : بتمزيقها .

(٧-٧) فى بن [١٠٢ : الف] : فلنذكر الآن خبر طريفة الكاهنة و ما أخبرته من أخبار سيل العرم وذلك أنها أنذرت .

(٨) فى بن : قالت فقالت .

في السد الجفر و يقلب برجليه [الصخر فاعلم أنه قد اقترب الأمر ، فكان عمرو يحرس السد حتى رأى يوما فأرا يقلب برجليه - ١] صخرة ما يقلّها خمسون رجلا ، فرجع و هو يقول :

[١٥٢ : الف] أبصرت أمرا هاج لي برح السقم   من جرذ كفحل خنزير أجم[٢]
أو كبش[٣] صرم من أفاويق[٣] الغنم   له مخاليب و أنياب قطم
يسحب قطرا من جلاميد العرم   ما فاته سحلا من الصخر قصم
كأنه يقلع قلعا من أدم

فأجمع عمرو على الخروج من أرض سبأ و بيع ملكه ، و عمل الحيلة في أن لا ينكر الناس ذلك منه ، فقال لابنه : إني صانع طعاما و أدعو إليه أهل مأرب ، فاجلس عندي و نازعني الحديث ، و اردد عليّ مثل ما أقول لك . ففعل ذلك و تشاتما ، فصاح[٤] عمرو : وا ذلاه يوم [٥]يفحم عمرا[٥] صبي ، و حلف لا يقيم في بلد صُنع به ذلك فيه ، فجعل يبيع أملاكه . فقال بعضهم : اغتنموا غضبة عمرو و اشتروا منه قبل أن يرضى ؛ فلما اجتمعت لعمرو أمواله[٦] أخبر الناس بسيل العرم ، فأجمعوا على النقلة ، فانتقلوا إلى البلاد حين سال سيل العرم .

(١) زيدت من بن .
(٢) في بن : أرحم .
(٣-٣) في بن : صوم من افاريق .
(٤) في بن : فصاح - كذا بالغين .
(٥-٥) في الأصل و بن : يفحمه عمرو .
(٦) في بن : اموال املاكه .

و سأذكر

و سأذكر أيضا ما قاله بعض المؤرخين فى سيل العرم عن عمرو ابن عامر غير ما تقدم ذكره ، و ذلك أن عمرو بن عامر مزيقيا رأى فى منامه أن آية سيل العرم أن ترى الحصباء قد ظهرت [1] فى سعف النخل و كرمه ، فنظر إليها فوجد الحصباء قد ظهرت [1] فيهما ، فعلم أن ذلك واقع و أن بلادهم ستخرب ، فكتم ذلك و أخفاه ، و أجمع على بيع كل شىء له بأرض مأرب و يخرج منها هو و ولده . ثم خشى أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه أن يتأبى [2] ذلك ، و أن يفعل [3] به فى الملا [4] من النـاس ، و إذا لطمـه يرفع هو يده و يلطمه ، ثم صنع طعـاما و بعث إلى أهل مأرب أن عمرا صنع يوم مجد و ذكر ، فأحضروا طعامه ثم دعى الناس ، فلما جلسوا للطعام جعـل [5] عنده ابنه الذى أمره بما أمر ، [6] فجعل يأمره بأمر فيتأبى [6] عليه و ينهاه فلا يأتمر ، فرفع عمرو يده فلطم وجه ابنه ، فلطمه ابنه ، فصاح عمرو :

(١-١) ساقطة من بن .

(٢) فى بن و الأصل : يتأبا . و صححها الكاتب : يتأبى . و قرأناها كاملة بالنقط يتأبى ـ و يستقيم بهـا الكلام . و المقصود بالتأبى أو الإباء هو الرفض و المعارضة و أحيانا الكبرياء .

(٣) زيد فى بن : ذلك .

(٤) زيد فى الأصل : من الملأ .

(٥) فى بن : جلس .

(٦-٦) فى بن : ففعل ما أمره و تأبى .

وا ذلاه يوم نخر عمرو يهيّجه[1] صبي و يضرب وجهه! و حلف ليقتلنه، فلم يزالوا بعمرو يرغبون[2] إليه حتى تركه فقال: و الله! لا أقيم بموضع صُنِع بي[3] فيه هذا و لأبيعن أملاكي حتى لا يرث منها[4] بعدي شيئا. فقال الناس بعضهم لبعض: اغتنموا غضبة عمرو قبل أن يرضى. فاشتروا منه كل أملاكه، فلما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بسيل العرم. و لما خرج عمرو من اليمن خرج بخروجه منها بشر كثير، فنزلوا أرض عَك، فحاربتهم عك[5]، ثم اصطلحوا و أقاموا بها حتى مات عمرو بن عامر مزيقيا و تفرقوا على البلاد [١٥٣ : ب]، فمنهم من سار إلى الشام و هم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر، و منهم من سار إلى يثرب و هم أبناء قيلة[6] الأوس و الخزرج و أبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر مزيقيا، و صارت أزد الشراة إلى الشراة و أزد عمان إلى عمان، و صار مالك ابن نهم إلى العراق. ثم خرجت بعد عمرو من أرض اليمن طيء فنزلت جبل طيء، و نزلت ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر تهامة و سُموا خزاعة لانخزاعهم من إخوانهم و تمزقوا في البلاد كل ممزق. ثم أرسل

---

(١) في بن: يهينه.

(٢) في بن: يرغبوا.

(٣) في الأصل و بن: لي.

(٤) في بن: من.

(٥) زيد في بن: ... من بلاد عك.

(٦) في الأصل: قيلة.

الله عليهم سيل العرم على السد فهدمه -[1] انتهى .

نعود إلى ما ذكره الكسائى[1] قال: لما سال سيل العرم أخذ الماء سبأ و أهلها و مواشيها [2]و أشجارها[2] ، و وقعت الصيحة فى أرض سبأ ، و فاض الماء فى دورها و قصورها و بساتينها حتى صارت لجة بحر[3] ، و لم يزل الماء طافحا حتى أهلك[4] أهلها و أموالهم ، و نبت فى موضع البساتين الخمط و الأثل و السدر ، و كان قوم منهم قد التجأوا عند معاينة السيل إلى الجبل ، فلم يزالوا هناك حتى[5] نضب الماء ، ثم عادوا إلى ذلك المكان و بنوا لأنفسهم و عمّروا مزارع[6] ، فلم يخرج إلا دون القوت ، فكان قوتهم من الأثل و الخمط و السدر من الجوع . فذلك قوله تعالى: «و بدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتى اكل خمط و اثل و شىء من سدر قليل ۝»[7] . [2]و الخمط الأراك . و قال تعالى[2]: «ذلك جزينهم [8]بما كفروا[8] و هل نجزى إلا الكفور ۝»[9] .

(١-١) فى بن [١٠٢ : ب] : هذا ما ذكره الحضرمى ، وأما ما ذكره أبو الحسن على بن حمزة الكسائى فى كتابه قصص الأنبياء .

(٢-٢) ساقطة من بن .

(٣) ساقطة من بن .

(٤) زيد فى بن : من بقى من .

(٥) فى بن : بان .

(٦) فى الأصل و بن : مزارعا .

(٧) قرآن كريم ٣٤ : ١٦ .

(٨ - ٨) فى بن : ببغيهم - راجع القرآن الكريم ٣٤ : ١٧ .

(٩) زيد فى بن [١٠٣ : ب] : وإذ قد ذكرنا الكسائى فلنذكر ترجمته ، هو =

و لما نزلت الأوس و الخزرج يثرب كما تقدم ذكره رأوا الآطام و الأموال و العدد و القوة ليهود سألوهم حلفا و جوارا يأمن به[1] بعضهم من بعض و يمتنعون به على[2] من سواهم، فتعاقدوا و تحالفوا و اشتركوا و تعاهدوا، فلم يزالوا على ذلك زمانا طويلا، ثم إن الأوس و الخزرج
٥ صارت لهم ثروة من المال و العُدد و امتنع جانبهم و علا أمرهم، فخافتهم يهود على ديارهم و أموالهم[3]، فقطعوا الحلف بينهم، و كانت اليهود أعز و أكثر و لهم الآطام المنيعة أي[4] الحصون الحصينة، و كان العَدد و الشدة منهم فى الكاهنين و هما قريظة و النضير[5] و إياهما عنى قيس

= ابو الحسن على بن حمزة بن بهمن بن فيروز النحوى الكسائى مولى بنى أسد فارسى الأصل من تابعى التابعين، قيل له: لما سميت الكسائى؟ قال: لأنى أحرمت فى كساء، و إليه أشار الشاطبى بقوله:

و أما على فالكسائى نعتـه لما كان فى الإحرام فيه تسربلا

و انتهت إلى الكسائى طبقة القراءة و اللغة و النحو و الرياسة. كان يقرأ على منبر الكوفة فتضبط المصاحف بقراءته و تؤخذ الألفاظ منه. قال يحيى بن معين: ما رأيت أصدق لهجة من الكسائى. و قال نصير: كان الكسائى إذا قرأ أو تكلم كأن ملكا ينطق على فيه. و عاش سبعين سنة و مات برنبويه من قرى الرى صحبة أمير المؤمنين هارون الرشيد سنة تسع و ثمانين و مائة. و بقرية رنبويه دفن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة. قال الرشيد عنهما . . . .

(١) ساقطة من بن.

(٢) فى بن: عن.

(٣) زيد فى بن: منهم.

(٤) فى بن: و.

(٥) من بن، و فى الأصل: النظير - كذا.

ابن

ابن الحطيم :

كنـــا إذا رامنا قوم بمظلمـــة شدت لنا الكاهنان الخيل و اعتزموا

فلما قطعت اليهود حلف الأوس و الخزرج نُفُوا[1] منهم حتى نجم فيهم مالك بن العجلان أخو بنى سالم بن عوف بن الخزرج ، وسَوّده الحيان عليهم ، فبعث إلى من بالشام من قومه يخبرهم باستذلال[2] اليهود لهم ، و أرسل لهم الرقيق[3] بن زيد بن امرئ القيس ، فقدم على ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة [١٥٣ : الف] فذكر ذلك ، فخرج أبو جبيلة فى جمع كثير ، و أظهر أنه يريد اليمن ، و عاهد الله لا يرجع إلى دياره أو يخرج من يثرب يهود ، و يذللهم[4] للأوس و الخزرج ، فأعلموه[5] أن القوم إن عرفوا ما يريد تحصنوا فى آطامهم و حصونهم فلم يقدروا عليهم . و لكن ندعوهم للقائك[6] و نلطفهم حتى يأمنوك و يطمئنوا إليك فتستمكن منهم . فصنع[7] لهم طعاما ، و أرسل إلى وجوههم و رؤسائهم فلم يبق منهم أحد إلا أتاه ، و جعل الرجل منهم يأتى بخاصته و حشمه رجاء أن يحبوهم[8]

---

(١) فى بن : نفرا .

(٢) فى الأصل : باستدلال .

(٣) كذلك فى بن ، و فى الأصل : الرفق .

(٤) فى بن : و يذلهم .

(٥) فى بن : فاعلموا .

(٦) فى بن : للقائل .

(٧) فى بن : فيصنع .

(٨) فى بن : يحبهم .

الملك بكرامته[1]، و قد كان أمر أصحابه أن يقتلوا من دخل عليهم منهم، فقتلوهم عن آخرهم. فلما فعل ذلك عزّت الأوس و الخزرج، و غلبت على ديارهم و آطامهم، و تفرقت الأوس و الخزرج فى عاليـة المدينـة و سافلتها يتبوؤن منها حيث شاؤا، فلم يبق من يهود إلا أقلّهم ممن أقام على الهون[2]. و كانت يثرب فى الجاهلية تدعى «أغلبة»[3] - غلب اليهود عليهـا العماليق، و غلب الأوس و الخزرج عليهـا اليهود، و غلـب المهاجرون عليها الأنصار، و غلبت الاعاجم عليها المهاجرون. و كانت الآطام حصون المدينة و زينتها. رُوى أن النبى صلى الله عليه و سلم نهى الأنصار أن يهدموها، و ذكر أنه وُجد بالمدينة فى حمى أم خالد قـبر عليه مكتوب: «أنا أسود بن سوادة رسول رسول الله عيسى بن مريم إلى أهل هذه القرية». و ذكر عثمان بن عبد الرحمن أنه وُجد قبر فى الحمى عليه حجر[4] مكتوب فيه فقرأه رجل من أهل اليمن فاذا فيه: أنا عبد الله رسول رسول الله سليمان بن داود إلى أهل يثرب». و لما ملك تبع بن كليكرب[5] اليمن سار إلى يثرب يحارب الأوس و الخزرج، فكانوا يقاتلونه بالنهار و يقرونه بالليل، فلما

(١) فى بن: بكرامة.

(٢) فى بن: هوان.

(٣) فى بن: غلبه.

(٤) ساقطة من بن.

(٥) فى بن: كيكرب.

رأى ذلك منهم قال: ما ينبغى أن نقاتل هؤلاء . و كان يعجبه[1] ذلك منهم و يقول[2] : و الله إن قومنا لكرام ! فبينما تبع على ذلك إذ جاءهم حبران من أحبار يهود قريظة راسخان فى العلم حين سمعا ما يريد به من إهلاك المدينة و أهلها قبل أن يقلع عنها فقالا له : أيها الملك ! لا تفعل فانك [إن - ٣] أبيت إلا ما تريد حيل بينك و بينها و لم نأمن عليك عاجل العقوبة . قال لهما : و لم ذاك ؟ قالا : هى مهاجر[4] نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان تكون داره و قراره . فبناها و تركها و رأى أن لهما علما ، و أعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة ، و اتبعهما على دينهما ، و كان تبّع و قومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه إلى مكة و هى طريقه إلى اليمن [١٥٣ : ب] بعد أن استصحبهما معه ، فلما كان فى بعض الطريق أتاه نفر من هذيل فقالوا : أيها الملك ! أ لا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ و الزبرجد و الياقوت و الذهب و الفضة . قال : بلى . قالوا : بيت مكة يعبده أهله و يصلّون إليه . و إنما أراد[5] الهذليون[6] هلاكه بذلك لما عرفوا من

(١) كذلك فى بن ، و هى فى بر : يعجب .

(٢) كذلك فى بن ، و هى فى بر : يقولون .

(٣) الكلمة ساقطة من بر و لكنها واردة فى بن .

(٤) فى «بن» : المهاجر .

(٥) فى الأصل وبن : أرادوا .

(٦) فى بن : الهذيليون . و فى تاج العروس : و النسبة إليها هذيلى و هذلى قياس و نادر و النادر فيه أكثر على ألسنتهم .

هلاك [من قبله - ١] من الملوك . فلما أجمع على ذلك قال للحبرين ما قاله[٢] الهذليون[٣] له[٤] ، فقالا له : إحذر ذلك ، فانهما ما أرادا إلا هلاكك و هلاك جندك ، [٥]و ما نعلم فى الأرض بيتا[٥] لله اتخذه لنفسه غيره ، و لئن[٦] فعلت ما دعوك إليه لتهلكن و [٧]ليهلكن من معك[٧] جميعا . قال : فما ذا تأمرانى أن أصنع إذا قدمت عليه؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله ، تطوف به و تعظمه و تحلق رأسك عنده و تتذلل له حتى تخرج منه . قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا[٨] : أما و الله ! إنه لبيت أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام ، و إنه لكما أخبرناك به[٩] ، و لكن أهله حالوا بيننا و بينه بالأوثان التى نصبوها حوله و بالدماء التى يريقون عنده و هم نجس أهل شرك . فعرف تبع[٩] نصحهما و صدقهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم و أرجلهم ، ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت و نحر عنده و حلق رأسه ، و أقام بمكة ستة أيام ينحر بها النحائر ، و يطعم أهلها و يسقيهم العسل ، و رأى فى المنام أن يكسو البيت فكساه

(١) ساقطة من الأصل ، و هى واردة فى بن و يكتمل المعنى بذكرها .

(٢) من بن ، و فى الأصل : قالته .

(٣) فى بن : الهذيليون .

(٤) ساقطة من بن .

(٥-٥) كذلك فى بن ، و الجملة غير مكتملة فى ين : ما نعلم فى بيتا .

(٦) فى «بن» : و إن .

(٧-٧) فى بر : و لنهلكن معك . و الصواب فى بن كما أوردناه بالنص .

(٨) كذا فى بن ، و فى الأصل : قال .

(٩) ساقطة من بر ، و واردة فى بن .

الخصف[1]، ثم رأى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء و الوصائل[2]، فكان تبع أول من كسى البيت، و أوصى به ولاته من جرهم، و أمرهم بتطهيره و لا يقربوه دما و لا ميتة، و لا تقربه الحيض، و جعل له بابا و مفتاحا.

ثم خرج متوجها إلى اليمن بمن معه من جنوده و بالحبرين، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه من شريعة الحبرين، فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار. و كانت [3] باليمن فيما يزعمون نارا [3] تحكم[4] بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل[5] المبطل و لا تضر المحق، فخرج قومه[6] بأوثانهم و ما يتقربون به في دينهم، و خرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلدين[7] بهما حتى قعدوا للنار عند مخرجها التي تخرج منه، فخرجت النار، فلما أقبلت عليهم حادوا عنها و هابوها، فدمرهم[8] من حضرهم من الناس، و أمروهم بالصبر لها، فصبروا حتى غشيتهم، فأكلت الأوثان و ما قربوا معها و من حملها من رجال حمير، و خرج الحبران بمصاحفهما تعرق جباههما لم تضرهما، فأصفقت على ذلك حمير على دين اليهودية[9] باليمن - انتهى.

(١) في بن: الخصب.
(٢) في هامش الأصل: أول من كسى البيت الحرام.
(٣-٣) في بن: النار فيما يزعمون نار.
(٤) ساقطة من «بر» وواردة في «بن».
(٥) ساقطة من بن.
(٦) في بن: قوم.
(٧) في الأصول: متقلدان.
(٨) كذا في الأصول، و ربما كان الكلمة و تذمر.
(٩) زيد في بن: من هنالك و من ذلك كان أصل اليهودية باليمن - انتهى.

خاتمة الطبع

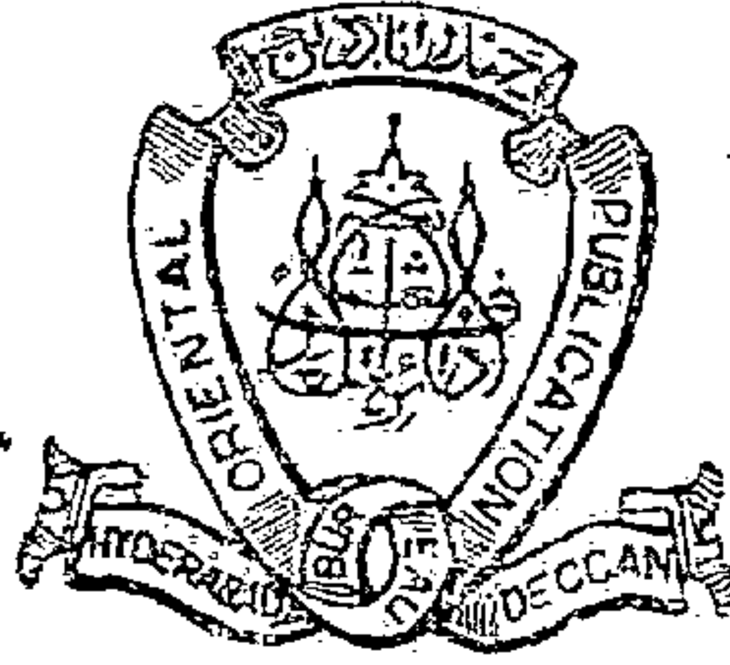
تم بمنه تعالى و حسن توفيقه طبع الجزء الثانى من كتاب الإلمام للعلامة محمد بن قاسم بن محمد النويرى رحمه الله يوم الجمعة السادس من شهر ربيع الأول سنة ١٣٨٩ هـ = ٢٣ / مايو سنة ١٩٦٩ م . اعتنى بتصحيحه و التعليق عليه الأستاذ المستشرق الدكتور عزيز سوريال عطيه . و عنى بتنقيحه راقم هذه الخاتمة تحت إشراف الأستاذ الفاضل الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف و رئيس قسم آداب اللغة العربية بالجامعة العثمانية أبقاه الله لخدمة العلم و الدين - و يليه الجزء الثالث .

و فى الختام ندعو الله سبحانه و تعالى أن ينفعنا به و يوفقنا لما يحبه و يرضاه ؛ و صلى الله على خير خلقه سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه أجمعين ، و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفقير إلى رحمة الله الغنى الحميد
السيد محمد حبيب الله الرشيد القادرى
(كامل الجامعة النظامية)
صدر المصححين بدائرة المعارف العثمانية



DA'IRATU'L-MA'ARIF'IL-OSMANIA PUBLICATIONS
NEW SERIES, NO. IX/xiii/ii



KITABU'L ILMĀM

BY

Muḥammad B. Qāsim al-Nuwairy
(D. after the year 775 A.H./1372 A.D.)

Vol. II

Edited

FORMERLY BY:

LATE PROFESSOR E TIENNE COMBE
(d. 1962)
from MSS. of Berlin & Cairo

LATER BY:

DR. AZIZ SURIAL ATIYYA
from MSS. Berlin, Cairo
and Bankipure

Printed
Under the Auspices of the Government of India
&
Under the Supervision of
Dr. M. 'Abdu'l Mu'id Khan
Director, Da'iratu'l-Ma'arif'il-Osmania

Published by
THE DA'IRATU'L MA'ARIF'L-OSMANIA
(OSMANIA ORIENTAL PUBLICATIONS BUREAU)
OSMANIA UNIVERSITY, HYDERABAD-7
INDIA
1969 A.D./1389 A.H.